الوطنية الجديدة

عزيز نيسين

الدغدغة



ترجمة: محمد

صص»

INTERNATIONELLA BIBLIOTEKET

الدغدغـــة

* الدغدغة «قصص»
* تأليف: عزيز نيسين
* ترجمة: محمد مولود فاقي
* الطبعة الأولى ٢٠٠٠

* **الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع**
سورية - دمشق - ص.ب: ٢٢٢٠٥
هاتف: ٤٤١٨٢٠٢ - ٤٤١٨١٧٢
* التوزيع في جميع أنحاء العالم:
الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع

عزيز نيسين

الدغدغـــــة

« قصص »

ترجمة محمد مولود فاقي

عنوان الكتاب بالتركية
AZIZ NESIN
GIDIGIDI

١

الكركرة أو الدغدغة

كان المقلع قد أصبح من كثرة القلع والحت والهدم ذا منظر غريب عجيب، فعندما تنظر إليه من الأعلى تراه كالهاوية، ومن الأسفل كصخرة كبيرة مرتفعة. وفي الوقت نفسه أصبح كمثلث إحدى زواياه حادة جدا على الجبل. يلمع تحت أشعة الشمس البراقة، وكأن الجبل قد أصبح عملاقاً كبيراً، مجروحاً، نائماً فاتحاً فاه الكبير نحو السهل.

الصخور الضخمة والقاسية أصبحت كبلطةٍ مصقولة من جهتها المقطوعة المطلّة على الشمس تبهر الناظرين إليها. أما الوجوه الأخرى فقد انطمرت في حضن الجبل هنا وهناك بألوان مائلة للحمرة، ولون «الحنة» والأخضر والأزرق والأبيض. هذه الألوان كانت تتشابك في جمالها مع الجبل المهدد بالهدم والقلع.

لقد تحول المقلع من كثرة الأضواء الصادرة من الجهة المقطوعة للجبل إلى ليلة عيد، وتزداد الأضواء حدّة كلما اصطدمت أشعة الشمس بالأماكن المستوية والحادة من الصخور، فيتراءى للناظر وكأن طيوراً نارية تخرج من الصخور مصفقةً بأجنحتها، وكذلك الحرارة، عندما تضرب الصخور فإنها ترتفع إلى خمسة أضعافها. وكان صدى الأصوات المصطدمة بالصخور المدببة يتردد في خمسة أرجاء، والأضواء تنعكس من الجهات المستوية للصخور لتصبح خمسة أيضاً.

يعمل في المقلع أكثر من ثلاثين عاملاً، مع رافعة يدوية علقت من الأعلى ببكرة يعمل عليها عاملان قويان؛ أحدهما يمسك بيديه «إزميلاً»

مدبباً من أحد طرفيه وقد وضع طرفه المدبب على الصخر، والثاني يضرب بالمطرقة «المهدّة» رأس الإزميل مصدراً زفيراً قوياً يشبه الآهة:

- هيه...

وعند كل ضربة من المطرقة، كان ماسك الإزميل يبصق على كفيه، ويحرك الإزميل، ويديره كي لا يظل محصوراً في الصخر. وبين وقت وآخر، كان يخرجه من الثقب ويصب قليلاً من الماء الموجود في وعاء بلاستيكي قربهما، فكان الماء يغلي في الثقب ويتبخر من شدة الحرارة، فقد حوَّل الطرف المدبب من الإزميل الثقب والصخرة إلى ما يشبه النار. وفي أسفل المقطع، عشرة عمال قطعوا صخرة كبيرة الحجم، وكانوا يحاولون إخراجها وتحريكها من حضن الجبل. أما خبير المتفجرات ـ وهو مراقب للعمال أيضاً ـ كان يضع فتيلاً مع مجموعة من أصابع الديناميت، أمام ثقب مجهز قبل يوم واحد. وبعد وضع الديناميت على «اللغم» حمل صفارته ونفخ فيها:

- انصراف...

بينما كان العمال يتناولون طعام الغداء «في استراحة الظهر»، أشعل المراقب الفتيل الذي أوشك أن يُفجِّر اللغم.

وضع العاملان اللذان يعملان فوق الحمالة المطرقة والإزميل فوقها عندما سمعا صوت الصفارة وصرخ أحدهما نحو الأسفل:

- هيي... رضا... هيا أرسل لنا العجلة.

كان ثلاثة من العمال يعملون في الأسفل، فتوجهوا نحو الحبل المربوط إلى الوتد، وبدأوا بتحريكه نحو الأعلى؛ كلما ارتفع الحبل كانت الحمالة تنزل نحو الأسفل. وعندما نزلت الحمالة إلى الأرض نزل العاملان منها، وصار العامل الأسمر يمسح العرق المتجمع على جبينه بيديه القاسيتين المليئتين بمسامير اللحم، وسارا ببطءٍ جنباً إلى جنب، وابتعدا من المكان بعد

أن أخذا صرة الطعام التي وضعاها في كوة صخرة، حتى وصلا حافة النهر الذي كانت مياهه الصافية تسير متناغمة فوق الحصى الناعم، مبتعدين مائة خطوة عن مكان عملهما.

غسل الاثنان يديهما ووجهيهما بمياه النهر الجارية، ونظفا أنفيهما من التراب ثم جلسا تحت ظل شجرة، فبسط أحدهما صرة الطعام على الأرض؛ وهي عبارة عن رأسين من البصل وحبات من الزيتون ملفوفة بورق الصحف. أما الأسمر فوضع قطعة من الخبز «السمون الطويل» وخمسين غراماً من الحلاوة بالطحين قرب البصلتين.

أشعل خبير المتفجرات بسيجارته رأس الفتيل ليحطم تلك الصخرة التي كانت ترقد كجثة عملاق كبير. فتطايرت الصخور ذات الأحجام المختلفة نحو جميع الجهات وكأن عظام الجبل قد تفككت عن بعضها... وتتالت أصداء الانفجارات تلف الجبل مرات عديدة وكأنها أصوات تنينٍ متألم.

قال أحد العاملين:

ـ بسم الله...

ومسك رغيف الخبز وقسمه إلى قسمين. أما الآخر، أي العامل الأسمر، فقد كرَّر البسملة وقال لزميله:

ـ أنا من المدينة يا أخي... أنا من المدينة... أنا لا أستطيع أن أتحمل هذا العمل... لم أنم لحظة واحدة حتى الصباح، لأن مفاصلي تؤلمني كثيراً.

فأجابه زميله:

ـ ستعتاد على العمل.

فتح الآخر كف يده وقال:

ـ انظر إلى وضعهما... إنني لم أعد أشعر بالحرارة أو بالبرودة ولا بالخشونة أو بالنعومة.

قال الآخر:

- ستشعر عندما تشتد الحرارة أكثر... حرارة جهنم...!

صمتا قليلاً، ثم انهال ذو الوجه المجدر بقبضة يده على رأس البصل وكسره، وسأل رفيقه:

- لماذا تركت بيتك وأولادك؟

قال الأسمر وهو يضع قطعة خبز بحجم القبضة على فمه:

- لا تسألني... كان ذلك بسبب زوجتي.

- أنت الآخر اكتويت بنار الزوجة!!!؟

- ها... كنت أعمل في البازار يا أخي... قلنا لنتزوج... ولكن أين!؟ وتزوجنا... فوقعنا على زوجة... أعوذ بالله... لا تسألني عنها أبداً... زوجة لا تتوقف عن الكلام، إنها كالمذياع... أقول لها: ولك اصمتي يا امرأة... فلا تصمت، أنام وأغفو ولا تسكت... أستيقظ... فلا تسكت... لم يبق عندي عقل ولك أخي... أضربها... أصفعها ألبطها برجلي... أعضها وأمضغ لحمها بأسناني... فلا تسكت... «ولك يا امرأة اسكتي والله بقتلك»... هل أقتلها وأتخلص منها؟ ورغم ذلك لا تسكت... خشيت أن أرتكب جريمة ولك أخي... بسبب لسانها. هجرت البيت وها أنا كما تراني أعيش في الغربة يا أخي.

احتار المجدر وقال:

- ولك أخي... حياتي فدى للزوجة التي تتحدث هكذا... يجب أن يكون لسان الزوجة طويلاً. على الزوجة أن تتحدث وتتكلم كالمذياع، وأنت تنام قربها وتغفو «ليلبط الحصان حديث الزوجة»... انظر إليّ أنا أشكو من قصر لسان زوجتي، أنت تزوجت امرأة ملسنة... هل يترك الإنسان تلك الزوجة ولك ابني!؟؟ أنا ابن وحيد لأب وحيد... في

قريتنا رجل يدعونه «كرم آغا»... إنه قريب لنا إلى حد ما... ويا ليت تلك القرابة لم تكن!. كرم آغا عنده ابنة اسمها آسيا... ولسانها طويل إلى حد كبير... تغرد كطيور الغابة... آسيا ضناي ولوعتي... لقد أحببت تلك الفتاة المسماة آسيا... وهي أيضاً التهب قلبها بنار حبي، قلت لها «يا بنت... هل سنظل هكذا...؟؟ هيا معي لأشردك» فقالت: بالله عليك لا توقعني في كلام الناس... أرسل والدك ليطلبني من أبي. ذهب أبي وطلب من كرم آغا ابنته آسيا، فقال له كرم آغا: وهل سأزوج ابنتي لمن هو أفضل منكم؟ أعطني زوجاً من الفدادين، والحقل الذي قرب العين وخمسمائة ليرة، وأعطني كذا وكذا... وخذ البنت وأقم لها عرساً وزوجها لابنك. أراد الرجل بطلباته أن يسلبنا كل شيء ولنصبح على الحصيرة. هل سمعت بمثل هذا الرجل القليل الوجدان والضمير؟ ولك أخي كان الرجل سيضعنا داخل كيس قمامة، ويلقينا على قارعة الطريق... تصور أنه بابنته الوحيدة سيأخذ أرواحنا... وهذا واضح جداً...

جلس أبي مع كرم آغا وبدأ مساومة... لا تفعل يا كرم آغا... بالله عليك لا تفعلها معنا... وفي كل مساومة ونقاش مع أبي كان كرم آغا يضاعف من سعر ابنته:

- أريد حظيرة وسرباً من الإوز.

ولك... ما هذه المساومة!!؟ الله يخرب بيتك من أساسه. فقد أوشك الرجل أن يطلب البلد بأكمله... عند كل مساومة مع أبي... كان يقول لي:

- ما رأيك يا ابني أن نقطع المساومة مع هذا الرجل ونعطيه كل ممتلكاتنا ونأخذ الفتاة منه!!؟

لو طالت المساومة بعض الوقت لطلب الرجل الدنيا بأكملها وزيادة...

كانت النار تشتعل في أعماقي، ومع ذلك قلت لأبي:

ـ لا أرغب بهذه الفتاة يا أبي... وسأضع حجراً على صدري... وأقصد في دنيا الاغتراب.

قال أبي:

ـ ما هذا الكلام الذي تقوله يا بني...!؟ ليس لي غيرك في هذه الدنيا...!

ذهبت إلى آسيا... وخرجت معها بنزهة على ضفة النهر... كانت آسيا تغرد كالبلبل... فقلت لها:

ـ من أين تعلمت كل هذه الكلمات يا حلوتي... وأنت فتاة قروية...!؟ لم تتحدثي أمامي قبل الآن... سأجن من حديثك الجميل... ماذا سيحلُّ بنا...؟ هذا الآفة التي هي والدك على وشك أن يزرع التين في موقدنا.

قالت آسيا:

ـ وأنت ألست ذلك الشاب القوي؟

ـ وماذا يعني، وإنني شاب قوي؟؟

ـ تعال عند الفجر وخذني معك... «شردني»، «اخطفني» سأذهب هكذا عارية إلى أبعد نقطة في هذا العالم.

قلت لها:

ـ لا تتحدثي هكذا يا بنت... إنك تتحدثين كالمجانين... تلك الآفة التي اسمها والدك... سيجنّد «جندرمة» سبعة دول في إثرنا... والله... سيلقوا بي من أعلى السطح.

المهم لا أريد إطالة الحديث عليك... فقد بعنا ما تحتنا وفوقنا... ونفذنا كل طلبات كرم آغا... حتى أن أبي اقترض ألف ليرة. وأقمنا عرساً

كبيراً... ودخلت إليها... أي أننا دخلنا إلى الغرفة... وركبتاي ترتجفان... فاقتربت من آسيا وقلت:

ـ يا بنت يا آسيا...

لا جواب ولا كلام.

ـ يا بنت...

لا صوت.

ـ يا بنت... هيشت... هيا تحدثي «يا واطية»... هيش... يا بنت... لا حديث ولا كلام ولا صوت من أصبحت آسيا كصنم... جامدة... حملتها بقوة ومددتها على السرير...

ـ كير... كر... كر... /من الكركرة أو الدغدغة/.

لم تتكلم... كدت أصاب بالجنون... قلت في نفسي... حتماً ستتحدث من جهة، وستضحك عندما سأكركرها.

ـ كر... كر...

أصبحت قليلة الناموس قطعة حجر... إنها صنم... قليلة الناموس هذه. ولك أخي... والله كنت أضرب نفسي وأنا أدور داخل الغرفة.

ـ يا بنت... ألست أنت التي كنت ذلك الطير المغرد في الغابة...؟ ألست أنت التي كنت تقولين لي «يا حبيبي الوحيد»؟ ألست أنت التي كنت تطوقين رأسي بساعديك؟ تحدثي... يا بنت.

لم تجب بكلمة واحدة يا أخي... كان عقلي على وشك الطيران من رأسي.

ـ يا بنت... يا آسيا... أدغدغها... كركر... كركر.

كانت آسيا كحجر مقبرة... المهم يا أخي... جاء الصباح... لم يبق عندي حيلة ولا قوة. ذهبت إلى المقهى وبدأت أفكر بعمق

كالمصابين بالجرب. في صباح الدخلة، كان من واجبي تقبيل يدي والدها ولكنني لم أقم بهذا الواجب... ولم أدخل إليها. وإذا لم أفعل ذلك، فكل الناس سينظرون إلي بريبة... عندما حل المساء دخلنا أنا وآسيا ثانية إلى الغرفة.

- يا بنت... إذا لم تتحدثي معي والله أقتلك...

لا حياة لمن تنادي.

- يا بنت... بشرفي وناموسي أضربك...

لا صوت ولا حديث ولا جواب.

- قولي شيئاًيا بنت... قولي: لا تضربني. قولي ولك... اشتميني... أنا راضٍ، سبيني...

رأيت أن الحالة لن تُحل بهذا الأسلوب، فضغطت عليها بقوة، ومع هذا لم يصدر منها أي كلام... ضغطت عليها ثانية وكان لحمها على وشك أن يُعتصر في يدي، وساقها علي وشك أن تُخلع... لا صوت يا أخي. أنتف شعري من الهيجان... ولِكْ جعلتيني مسخرة للقرية... خَفَفْتُ من غضبي وبدأت بكلمات الحب وبصوت ناعم:

- آسيتي... أدغدغها... غيدي... غيدي... كركر... كركر.

لم يصدر منها أي شيء، وحل الصباح ثانية، وشعرت بنعاس شديد. لم أنم أبداً تلك الليلة، ولم أتناول لقمة واحدة من الطعام منذ يومين، أحاط السواد بعيني، ورأسي يدور كالمروحة... ولم أذهب إلى المقهى من شدة خجلي؛ لأنهم سيقولون عني: انظروا إليه، لم يستطع أن يدخل على فتاة. وجاءت الليلة الثالثة... لا مناص منها... وبدأت بضربها... كنت أضربها برجلي، وأنهال عليها باللكمات القوية على كل أنحاء جسمها، ولم تصدر عنها كلمة واحدة.

ـ وِلِكْ قولي آخ... قولي شيئاً، وِلِكْ... ليصدر من فمك كلمة...! وِلِكْ... ابكي... اصرخي... تألمي وِلِكْ.

لا صوت ولا كلام ولا حديث ولا بكاء... بقيت أضربها وأقتلها وأشتمها حتى الصباح، فانهارت قواي ولم أستطع السير أو الوقوف. عند الصباح جاء إلي /Sagdic/: /الذي يجلس قرب العريس في ليلة الحنة ويعامل كالعريس الحقيقي/. وقال لي:

ـ ماذا فعلت بنفسك يا رفيق الدرب...؟ لقد انقلبت سمنتك واصفر وجهك، ونشف دمك، هل ظهرت آسيا غير عذراء؟

ـ لم أدخل إليها حتى أعرف هل هي عذراء أم غير ذلك. وهل يحق لي حتى ولو كان رفيقاً لي أن أسر له هذا؟ لم أستطع حتى فتح فمها.

عندما أصر علي صديقي «باكير» لأحدثه بما جرى لي قلت له كل ما في صدري، فضحك مطولاً وقال:

ـ طبعاً لم تتكلم معك ولم تحدثك... وهل أعطيتها شيئا كي تتحدث؟ خاتم... أو إسوارة؟ أعطها وانتظر النتيجة... إذا أعجبتها الهدية تحدثت إليك، وإذا لم تعجبها الهدية فهي لن تكلمك، وعندها ستعطيها أشياء وهدايا حتى يعجبها وتتحدث إليك. وبالتأكيد سيعجبها شيء ما وستتكلم، وإلا... لو قطعت لحمها وأخرجت روحها فلن تلفظ حرفاً واحداً.

ـ ولك أخي باكير... ألم نعط والدها كل ما تحتنا وما فوقنا؟

ـ هذا أمر آخر؛ ما أعطيته لأبيها كان بمثابة مهر، أما الفتيات فيطلبن هدايا كي يتحدثن.

ـ ولك أخي... هذه الفتاة طلبت مني أن أخطفها، ولو كنت خطفتها ماذا كان سيحصل يعني...؟

ـ هذا أمر آخر؛ لو خطفتها لأصبحت بلبلاً يغرد، ولكنك لم تخطفها، عقدت عليها النكاح... هذا قانون اللعبة... المهم ستعطيها شيئاً.

جاء الليل... قلت لآسيا:

ـ يا بنت... يقولون أنك لا تتحدثين معي لأنني لم أقدم لك هدية. والله ما معي... بالله ما معي... كما تعلمين فوالدك أخذ كل شيء. اعتبري هديتي ديناً، والله سأعطيك ما يكفي أن تتحدثي به طول حياتك.

ظلت صامتة لا تتحدث... أخرجت السكين من جيبي، وغرزتها في رأسها... فانفجرت الدماء... لم تقل آخ... لم يبق عندي لا مروءة الشباب ولا غيرها. ولماذا أخبئ عنك يا أخي... عندما رأيت الدم بدأت بالبكاء، وآسيا صامتة...

ـ يا بنت... كركر... كركر... أدغدغها، أكركرها، يا بنت والله سأموت.

جاء الصباح ولم أستطع الوقوف على قدمي، انقطعت عن الطعام والشراب مدة ثلاثة أيام، وأخيراً ذهبت إلى أمي العجوز وقلت لها:

ـ هذه... قليلة الإيمان... لا تتحدث معي لأنني لم أعطها هدية ليلة زفافها، منذ أسبوع وأنا أحاول ذلك.

وإذا بأمي تقف مع الفتاة:

ـ بالتأكيد لن تتحدث معك....

وأخرجت من صندوقها خمسة أوراق نقدية من فئة الليرة، وناولتني المبلغ وقالت:

ـ اعط المبلغ لآسيا.

عملت بما أشارت علي أمي ووضعت المبلغ مساء قرب فراش آسيا وقلت:

ـ الآن تحدثي معي يا قليلة الإيمان.

نظرت إلى المبلغ ثم التفتت إلى الجهة الأخرى ولم تقل شيئاً. فعدت إلى الدغدغة والكركرة والدندنة... ولم تفتح فمها. عند الصباح ذهبت إلى البلدة وكان فيها صديق قديم لي حدثته عن كل ما يجري معي... كيت وكيت... أخذني صديقي من يدي إلى البازار واشترى لي حلقاً من الخرز الأزرق بمائة وخمسين قرشاً وقال لي:

ـ هيا خذ هذا وقدمه لها... فلو كانت من حجر فستتحدث إليك.

رجعت إلى المنزل، وكنت على وشك الموت يا أخي!! لا أستطيع الوقوف على قدمي... كانت صورة البشر قد غابت عني وتحولت إلى شبح حقيقي. وفي الليل دخلت إلى غرفتها وقلت:

ـ يا بنت... آسيا انظري ماذا جلبت لك...

وإذا بها تتعلق برقبتي وتبدأ بالضحك بعد أن رأت ذلك الحلق الخرزي الأزرق. تحولت آسيا إلى آسيا الأصلية وأصبحت كطير غابة تغرد وتغرد.. تقول وتقول... تصفّ الكلام صفاً جميلاً... فالتقطها بعنف ورميتها على الأرض، لم أكن أملك القوة كي أمسكها لأنني كنت أقف على قدمي بصعوبة بالغة، المهم ارتمينا على الفراش.. ولكن يا أخي لاحظت أن الرجولة قد رحلت عني كلياً...! وآسيا تتحدث وتتحدث دون توقف وأنا وسط بحر من الدماء والعرق.

بقيت حتى الصباح طريح الفراش أضرب نفسي وأرثي لحالي. كنت أقول لنفسي غداً ستصبح سيرتي على كل لسان... سيتحدث جميع أهل القرية عني.... وهل أستطيع العودة إلى تلك الديار...!؟

هذه قصتي يا أخي. أنت وجدت زوجة ملسنة... هل يحق لك الهرب منها أو تركها وحيدة!؟

انطلقت صفارة المراقب... نهض الاثنان... فقال ذو الوجه المجدر:

ـ يجب أن تكون النساء مُلسنات!

وصلا المقلع... ووقفا على الحمالة، فقال الأسمر صارخاً:

ـ هيا ارفع البكرة يا رضا....

○ ○ ○

٢

كيف يجب أن يكون رأس الخازوق

كان رجل بدين يجلس في صالون الفندق المطل على الشارع من نافذة زجاجية كبيرة وقد وضع إحدى ساقيه تحته. بعد قليل دخل إلى الفندق خمسة أشخاص، ومن الواضح أنهم من الولايات البعيدة بسبب الألبسة التي كانوا يلبسونها، فقال الرجل الجالس على الكرسي: «مرحباً». أجاب كل واحدٍ من الخمسة على حدة: «مرحباً». سألهم الرجل الجالس على الكرسي:

ـ هل جئتم إلى أنقرة من أجل عمل ما؟

أجاب أحدهم وهو من كان فمه مصفوفاً بالأسنان الذهبية:

ـ نحن وفد لتقديم العرائض.

ـ هذا واضح... فيكم... وربما جئتم من أجل طلب معمل أو مصنع ما...؟

ـ ها... وكيف عرفت ذلك يا عمّاه؟

فقال الرجل الجالس:

ـ وكيف لا أعرف يا آغا...؟ لقد مر على هذا الرأس كثيرون. عندما يأتي وفد ما إلى أنقرة، لماذا يأتي؟ كي يطلب خدمةً ما أو مصنعاً ما، ومن أجل هذا السبب احترقت رؤوسنا... وأكلنا خازوقاً... التوبة... أول مرة. إن علّتنا ليست من المصنع بل من الخازوق... إذا كنتم حقيقة وفداً وتريدون طلب معمل من الحكومة فأصغوا إلي جيداً قبل أن تقوموا بذلك أيها الأغوات: الآن اذهبوا وقولوا نريد معملاً، أليس كذلك؟

وسيكون جوابهم... حتماً، طلبكم على الرأس والعين. وعندها ستظهر لكم علة الخازوق الذي لا تستطيعون التخلص منه أبداً.

لقد جئنا إلى هنا مثلكم وكنا خمسةً من أجل إنشاء معمل. طلب مني زملائي أن أكون رئيساً للوفد، وعندما وقفنا أمام المسؤول قال لنا: «اطلبوا ما تشاؤون». ونحن حسب تقاليدنا الموروثة من أجدادنا يجب أن يُسأل هذا ثلاث مرات. في المرتين الأوليين وعلى حسب أصول التربية ستقول... لا نريد إلا صحتكم، وفي المرة الثالثة ستطلب ما جئت من أجله. نحن لم نخالف الأصول في المرة الأولى فقلنا: «نريد صحتكم» ولكنهم خالفوا الأصول وقالوا: «أدامكم الله». وبهذا... قطعوا علينا الحديث مباشرة. لكمني الحلاق أمين آغا برسغه فوق كليتي قائلاً:

ـ آمان... وهل ينتهي هذا الأمر بالصحة والعافية؟ وماذا سيكون حال معملنا الذي جئنا من أجله؟ دبر حالك يا آغا. قال لي ذلك هامساً في أذني، عندها قلت للحلاق أمين:

ـ اسكت... الله يخرب بيتك، إن الصحة رأس كل عمل.

وكيف لي أن أعرف أن هذا المسؤول الحكومي سيقاطعني من المرة الأولى. لاحظت أن الرجل غير مهتم بنا على الإطلاق، وهو على وشك أن يقول لنا وهو يمسح ظهورنا:

ـ هيا... مع السلامة يا أغوات... انتبهوا إلى صحتكم.

بدأت الحديث مختصراً:

ـ بالله عليك يا سيدي... نحن جئنا إلى هنا كي نطلب شيئاً، ولأجل هذا السبب أرسلونا من البلد كوفد. فقال المسؤول:

ـ تفضل يا آغا... قولوا حاجتكم لنرَ كيف سنخدمكم.

فقلت:

ـ المشاريع التي شيدت برعايتكم في كل مكان أصبحت على كل لسان. لقد فتحتم لنا الطرق، وجلبتم المياه... ولكن بقينا محرومين من المعامل والمصانع، إننا لا نستطيع أن نرفع رؤوسنا أمام سكان النواحي المجاورة.

فسألني:

ـ ما هذا الكلام أيها السيد؟ إذا كان طلبكم متوقف على معمل فالأمر سهل جداً... ما نوع المعمل الذي تريدونه؟ أيها الأغوات هل وضعنا عقولنا في رؤوسنا وفكرنا في ماهية ونوع المعمل الذي جئنا نطلبه؟

ما كان مني إلا أن استعملت بساطة القرويين ومكرهم فقلت:

ـ استغفر الله، هذا الأمر منوط بكم... وليس لأحدنا التدخل في شؤونكم، وأنتم أعلم منا في بناء المعمل الذي تجدونه مناسباً... ولا يحق لنا أبداً التدخل في شؤون الدوائر الرسمية... المهم في الأمر أن يكون عندنا معمل كي لا نقع فريسة الخجل من سكان النواحي المجاورة... وليكن أي معمل.

فقال:

ـ سأبحث في هذا الأمر جدياً... وإنشاء الله سنقوم ببناء هذا المعمل عندكم وبأقرب وقت.

رجعنا إلى البلد ونحن نرقص فرحاً... وأذعنا الخبر في كل المنطقة: «سيبنى معمل في بلدنا». لقد انتهى هذا الأمر أيضاً. ولكن المعارضة عندنا، والتي ولد الفرد منها معارضاً منذ يوم ولادته من أمه، نشرت إشاعة بين السكان مفادها أنه سيكون معملاً للثلج... ولك أخي... ليقم المعمل حتى ولو كان معمل ثلج، أليس هذا أفضل من لا شيء؟؟ وبدأ هذا الأمر يكبر ويتضخم... قال شو... معمل ثلج... شو معمل ملح. وكانت أولى

المصائب تأتينا من رئيس المعارضة عندنا وهو السيد رضا. الذي كان يحتج على هذا الأمر قائلاً:

ـ عندما يقام معمل الثلج وتشتد الحرارة في الصيف وتشرب المعارضة منه فإنهم سيصابون بالتهاب القصبات، وهذا الأمر يقضي عليهم واحداً بعد الآخر. هذا هو الادعاء الأول، أما الادعاء الثاني الذي وقفوا عنده، والذي لا يفكر فيه سوى الشياطين: «عندما يذوب الثلج يتحول إلى ماء، وهذا يؤدي إلى سيلان المال من جيوب الشعب». ولك أخي... ولماذا يذهب مال الشعب هكذا هباء منثوراً؟ مال الشعب سيبقى مالاً، وسيظل في جيوب الشعب. هذا المعمل سيقام على حساب الحكومة... أي من مال الحكومة.

بعد عدة أيام أذاعوا إشاعة أخرى... قال شو: سيقام معمل للكازوز، وماذا يعني ذلك!؟ ليقم معمل الكازوز... وهل في هذا ضرر؟ قالوا: «فيه ضرر كبير». وما هو؟ قالوا: «إن معمل الكازوز عبارة عن دكان لجمع الأوساخ، حيث سيجتمع فيه الأشخاص الوسخون في هذا البلد».

بينما كنا نتجادل في هذا الأمر، وإذا بوفد رسمي يصل إلينا من أنقرة، فعرفنا بما لا يقبل الشك أنه سيقام عندنا معمل لإنتاج الإسمنت. في هذه المرة تراجعت ألسنة المعارضة وعادت إلى أوكارها ثانية. بعد عدة أيام أذاع السيد رضا إشاعة جديدة مفادها: «هؤلاء، أي الحكومة، أينما ذهبوا لا يعرفون سوى بناء معامل الإسمنت ومعامل السكر... ماذا يحصل لو قرروا بناء مصانعٍ لإنتاج البرسيم!؟»

جاءت الانتخابات التشريعية... ومع قدومها ظهرت إشاعات كثيرة: «لنعرف إلى من سندلي بأصواتنا يجب أن نعرف مكان إقامة المعمل». والله عجيب...! وما دخل ذلك بالانتخابات...؟ وماذا سيفيدكم معرفة

مكان المعمل!؟ على أية حال أنتم معارضة وكفى... واختلطت الأمور ببعضها... وذلك من أجل السيد رضا.

في أحد الأيام زارنا مسؤول كبير... فاجتمعنا في ساحة القرية. قال المسؤول:

ـ أيها الأخوة المواطنون، لقد طلبتم معملاً... ونحن سنقدم لكم هذه الخدمة، وسنبني لكم معملاً.

فقال المعارضون:

ـ ولكن يجب أن نعرف مكان المعمل.

أجاب المسؤول:

ـ سنبني المعمل في هذه الأطراف. وأشار بإصبعه...

فقال المعارضون والذين يقودهم السيد رضا:

ـ هل البلدة كلها ستكون معملاً!؟

ما هذا الكلام يعني!؟ واختلط الحابل بالنابل، وخرجت الأصوات من كل الاتجاهات.... مر وقت قصير... وإذ بنا نسمع إشاعة جديدة مفادها أن المعمل سيبنى على أرض السيد رضا.... والله شيء عجيب... كيف يقام المعمل على أرض السيد رضا وهو من المعارضين...!؟ شكّلنا وفداً حزبياً وذهبنا إلى أنقرة لنستفسر عن هذا الأمر... وفهمنا أن السيد رضا بعد أن باع عقاره للحكومة فقد تخلّى مع أنصاره عن حزب المعارضة. وقالوا لنا:

ـ أنتم طلبتم منا معملاً، فها نحن سنبني لكم المعمل... وفي الوقت نفسه جذبنا كل المعارضين إلى صفنا... لقد رمينا عصفورين بحجر واحد.

فزنا بالانتخابات بالأكثرية الساحقة.... ولنرجع ثانية إلى المعمل...

ومع جمع الجهود المتوفرة، لم يبن المعمل. لماذا...؟ لأن عقار السيد رضا معفّن مثل قلبه؛ فكل الأساسات التي كانت تقام تتهدم مباشرة. ولكي تقام الأساسات جيداً حفروا الأرض أكثر من ثلاثة أمتار، وقال المهندسون أنه لا يمكن بناء معمل فوق هذه الأرض. جرى حفر أربعة أمتار إضافية... ولكن التربة غير صالحة. حفروا ثلاثة أمتار أخرى، التربة لم تكن رملية بل شبيهة بالطحين إلى حد ما، وبسبب عمق الأساسات كان المال المخصص للمشروع على وشك النفاد. وبدأت التلال المجاورة لحفر الأساس تتماوج وتتحرك وتردم كل حفرة جديدة... ولك أخي... إن التراب أصبح يسيل كالماء... ولا نستطيع إقامة جدار استنادي قوي. احتار المهندسون... إنه أمر عجيب حقاً... لم يشاهدوه في تاريخ عملهم. الله يخرب بيتك يا رضا... من كثرة الحفر سنقضي على البلدة بأكملها. وفي الوقت نفسه كانت المعارضة لا تسكت في أنقرة... أين معمل الإسمنت...؟ لماذا لم يبن حتى الآن...؟ ولك عمي دعونا من المعمل وغيره... البلدة على وشك أن تختفي تحت الأرض؛ في كل يومٍ تنهار تلة، فبدأوا بصب الاسمنت من الأعلى لتتماسك التربة، ولكنّ الأرض تبتلع الاسمنت بشكلٍ غير عادي. بالله عليكم أيها الأخوة... لقد ثقبنا الأرض حتى وصلنا إلى عمق كبير... مستحيل الاستمرار بوضع الاسمنت إلى نهاية الأرض، هذا غير ممكن أبداً حتى ولو أقمنا معملاً للإسمنت ماذا سيفيدنا؟ إن إسمنت مائة معملٍ لا يكفي لسد هذا الثقب. آه وِلَكْ رضا... لقد قضيت علينا. عندئذٍ اتفق المهندسون جميعاً وأرسلوا خبراً إلى أنقرة: «إن الأساس غير متماسك هنا». وصل أمر معاكس من أنقرة: «الأساس سيتماسك». وبدأت الحفريات ثانية نحو كل الاتجاهات، على أمل إيجاد مكان مناسب للأساس، ولكن مع كل حفر جديدٍ كانت التلال تتهاوى وتنزلق؛ إنه شيء كالزلزال...! عندما أفقنا في أحد الأيام كانت الصيدلية قد اختفت عن الأرض، وتداخلت بالنبع... والرصيف انقلب على جانبه،

وبدأت المنازل والأسطح تنساب من أمكنتها وكأن الروح قد عادت إليها. وبلحظاتٍ يختفي مخفر الجندرمة داخل الأرض... وتبدأ النساء بالصراخ والعويل... ولك آمان... البلدة على وشك الاختفاء. لو سار شخصان دفعة واحدة وضرب أحدهما الأرض بقدميه لوصل إلى عمق أكثر من ثلاثة أمتار داخلها.

قال المهندسون: «لا يوجد أمامنا سوى غرز بعض الخوازيق كي نحافظ على البلدة، وإلا فإنها ستهتز كالمهد».

بدأت إقامة الخوازيق... فكانت الآلات تسكب أطناناً من الاسمنت على الأرض على هيئة أوتاد أو أعمدة، ولكن الأرض كانت تبتلع هذه الخوازيق الضخمة بمجرد وضعها كالأسبرين. فظهر اختلاف بين المهندسين اقترح بعضهم خوازيق برؤوس «روزانية»، وبعضهم برؤوس «سوفانية». لتكن رؤوس الخوازيق بأي شكل... لإنقاذ البلدة من الفناء والدمار.

توجه جميع المهندسين إلى أنقرة بعد الخلاف على الخوازيق.... من غير المعقول أن يظهر معارضون للخوازيق. ومن الغريب جداً أن المهندسين المعارضين كانوا يطلبون خوازيق برؤوس «سوفانية». جرى بحث واستشارة الأمر مع مهندس انكليزي مختص في رؤوس الخوازيق، فاقترح أن تكون الرؤوس «روزانية».

بدأ الشعب جدالاً حول رؤوس الخوازيق، والمعارضة تصرخ في أنقرة: «ماذا حصل لمعمل الإسمنت؟» وِلَكْ أخي اعطونا بعض الوقت حتى نتوصل على رأس أي خازوق سنقف.

غضب المهندسون المعارضون الذين كانوا يطلبون رؤوساً سوفانية من المهندس الانكليزي المختص وقالوا:

«من أين لهذا المهندس المختص الغريب أن يعرف بنوعية التربة عندنا؟ لقد تقدم باقتراحه على أساس التربة الانكليزية».

والمعارضة غير المنصفة تصرخ وتقول: «ماذا حصل لمعمل الإسمنت هناك؟» الشعب يفكر برؤوس الخوازيق، وهم في هوى سياستهم.

أصغوا إلي جيداً أيها الأغوات... لقد عرفت أنكم وفد حزبي، وقد جئتم إلى هنا كي تطلبوا معملاً، وإنشاء الله سيبنون لكم معمل الإسمنت، ولكن افتحوا عيونكم جيداً... وحذار أن تبنوا المعمل على أرض إنسانٍ معارضٍ. إن بناء المعمل ليس بالأمر الهام، ولكن المهم: إذا ما ظهر عقار المعارض معفناً... فكيف سيتم الاتفاق على رؤوس الخوازيق بينكم أيها الأغوات!!؟؟

○ ○ ○

٣

لا نذهب إلى ساحة الاستقبال

دخل ثلاثة فرسان إلى قرية «انجيك»... في مقدمتهم عريف الجندرمة وخلفه اثنين من المجندين.

كان المجندان يسيران جنباً إلى جنب وهما يضحكان ويتسامران فوق حصانيهما، ولكن وجه العريف كان عابساً كامبراطور في حضارة «آغرار»... عندما وصل إلى مدخل القرية همز حصانه وأسرع في الجري. هرب الأطفال الذين كانوا يلعبون في مياه الساقية نحو جميع الجهات، بينما توجه طفل بدين نحو المقهى، وهو يرفل بكرشه مثل كيس يحمله على بطنه. وبمجرد دخوله المقهى صرخ بالموجودين:

ـ القومندان قادم... القومندان قادم...!

توقف الحضور عن الحديث المباشر والتفتوا نحو الباب ليشاهدوا من القادم، واستمروا واقفين حتى وصوله. أما الطفل فخرج ثانية ليستمتع برؤية الجندرمة وأحصنتهم، وعند خروجه من الباب كان العريف والعنصران قد نزلوا عن أحصنتهم أمام المقهى. ربط أحد المواطنين الأحصنة على عمود قريب ودخل الثلاثة دفعة واحدة، دون أن يصدر عن الحضور أية حركة، عدا القهواتي الذي تقدم خطوتين نحو الأمام وقال:

ـ تفضلوا يا سيادة العريف...

لم ينظر العريف نحو القهواتي لكنه توجه ببصره نحو الجالسين على كراسي القش وثبت نظراته فيهم. كانت عيناه لا تريان الحضور جيداً،

بسبب ضعف الضوء في المقهى قياساً إلى الخارج. ساد بعض الصمت... ثم صرخ العريف فجأة:

ـ هل هذا عصيان؟!

لم يصدر أي صوت... فصرخ العريف ثانية:

ـ أقول لكم هل هذا عصيان؟!

قال أحد الحاضرين:

ـ أستغفر الله.

ـ إذا كان هذا عصيان... أستغفر الله، فلماذا أنتم صامتون؟ أين المختار؟ أين ذلك الأصلع الذي يسمي نفسه مختاراً؟

أجاب المختار:

ـ تفضلوا يا سيادة العريف... قبل كل شيء تعال وأجلس.

كانت عينا العريف قد اعتادتا الظلام الخفيف، فتقدم نحو الطاولة القريبة من باب المقهى... فنهض المختار ومَن في المقهى ووقفوا جميعاً وأشار المختار إلى الكرسي:

ـ تفضل اجلس... إننا نريد أن نقول لك شيئاً.

وبينما العريف يجلس على الكرسي قال بصوت عال:

ـ لن أجلس... هيا أفهموني... ما سبب هذا التواجد؟

ثم جلس العنصران الآخران على كرسيين من القش. فنادى المختار القهواتي قائلاً:

ـ هيا أحضر شاياً جديداً «للقومندان».

ثم قال «مرحباً» لكل واحد من الجندرمة على حدة، واضعاً يده اليمنى على صدره. فسأل العريفُ المختارَ ثانيةً:

ـ هل هذا عصيان؟

ـ أستغفر الله... ما هذا الكلام يا سيادة العريف؟!

ـ إذا كان هذا ليس بعصيان، فلماذا لم تستقبلوني في الساحة؟ لماذا لم يخرج أحدكم ويربط حصاني؟؟ عند كل حضور سابق، كنتم تندفعون لاستقبالي... إذاً هذا عصيان...

ـ لا والله.

ـ إذا لم يكن عصياناً... فلماذا ترفعون رؤوسكم هكذا؟ ألست قائداً للجندرمة؟ ألم أحضر لزيارتكم دائماً بلباسي الرسمي؟؟

قدم القهواتي الشاي للعريف، فأخذ الكأس ورشف منه جرعة وقال:

ـ لن أشرب الشاي ولا أي شيء آخر من عندكم... سأحاسبكم يا مختار.

ـ تفضل...

ـ ألم أتصل معك هاتفياً؟

ـ اتصلت يا حضرة العريف.

ـ ألم أعلمكم عن أصول الديمقراطية؟

ـ نعم أعلمتني يا سيدي.

ـ ألم أرسل لك خبراً مع الجندرمة؟

ـ نعم، أوصلوا الخبر يا سيدي.

ـ طيب أنا أعلمتك بما هو مطلوب منك، فماذا فعلت أنت...؟ لماذا لم تحضروا إلى الساحة؟ ها...؟ لماذا...؟ ألم أقل لكم يجب أن تحضروا إلى الساحة بمائة رجل وأربعين فارساً لاستقبالي؟ وطلبت منكم أن تصرخوا هناك «تعيش الديمقراطية». ثم ألم أخبركم أنه يجب أن تحضروا معكم

عجلاً، وكبشين، لنحرهما هناك وأمام قدمي؟؟ كل القرى قالت على الرأس والعين. وأنتم لماذا لم تحضروا؟؟

ـ سيادة العريف... بدل العجل نذبح خمسة عجول، وبدل الكبشين عشرين كبشاً ليكونوا قرابين للديمقراطية. ولكن نحن لا نذهب إلى ساحة الاستقبال...! نحن مستعدون أن نرسل لك قطيعاً من الأغنام والماعز... لتكون كلها قرابين للديمقراطية... بالله عليك يا سيادة العريف... لا ترسلنا إلى تلك الساحة.

ـ إذاً أنتم ضد الديمقراطية...؟

ـ أستغفر الله... ليس لنا كلام بحق الديمقراطية... ولكننا لا نذهب إلى ساحة الاستقبال تلك...!

ـ إذاً تقول لا... فلماذا تتمردون على الحرية؟

ـ أستغفر الله... ليس لنا كلام بحق الحرية... الحرية هي الحرية... ورؤوسنا على الدوام محنيَّةٌ أمام الحرية. ولكن يا سيادة العريف... نحن لا نذهب إلى ساحة الاستقبال!

ـ ولَكْ مختار... نحن من عيَّنك مختاراً لهذه القرية. وإذا كنت لا تريد الذهاب إلى ساحة الاستقبال فكيف ستعترف بالديمقراطية؟! وتقول أيضاً إن الحرية على الرأس والعين... وفي الوقت نفسه لا تهتفون لها... «أي عاشت الحرية».

ـ لا يا سيادة العريف، نحن لم نقل إننا لا نهتف... إنك لم تكذب، ولكنك أخطأت... لقد فهمتنا خطأً... نحن في هذه الجهة سنفعل المستحيل في هذا الاتجاه... سنهتف بملء حناجرنا ونمجد الحرية. ولكننا من القرية، أو من هنا، لن نذهب إلى ساحة الاستقبال، سنهتف ونُعيِّش من هنا، ونقيم الدنيا ونقعدها... ولكن، لن نذهب إلى الساحة... هيه...!

قدم المختار علبة السجائر للعريف، فأخذ منها سيجارة وقال بعد أن أشعلها بالنار:

ـ لن أدخن... لن أدخن سجائركم بعد الآن... إلى أن يفسر لي المختار عدم ذهابكم إلى ساحة الاستقبال.

ـ لن نذهب يا سيادة العريف... سنهتف ونُعَيِّش من هنا... «عاشت الحرية» سنبقى أسبوعاً كاملاً نهتف من هنا، ولكن لن نذهب...

فقال أحد الحضور، وهو من المسنين:

ـ يا مختار لماذا لا تقول له السبب...؟ تكلّم حتى يعرف لماذا لا نريد الذهاب إلى هناك.

قال المختار:

ـ اسمع يا سيادة العريف... ألم نكن نذهب إلى ساحة الاستقبال في كل مرة تطلبنا فيها؟ كنا نذهب للساحة هرولة... كنت تطلب... أحضروا للساحة مائة رجل... فكنا نحضر الكبار والصغار، حتى الرضّع... طلبت منا كبشاً... أرسلنا زوجين من الثيران... ولكن لم يبق شيء بعد الآن. اسمعنا جيداً... في العام الماضي اتصلت معنا هاتفياً وقلت لنا: «احضروا إلى ساحة الاستقبال» فهرعنا، وملأنا الطريق حتى لم تعد الساحة تتسع للحضور الضخم... صعد أحدهم إلى المنصة وألقى خطاباً، وصفقنا له. وعندها هاجمنا البوليس... وأشبعونا ضرباً على رؤوسنا بالعصي... حتى إنني سقطت على الأرض، أنا وإبراهيم بك «آلاغوز».

فسأل آلاغوز:

ـ ما هذا يا مختار؟

فقلت له:

ـ آمان يا إبراهيم... منذ أن توقفنا عن الحضور إلى الساحة ربما تغيرت الأحزاب، والحكومة أيضاً... وأصبح الحزب الآخر في الحكومة.

بعد أن أكلنا من القتل والضرب الشيء الكثير، فهمنا أخيراً حقيقة الأمر: إن الشخص الذي كان يخطب لم يكن من حزبنا...! ونحن صفقنا له دون معرفة، وبالخطأ. عدنا إلى القرية مثخنين بالجراح والكسور كأننا عائدون من الحرب. فنام الجميع على فراش المرض. وبعد أسبوع طلبت منا أن نتوجه إلى الساحة كي نستقبل شخصاً على مستوىً عالٍ: يجب أن تحملوا سيارته في الهواء برؤوس أصابعكم. فذهبنا إلى هناك جميعاً... من السبعة إلى السبعين... عندما وصلنا إلى الساحة وشاهدنا السيارات، هجمنا عليها وحملناها على أكتافنا وإذا بشاحنات الإطفائية تهجم علينا... أمطرونا بالماء المندفع من الخراطيم... فأصبحت الساحة مثل مستنقع، وكنت على وشك أن أغرق. من جهة ثانية كان «حسين دوفناك» قد تبلل بالماء أيضاً، ومع ذلك ظل يصفق ويصرخ... عاش... عاش... ومن جهة ثالثة كان يقول لي:

ـ آمان يا عمي المختار... اهتف وصفق لهم... يرشون الماء علينا لأننا لا نصفق لهم ولا نعيِّشهم.

ـ ولك أخي كلامك غير صحيح... إن التصفيق والصراخ، ورش الناس بالماء كانا من دواعي اللعبة هنا... إنهم يظهرون فرحتهم بالماء ورشه... ألم تصل المياه إلى المدينة؟ إنهم يرشون الناس بالماء ليراها المسؤول الذي حضر إلى هنا. ولهذا أغرقونا بالماء...

تخلصنا من الماء بأعجوبة... وما لبثنا أن تكشفنا الحقيقة... وهي كما في المرة الأولى: كنا قد رفعنا في الهواء سيارات المسؤولين من الحزب الآخر، ولهذا السبب أغرقونا بالماء أكثر من المطر. وعدنا إلى القرية وثيابنا مبللة نرتجف تحتها من البرد. أنا شخصيا كنت مبللاً بشكلٍ كبير بحيث

لم تجف ثيابي طيلة خمسة عشر يوماً. وبعد اسبوع اتصلت معنا هاتفياً يا سيادة العريف... وقلت لنا: اجتمعوا في ساحة الاستقبال. في هذه المرة رفض القرويون الذهاب إلى الساحة، وأنا معهم أيضاً... هيه... وقلت لهم:

ـ ولك يا أخي شو بيطلع من قتلة... ومن بلة...؟ ألم تأكلوا عصاً غليظة من الحكومة القديمة؟! على الأقل الآن نأكل العصا من حكومة حزبنا... إنهم ليسوا غرباء... إنهم أولاد حزبنا.

جمعت القرويين وذهبنا إلى الساحة، وما أن وطئت أقدامنا أرض الساحة، وقبل أن نرى أحداً، وقبل أن نسمع كلام أحد، وإذا بالبوليس يهجم علينا من جميع الجهات... سيارات الجيب تحيط بنا، والعصا الغليظة تنزل على رؤوسنا ورقابنا، وخراطيم الإطفائية تمطر علينا... الله... الله... خلال لحظات قليلة أغرقتنا المياه ثانية يا سيادة العريف... وما لبثت القنابل أن بدأت تنفجر حولنا: «بوم... بوم» يجب أن نكون قد أخطأنا في أمر من الأمور. ولم نفهم حتى الآن ما هو الخطأ الذي بدر منا آنذاك...! يقولون عن تلك القنابل أنها مسيلة للدموع... فبدأنا جميعاً بالبكاء. ورجب هذا، من جهة كان يضحك ومن جهة أخرى كان يبكي... القنابل تنفجر «باط باط» والخراطيم تفرغ المياه، وسيارات الجيب تدور «فير فير» والعصا تنزل علينا «كوم كوم» والقرويون يصرخون ويهتفون:

ـ تعيش الديمقراطية... تحيا الحرية...

فقلت لهم آنذاك:

ـ لا تهتفوا هكذا... أوقفوا هذا الهتاف والصراخ... ربما تغيرت «الحكومة». فهربنا من هناك وعدنا إلى القرية. كانت القنابل المسيلة للدموع قد قضت علينا، فبقينا لأيام عديدة وعيوننا تدمع كالنبع.

ولأجل هذا السبب... نرجوك يا سيادة العريف... «لقد وقعنا على موقدك» لا ترسلنا إلى ساحة الاستقبال، لأننا لن نذهب... سنفعل كل ما تطلبه منا: نرسل لك القرابين، ونهتف في هذه القرية من الصباح حتى المساء...

«تعيش الديمقراطية»... «تحيا الحرية»، ولكن يا سيادة العريف لن نذهب إلى الساحة.

○ ○ ○

٤

أعداء العرض والناموس

كان ثلاثة من الشباب مقيدين من أيديهم، وواقفين في الممر الثالث من محطة القطار، ومحاطين بعنصرين من الجندرمة. حاول أحد عناصر الجندرمة زجهم في إحدى القاطرات، فقال له أحد الشباب:

ـ بالله عليك يا سيادة الرقيب، دعنا نرى الدنيا لبعض الوقت، فعندما نصل المدينة سندخل السجن.

لقد تجمعوا حول نافذة القطار المفتوحة ليحصلوا على نسمة لطيفة من الهواء، لأن الهواء حار جداً أشبه بنار جهنم. وكان الشباب الثلاثة ينتمون لثلاثة قرى، بأجسام نحيلة، اثنان منهم أسمران طويلان، أما الثالث فقصير إلى حد ما. لقد غرق رجال الجندرمة والشباب فبي بحر من العرق الذي بدأ يتصبب على وجوههم وأجسادهم.

سألت أحد رجال الجندرمة:

ـ ما جريمة هؤلاء الشباب؟

قال:

ـ شرَّدوا فتاة.

أكَّد الضعيف كلام الجندرمة:

ـ ها... نعم... شردنا فتاة.

كانت يده اليمنى مقيدة مع يد صديقه... أي أن يده اليسرى كانت طليقة، فأخرج بها جريدة قديمة مبللة بالعرق من جيبه وقدمها لي:

ـ لقد كتبت الجرائد عنا... ألم تقرأ ذلك؟

قرأت الخبر التالي في جزء من الجريدة:

ـ أعداء العرض ـ

/هاتفياً من مراسلنا الخاص/: في حوالي الساعة الثالثة من صباح يوم أمس أقدم ثلاثة شبان من قرية «غيديشان» ناحية «......» على خطف فتاة في الرابعة عشرة من عمرها. ألقي القبض على الشبان الثلاثة بصعوبة وهم: «رمضان كال» و«محمد تومار» و«علي بورجاق»

قدمت له قطعة الجريدة فقال:

ـ هل رأيت؟

قلت:

ـ نعم، رأيت...

ـ ألم تقرأ ذلك؟ كل الجرائد كتبت عن الخبر.

ـ لم أقرأ.

ـ ولكنهم كتبوا اسمي خطأً، أنا محمد دامار، وليس محمد تومار.

كان يبتسم وكأنه قام بعمل عظيم، ولولا وجود الجندرمة قربهم ما استطعت أن أرفع صوتي عليهم، لأقول لهم:

ـ ولك... أليس هذا عيباً؟ هل تعيشون على رأس الجبل؟ في أي زمان نحن؟ هل تُخطف فتاة في هذه الأيام؟ لماذا لا تنكحون فتاة على سنة الله ورسوله؟

قال الشاب الأسمر الضعيف:

ـ ولك يا عمي... وهل هناك أحد يسمع أو يصغي إلى سنة الله

ورسوله؟! ماذا تقول؟ وهل أعطونا الفتاة بالأصول ولم نأخذها؟! إن المهر هو سنة الله... وقول رسول الله (هنا لم يذكر كلمة المهر بل ذكر كلمة محليَّة؛ وهو المبلغ الذي يدفع لولي أمر الفتاة)... أعط زوجين من الثيران وبقرة حلوباً ومائتي ليرة، وتزوج الفتاة؛ أية فتاة تريدها، وتستطيع أن تأخذ امرأة متزوجة بعد أن تطلقها من زوجها!

ـ ولكنها صغيرة... في الرابعة عشرة من عمرها... ألا يوجد عندكم بعض الإنصاف؟ وهل تشرَّد فتاة في الرابعة عشرة؟!

ـ الله... الله... ماذا تقول ولك عمي...؟ ولكنهم لا يتركون الفتيات لغيرهم حتى ولو كن صغيرات. كل شباب القرية عيونهم مفتوحة على الفتيات، إنهم يلتقطون الصغيرات اللواتي لا تتجاوز أعمارهن أحد عشر عاماً عندما يدفعون الثيران والبقر والمال بحيث لم تبق فتاة فارغة وجاهزة للزواج. وهل تتصور أننا لا نعرف كيف نتزوج فتاة في الثامنة من عمرها، أو نقوم بخطفها؟ عيون الشباب دائماً على أبوب الفتيات. ولا أعرف أحداً انتظر فتاة بعد الحادية عشرة من عمرها. ولهذا السبب نحن الفقراء بقينا دون مأكل ومشرب وزواج. لا أدري كيف صبرت حتى أنهيت الخدمة العسكرية! ولكنني أنهيتها.

ـ وهل خدمت الجيش؟

ـ صار لي اثنا عشر عاما.

ـ ماذا تقول؟! وكم عمرك؟

ـ خمسة وثلاثون.

ـ ولكن هذا غير واضح عليك.

ـ طبعاً سيكون ذلك لأننا عشنا حياة التشرد في القرية، لا أم ولا أب، ولهذا السبب بقينا هكذا جلد على عظم، وكما يقول المختار حمدي الجاويش: «أين الثيران القديمة؟ لقد كانوا يحرثون في اليوم الواحد مساحة

أربعين شوالاً من الحبوب، أما ثيران اليوم فقد تحولت إلى كلاب جربانة... والأحصنة إلى هررة».

هذه هي الثيران على أنواعها... ونحن فحول اليوم بقينا ضعفاء يا عمي. جميع أقربائي من الشباب تزوجوا قبل أن أذهب إلى العسكرية، وبنوا أعشاشاً وأصبح لهم بنون وبنات إلا أنا الوحيد الذي بقيت دون زواج حتى الآن. لا أب لي ولا أم... انظر إلى فتيات القرية... جميعهن طفلات صغيرات يختفين بلمح البصر، عندما تقارب أعمارهن العاشرة أو الحادية عشرة. قلت في نفسي لأنتظر إحداهن، وهي ابنة «جمشيد الأقرع». عندما أنهي خدمتي العسكرية تكون الفتاة جاهزة... أعرف تاريخ ميلادها وهي الآن في الثامنة. أرسلت خبراً إلى جمشيد الأقرع فأجاب: «إن الفتاة لا تبقى في منزل والدها، ومتى جاء نصيبها سأزوجها ولن أنتظرك» وماذا يطلب جمشيد الأقرع لابنته؟ عجلاً وكبشاً وخمسين ليرة. وعندما أنهي خدمتي العسكرية سنجلس للاتفاق والمساومة...

وِلَكَ يا قليل الوجدان وماذا يعمل معنا العجل والكبش والمال «أي مع أمثالي»؟ لو كنت أملك لأخذت زوجته وابنته دفعة واحدة. وجمشيد... هذا الواطي له ابنتين غير هذه، كلهن صغيرات... هذا الأقرع لا يشبع أبداً.

أرسلت خبراً إلى مرتضى... وكانت ابنته قد ولدت في العام الذي فاض فيه «النهر الرملي» أي أنها في السابعة من عمرها، وعندما أنهي خدمتي العسكرية تصبح بالغة، سأخطبها من الآن، ولدى عودتي سأعقد عليها النكاح. ولكن مرتضى لا يقلُّ عن جمشيد لؤماً وحقارة ودناءة. طلب سلفاً خمسين ليرة. أنت لا تعرف حياة القرى يا عمي... إذا تزوجت وأنجبت عدداً كبيراً من البنات فلا ينحني ظهرك على الأرض أبداً أي لا تعمل. في قريتنا شخص يسمى «هيفجي يونس» عنده زوجة أنجبت

أربع بنات دفعة واحدة... لقد جعلت من زوجها آغا علينا، وعندما تراه الآن لا تعرفه ولا تقول عنه أنه ذلك الإنسان البسيط الفقير... والله يا عمي صار في العلالي... زوج إحدى بناته مقابل قطيع من الغنم والماعز ومالٍ كثيرٍ، وزوج الثانية فأخذ مقابل ذلك حقلاً كبيراً وزوجاً من الثيران... لقد أصبح آغا بكل معنى الكلمة. لا أريد أن أطيل الحديث عليك... بينما كنت أبحث عن فتاة جاءني تبليغ للخدمة العسكرية، وعندما أنهيتها وجدت القرية فارغة من الفتيات بحيث لم تبق فتاة بالغة واحدة فيها. كان جمشيد الأقرع قد زوج ابنته. «وعلي جوبور» تزوج للمرة الثانية. تسألني كيف عرفت ذلك...؟أقول لك لقد أخبرتني ابنته، فقد زوجها لحمزة، وأخذ مقابل ذلك دونمين من الأرض، وثورين للفلاحة وخروفين وثلاثمائة ليرة، كما تزوج من ابنة جمشيد الأقرع. فأعطاه ثورين وخروفين ومائتي ليرة. أنت لا تعرف القرى يا عمي... وكيف ستعرف؟! لو تتزوج مرة لا تخش بعد ذلك... تستطيع أن تتزوج ثانية وثالثة... أثبت رجولتك لزوجتك واجعلها تنجب بناتٍ، إذا كان لك نصيب وزوجتك لا تنجب بنات فهذه كارثة حقيقية. ولك عمي ما في بنات في القرية... أكبر واحدة في السابعة من عمرها، وهي ابنة «إبراهيم مورلو»... احتاج إبراهيم مورلو إلى نقود... أراد أن يزوج ابنته فقال إن عمرها أحد عشر عاماً، إذا جلست على الكرسي فقدماها لا تصلان إلى الأرض... إن أمها هي التي تجلسها وتنهضها عن الكرسي. يقول إبراهيم مورلو: هذه هي هوية البنت... وما معنى الهوية يعني؟ إنها وثيقة رسمية. أيعقل أن تكذب الحكومة؟! أستغفر الله... انظر إلى هذا الأمر يا عمي... لقد أبرز هوية زوجته كهوية للبنت... هل هذه فتاة طبيعية؟ غير معقول... لقد وُلدت قبل سبعة مواسم للبيدر... ألم تتغير من موسم إلى موسم؟ لقد أوصلها إلى التاسعة عشرة بسرعة عجيبة. هذه الفتاة تزوجها حسين بن بزمجي... وحسين هذا يكبرها بعام أو عامين على الأكثر. قال بزمجي آنذاك:

ـ لا داعي للانتظار، إذا انتظرنا فإن غيرنا لن ينتظر... الأفضل أن نزوجهم مبكرين.

وأضاف:

ـ إن الولد في البلد... وهل سيبقى هناك دون زوجة؟

ولك هذا البزمجي من جيلي، تزوج وزوج ابنته. يقولون له:

ـ ولك بزمجي... هذه الفتاة صغيرة.

أما بزمجي فكان يجيبهم:

ـ لا ضرر في ذلك، أملك مالاً كثيراً وأغذيها بالحليب واللحم... وبإذن الله سأجعلها تكبر وتبلغ بحلول العيد.

هذا بزمجي والله... إنه يكبرها. إنه رجل محظوظ... يشتري فداناً جرباناً ويعتني به مدة من الزمن بالغذاء والعلف، ويجعله جاهزاً لتلقيح البقرات خلال شهر واحد، ثم يستعمله في الفلاحة والزراعة. إلى أين ستؤول حالنا؟ لا أحد يسألني ما هي أحوالك ولك محمد؟ الفتيات يتزوجن ويصبحن عرائس صغيرات عندما يبلغن سن العاشرة والحادية عشرة. كل من يدفع المهر يتزوجهن. لماذا آباء الفتيات الحقيرون الواطئون لا يعطونني بنتاً حتى أكون أباً لمجموعة من البنات... فأدفع ديوني، وكما يقولون «من يأكل بالدين تأكله الفائدة». تجاوز عمري الأربعين... أتجول في أزقة القرية أفتش عن زوجة... أضرب الجبال بثوراتي وحرارتي نحو الجنس الآخر. لو قرنتني للفلاحة فلن تهبط حرارتي. أصبحت مثل ثور هائج أصابه المرض... أضرب رأسي يميناً ويساراً... هذا غير معقول أبداً. أصبحت كالكلب المسعور... قلت في نفسي أخطف فتاة ولِك محمد!! ماذا يحصل إذا شرَّدتُ فتاة؟ سيزوجونني إياها رغماً عني. لو أتزوج واحدة... عندها تنفتح الحياة أمامي وتصبح الأمور سهلة. عيناي دائماً على الفتيات... ابنة ماميش بالغة، وسمعت أنه سيزوجها لابن «آق

رجب» وقد جلسوا على طاولة المفاوضات.... خطفت البنت بصعوبة بالغة، وبقينا ليلتين في البراري الجبلية، وفي الليلة الثالثة هبط القرويون علينا فجأة... حملت العصا الغليظة في وجوههم وقلت لهم:

ـ أيها الأنذال الحقيرون... لا أملك مالاً ولا نقوداً ولا قطيعاً وأنا على وشك الموت من شدة شوقي للزواج، وهكذا أخذت الفتاة... إن الزواج منها دين... وسأعمل جاهداً حتى أدفع مهرها.

والله يا عمي لقد أخذوا الفتاة مني وسلموها لأخيها. ظلت عيناي متجهتان دائماً نحو الفتيات، ثم ما لبثتُ أن خطفتُ ابنة محمود من وسط الحقل، وبقيت معها ثلاثة أيام و ثلاث ليال... ثم هجموا علي واستعادوا الفتاة من يدي والله يا عمي... تضم قريتنا أربعين منزلاً، وليس في كل منزل بنات. اعتدت على خطف الفتيات، فعندما أرى فتاة تجاوز عمرها العاشرة أو الحادية عشرة، أخطفها من منزل والدها ومن ثم يخطفونها مني، فأعود ثانية وأبقى وحيداً... إنهم لا يرأفون بحالي أبداً، يهجمون بالعصي عليَّ ويبرحونني ضرباً حتى أفقد الوعي، و يسترجعون الفتاة التي خطفتها... وفي اليوم التالي أسمع أن الفتاة تزوجت، وأقاموا لها عرساً كبيراً. لم أعد أحسب حساباً للضرب والقتل والتهديد والوعيد، لأنني تعودت على ذلك، وفي كل مرة أرتمي فيها على الأرض كنت أصرخ في وجوههم:

ـ اضربوني أيها الأنذال... يا جماعة الوجدان المكسور.

لم أسمع واحداً يقول: «هذا من خلق الله، توقفوا عن ضربه» بل ينهالون بالضرب المبرح. لم أترك فتاة واحدة في القرية إلا وخطفتها... وفي كل مرة كنت أقول لهم:

ـ إما أن تعطوني بنتاً أتزوجها، أو تقضون علي بالضرب والقتل، وليأخذ الله روحي في هذا الطريق.

كان جوابهم:

- ولك اقتلوه، وهل تتزوج فتاة دون مهر؟ هل تريد ابتداع عادة جديدة؟

هذا جميل... ولكن هل سنظل هكذا؟ إذا كنت لا أملك مالاً لأدفعه، فهل من العدل أن أبقى دون زوجة طوال حياتي؟

هذه هي قصتي يا عمي، لقد كتبتها جميع الصحف... وأنت لم تقرأها.

- ولكن ماذا حصل هذه المرة؟ وكيف ألقوا القبض عليك؟

الجواب يا سيدي جاءني من أحد عناصر الجندرمة:

- بالتأكيد سنقبض عليهم... في حدود القانون... هناك أصول في كل الأمور... سنظل نخطف الفتيات... وخاصة من القرى الغريبة. أنا شخصياً شرَّدتُ فتياتٍ كثيراتٍ... ولكن جميعهنَّ من قريتي، وماذا يعني قريتي؟ أي أنهم أقربائي «خال وعم...» ماذا سيفعلون بي؟ إذا خطفت فتاة منها فهل يسلمونني للجندرمة؟ لا! أما إذا خطفت فتاة من قرية غريبة، فهذا لا يجوز أبداً. كل واحد له شرفه وكرامته... وهل يتركك الغريب تتلاعب بشرفه وكرامته؟ وهكذا تقع تحت مخالب القانون.

قال محمد دامار:

- هذا صحيح... لم أكن أعرف ذلك. بعد أن انتظرت بما فيه الكفاية اتضح لي أنهم لن يعطوني فتاة لأتزوجها لأنني لا أملك شيئاً، فغادرت القرية. وهذا الشيء حصل لنا في مكان غريب.

قال عنصر الجندرمة:

- هيا إلى الداخل... يكفي.

ودفع أعداءَ الشرف والناموس إلى الداخل.... إلى السجن.

O O O

٥

المكان المخصص للجلوس

دخل زوجان يبدو عليهما الإرهاق والتعب إلى «مكتب النار للعقارات» الكائن في أعلى حي «الترامواي». كانت واجهة المكتب المطلة على الطريق مغطاة بالزجاج طولاً وعرضاً ومن طرف إلى طرف، وثمة إعلانات ورقية ملصقة على الباب، وأوراق أخرى معلقة وملصقة على الزجاج الكبير مثل: «عقار للبيع»، «كازينو للإيجار»... إلخ....

لقد بدت على المكتب مظاهر الفخامة بكل معنى الكلمة... أرضية مفروشة بالسجاد الأمريكي الفاخر.

ومن البلاستيك بلون فستقي، كما عُلِّقت على الجدار سجادة من صنع محلي رُسم عليها نمران صغيران مع أمهما، ثم منضدتان يبهر بريقهما الأبصار من شدة النظافة، وفوق كل طاولة وضع لوح من الزجاج، وفي نهاية السجاد المحلي المعلق على الجدار جلس رجل يضع نظارة على عينيه، بينما يجلس على الطاولة الثانية رجل أصلع بدين.

نظر الرجل ذو النظارات من فوق إطار نظارته إلى الداخلين وقال:

ـ تفضلوا.

نظر الرجلان في عيون بعضهما البعض قبل أن يصدر من الزوجين أي كلام. غمز الأصلع رفيقه بإحدى عينيه وكأنه يقول: «لا خير من هؤلاء». قال الرجل:

ـ نبحث عن طابق.

ـوهل ستشتريه؟

- لا. طابق للإيجار.

كان صوت الرجل ضعيفاً جداً وغير واضح من شدة التعب، أما المرأة فكانت خائفة أكثر من الرجل.

- كم ليرة تستطيعون الدفع؟

- حوالي أربعمائة ليرة.

رفع الرجل ذو النظارات رأسه نحو الأعلى مقطباً حاجبيه. قال الرجل:

- نستطيع أن ندفع خمسمائة ليرة.

- اجلسا بعض الوقت ريثما يحضر رفيقنا.

كان في المكتب ثمانية مقاعد للجلوس اثنان منهما... تستطيع الجلوس عليهما وتختفي عن الأنظار، واثنان آخران وثيران، وزوج من الكراسي العادية، وصوفتان موضوعتان مقابل بعضهما البعض وقريبتان من الباب.

- نظر الشخصان المتعبان إلى المقاعد دون أي قرار. قالت المرأة لزوجها وهو يسير متجهاً نحو أحد الكراسي العادية:

- لقد تعبت جداً. وألقت نفسها على المقعد الواسع بينما جلس زوجها على الصوفة المقابلة لها وأشعل سيجارة. كانت المرأة تنظر إلى نبتة زينة متشعبة الأوراق على شكل سن فيل، مزروعة في أصيص نحاسي. ثم دارت بنظرها نحو الرف وبدأت تراقب تمثالاً برونزياً صغيراً.

رفع الرجل صاحب النظارات رأسه عن الجريدة التي كان يقرؤها ونظر إلى زميله الأصلع وقال:

- لقد ارتفع سعر الذهب أيضاً.

أما الأصلع فقال:

- كان هذا واضحاً... يعني عشرون بالمائة... لو كنا اشترينا قطعة

بسبعة آلاف لكان ثمنها الآن عشرة آلاف ليرة، ألم أقل لك ذلك؟

فُتح الباب ثانية ودخل المكتب رجل وامرأة... كان للرجل هيئة «نابليون»، وضع يده اليمنى في جيب جاكته اليسرى... وكان شديد المحافظة على محفظته التي كانت في جيبه، وذلك واضح من حركاته وهيئته. أما المرأة فكانت الثرثرة واضحة عليها.

تحرك صاحب النظارات سريعاً ومن خلفه الأصلع...:

- تفضلوا يا سيدي...

نظر الرجل الواضع يده في جيبه بدقة على موجودات المكتب دون أن ينظر إلى الأشخاص الموجودين فيه وقال:

- نبحث عن طابق.

- هل تريد شراءه يا سيدي؟

قالت المرأة:

- لا، نستأجره.

- على الرأس والعين يا سيدي... تفضلوا يا سيدي... اجلسوا... بين أيدينا شقق وطوابق مناسبة جداً. ونظر إلى الزوجين الجالسين مقابل بعضهما البعض وهو يقول هذا الكلام. كان الرجل وزوجته قد تقوقعا كل في مقعده.

قال الرجل الذي يده في جيب جاكيته:

- لا داعي... لن أجلس. وأشار بيده الأخرى بعصبية.

قال السمسار الأصلع:

- كم غرفة تريد في الشقة؟

قالت المرأة:

- سبع غرف.

- طبعاً ستكون الشقة مكيفة؟

- أجاب الرجل بعصبية:

- أقول لك شقة للسكن، وهل تكون الشقق المخصصة للسكن دون تكييف؟!

نظر الرجلان الجالسان في عيني بعضهما البعض، فتحرك الرجل بروية وانتقل إلى الكرسي القريب من الباب.

قال الأصلع:

- نعم يا سيدي، تحت يدنا شقة بسبع غرف وفيها مكيف... ولكن...

ردت المرأة بعصبية:

- وما هو هذا «ولكن»؟

- إنهم يطلبون ١٨٠٠ ليرة.

أجاب الرجل:

- نحن لم نسألكم عن الإيجار... قلت نبحث عن شقة للسكن.

قال صاحب النظارات:

- ويطلبون الإيجار السنوي سلفاً.

- أرجوكم، نحن لا نسألكم عن الإيجار السنوي، بل نريد فقط معرفة حال الشقة.

أشار الرجل الجالس بيده إلى زوجته... تعالي... تحركت المرأة عن الصوفة بروية وهي تراقب الرجل الذي يده في جيبه، وجلست على الكرسي الصغير قرب زوجها.

قال السمسار ذو النظارات:

ـ الشقة رائعة جداً... لها صالون واسع، وجدرانها مغطاة بالأوراق. سألته المرأة:

ـ وهل هذه الشقة في تلك البناية على الزاوية والمؤلفة من ستة طوابق؟ لقد رأيناها، أليست في الطابق السادس؟ إنها عالية جداً.

ـ وهي مزودة بمصعد، أجل يا سيدتي.

ـ ليكن... نحن نرغب بشقة في الطابق الأول أو الثاني.

ـ لدي رغبتك يا سيدتي، هناك شقة مناسبة لكم، ولكن إيجارها الشهري ألفا ليرة.

ـ الإيجار غير مهم، شرط أن تكون الشقة جميلة.

انتقل الرجل الجالس من المقعد إلى مقعد آخر أكثر قرباً من الباب. في هذه الأثناء عاد السمسار إلى المكتب:

ـ إنها شقة جميلة يا سيدي... وستكونون مرتاحين فيها ومسرورين. قالت المرأة:

ـ هل هي الشقة الكائنة مقابل الموقف...؟ لقد زرناها، إن أبواب ونوافذ الصالون قديمة تحدث صوتاً أو «حزيزاً».

قال الرجل الذي يده في جيبه:

ـ نريد بناية جديدة.

ـ يوجد يا سيدي شقة لم تطأها قدم مستأجر أبداً، إيجارها ألفان من الليرات أيضاً، ولكنهم يطلبون سلفاً إيجار ثلاث سنوات لأن صاحبها مديون.

ـ أنا لا أسألك عن السلف... هل الشقة نظيفة؟

في هذه المرة انتقلت المرأة الجالسة على المقعد إلى الصوفة القريبة من الباب، وكذلك فعل زوجها.

ـ إنه طابق جميل يا سيدي... ترى البحر من خلاله، وللشقة شرفتان واسعتان من الجهتين.

همس الرجل الجالس على الصوفة قرب الباب في أذن امرأته، وقال:

ـ هيا لنذهب.

بينما كانت المرأة تستعد للوقوف وإذا بالسمسار يقول لشريكه الذي قدم لتوه:

ـ هيا اذهب مع السيد ليتفقد الطابق في «كوهيلان».

خرج الرجل وزوجته مع السمسار وبعد خروجهما مباشرة دخلت امرأة إلى المكتب وقالت للرجل الأصلع:

ـ أبحث عن منزل للإيجار، قضيت خمسة عشر يوماً في البحث وأنا على وشك الموت، لم يبق عندي قوة... آه... ماذا يحصل لو تجدوا لي بيتاً للإيجار.

عندما سمعت المرأة الجالسة على الصوفة هذه الكلمات، توسعت في مكانها، وكأنها انتفخت بمضخة وأشارت إلى زوجها بالجلوس على الكرسي:

ـ لنجلس هنا...

جلس الزوجان ثانية على الكراسي. سأل الأصلع المرأة التي دخلت لتوها:

ـ كم غرفة تريدين البيت؟

ـ ليكن غرفتين ويكفي.

قال الأصلع:

ـ هذا صعب جداً. قبل أيام كان تحت أيدينا طلبك هذا، ولكن مع الأسف.

ـ لتكن غرفة كبيرة، أنا راضية بذلك، شرط أن يكون لها مطبخ.

قال ذو النظارات:

ـ طلبك موجود ولكنه بعيد.

ـ ليكن.

ـ بعيد جداً.

ـ ليكن يا أخي.

انتقل الرجل الجالس على الكرسي ثانية إلى المقعد الضيق، ثم أشعل سيجارة وأشار لزوجته أن تجلس على المقعد الملاصق لمقعده:

ـ تعالي إلى هنا.

جلست المرأة أيضاً على المقعد الضيق الملاصق لمقعد زوجها. قال السمسار:

ـ الغرفة تعبانة إلى حد ما.

ـ وهل يستطيع المرء أن يسكن فيها؟

ـ أنا لا أعرف... أنت تعرفين ذلك.

ـ أنا راضية يا أخي.

انتقلت المرأة الجالسة على المقعد الضيق إلى المقعد البني الوثير وقالت لزوجها:

ـ لماذا لا تعطيني سيجارة؟

أشعلت المرأة السيجارة التي أعطاها لها زوجها. سأل الرجل الأصلع المرأة:

ـ كم تدفعين يا سيدتي؟

قالت المرأة الواقفة:

ـ مائة وخمسين ليرة.

رفع الرجل الأصلع رأسه نحو الأعلى وزفر من فمه صوتاً... «هيه»... وهو يبتسم. قالت المرأة:

ـ آه لو تعرف كيف دبرت هذا المبلغ....

وضع الرجل الجالس على المقعد الواسع رِجلاً على رجل، أما زوجته فكانت تنفث دخان سيجارتها على شكل حلقات نحو نبتة الصبار الكائنة في زاوية المكتب. بينما ظلّت المرأة الثانية واقفة كعادتها أمام طاولة الرجل الأصلع، أما هو أي الأصلع فكان يقرأ الجريدة باهتمام زائد. قال بعد مدة ليست قصيرة:

ـ لا يا هانم لا.... لا يوجد بيوت بمائة وخمسين أو مائتين، ماذا نعمل يعني؟ لا يوجد... يعني لا يوجد.

خرجت المرأة وشفتاها ترتجفان. قال ذو النظارات:

ـ معي بعض الذهب هل أبيعه؟

قال الأصلع:

ـ ليس الآن... ستنتظر بعض الوقت... وكما تعرف أن العشرين بالمائة سيكون بعد عشرة أيام.

في هذه اللحظة دخل رجل وامرأة إلى المكتب فأسرع الرجلان إلى الترحيب بهما مباشرة:

ـ تفضلوا يا سيدي.

قال الرجل:

ـ نريد طابقاً للإيجار، مجهزاً بحمام مياهه ساخنة دائماً، ومؤلفاً من سبعة أو ثمانية غرف، وفي منطقة جميلة.

ـ يوجد يا سيدي هل تقبلها بالقرب من حي التقسيم؟

قالت المرأة:

ـ نملك بناية في حي التقسيم، ولأنه بعيد عن مدرسة الطفل نريد أن نسكن في هذه الأطراف.

تعجبت المرأة الأخرى الجالسة على المقعد الواسع بصوت أطلقته كصفير كرة فجرتها إبرة...! قال السمسار ذو النظارات للقادمين:

ـ تفضلوا يا سيدي... تفضلوا واجلسوا.

وبينما كان يرحب بالزبائن الجدد نظر إلى الزوج والزوجة نظرة قاسية. عندها تحرك الرجل مباشرة من المقعد الواسع وانتقل إلى الكرسي، وفعلت زوجته مثله.

قال الرجل:

ـ أنا لا أريد الجلوس... هل يوجد لديكم بناية بالصفات التي نطلبها؟

ـ نعم يوجد يا سيدي... ولكن إيجارها الشهري ألفا ليرة، وتدفعون إيجار سنة سلفاً.

ـ ليكن... المهم أن تكون البناية جميلة ونظيفة.

ـ إنها أجمل وأنظف مما تتصور.

تابع السمسار:

ـ عفواً يا سيدي لا أريد أن أعطيك درساً... أستغفر الله.. لماذا لا تشتري هذا الطابق؟

التفتت المرأة نحو زوجها:

ـ صحيح يا روحي لماذا لا نشتريه؟!

انتقل الرجل الذي أصبح كالملح الذائب إلى الكرسي وأشار إلى زوجته كي تجلس إلى جانبه.

سأل الرجل الواقف السمسار:

ـ وكم يطلبون ثمناً للبيت؟

ـ يطلبون مائتين وعشرين ألفاً. ونحن على استعداد لخدمتكم... حقاً إنه طابق رائع. إذا رغبت فيمكننا أن نبيعك البناية كاملة...

همست المرأة الجالسة في أذن زوجها. أما الرجل فقد رفع رأسه عالياً ومادّاً شفتيه إلى الأمام:

ـ ألف... ليس ٢٢٠ ليرة بل ٢٢٠ ألف ليرة.

سأل الرجل الواقف وهو يضع السلسلة في جيبه:

ـ أين هذه البناية؟

ـ على الشارع... خلفنا تماماً.

ـ ها... فهمت أليست البناية رقم ١٦/١٢ والتي مساحتها مائتان وستة عشر متراً وواجهتها ضيقة؟

قالت المرأة:

ـ لنشتريها يا روحي... لا نسكن فيها ولكن نؤجرها.

تحرك الرجل ببطء شديد وانتقل إلى الصوفة القريبة من الباب... أما زوجته البدينة والتي نقص نصف وزنها فقد تحركت نحو الصوفة الأخرى وجلست فيها كدجاجة.

قال الرجل الواقف:

ـ ليكن ذلك... ولكن نتفق على السعر في المرة القادمة... أليس لديكم شقة أخرى؟

ـ لدينا يا سيدي، ومناسبة لكم تماماً... إنها شقة ممتازة جداً... عشرون في خمسة عشر «يقصد أن مساحتها ١٥x٢٠»... واسعة منشرحة... واجهتها عشرون متراً... عمقها خمسة عشر متراً.

ـ كم تطلبون؟

ـ للإيجار أم للشراء؟

قالت المرأة:

ـ ما رأيك لو نشتريها يا روحي؟

قال السمسار:

ـ لكل طابق ٢٨٠ ليرة.

ـ لنلق نظرة عليها لمرة واحدة.

أشار الرجل الجالس على الصوفة على الباب لزوجته وقال هامساً:

ـ هيا...

وقفا دون أن يلاحظهما الموجودون في الداخل. وعندام وصلا إلى الباب دخل رجل جديد فتوقفا، قال الرجل الداخل للسمسار:

ـ أبحث عن مكان للإيجار.

قال السمسار:

ـ بكم تريده؟

ـ ليكن من مائة إلى مائتين.

ـ لا يوجد...!

خرج الرجل، أما المرأة البدينة فقد تراجعت عن فكرة الذهاب، وجلست ثانية على الصوفة، وجلس زوجها مقابلها. قال الرجل الأصلع للرجل الواقف:

ـ إذا أردت... يمكنك شراء البناية كاملة، هذه فرصة مربحة جداً لك... إنها بناية من خمسة طوابق.

قالت المرأة لزوجها:

- ماذا تقول يا روحي هل نشتريها؟

نهض الرجل وأمسك يد زوجته... وخرجا، فقال ذو النظارات لزميله الأصلع:

- من هؤلاء؟

قال زميله:

- هل تقصد الخارجان؟ لا أعرفهما... لأن الداخلين والخارجين... غير معروفين.

ooo

٦

بالتأكيد يعرف شيئاً ما

تعاهدا على الزواج في اليوم الثالث لتعارفهما... هي ابنة عائلة كريمة، والداها محافظان جداً. قالت الفتاة:

ـ لن نستمر في علاقتنا هذه طويلاً، تعال واطلبني من أهلي.

الرجل السهل اللين الذي لا يكون رأسه يابساً لا يعارض أي قرار على الإطلاق، قال لها:

ـ تكرمي... سأحضر مساء لأطلبك من والدك.

أخبرت الفتاة والدتها بالأمر، ووالدتُها اطلعت بدورها زوجها... سيكونون غداً بانتظار العريس المرتقب. حضر الباب المخلوع «العريس» في عصر اليوم التالي، فاستقبله والدا العروس... وجلسوا... يشربون القهوة ويتحدثون... ولكن الشاب لم يفتح فمه من ناحية الزواج، ولم يغادر البيت.... حلَّ المساء... فأحضروا طعام العشاء وأكلوا... وبعد العشاء شربوا القهوة ثانية والشاب لم يفتح فمه من ناحية الزواج... مرَّ الوقت سريعاً إلى ما بعد منتصف الليل... طبعاً من غير اللائق والأصول طرده من المنزل. قالوا له:

ـ تفضلوا... سريركم جاهز.

تأبط ذراع الفتاة وهو ذاهب إلى غرفة النوم... عندها ثارت ثائرة الأب:

ـ ماذا يحصل يا بني؟

أجاب الشاب دون اضطراب أو خجل:

ـ وقِّف شوية ولك روحي.

ـ وهل من وقوف في هذه الحالة.

ـ أقول لك... توقف... أنت بالذات... ما دخلك بالأمر؟... الله... الله... توقف لنرى الأمر.

كان الشاب يتكلم مع الأب ويهدئ روعه، ومن جهة ثانية يسحب البنت إلى غرفة النوم... ويتحدث بثقة بالغة، أما والد الفتاة فهو في حيرة من أمره.

ـ الله... الله... بالتأكيد يعرف شيئاً ما... ولك روحي... توقف ولك عمي... انتظر قليلاً...

وأغلق باب غرفة النوم... وهنا اشتدت حيرة الأب والأم معاً... انتظرا خارج الغرفة... ما الذي يعرفه؟ ماذا يقصد بكلامه، توقف لنرى؟!

هذه هي الواقعة تماماً... ربما جرت على غير هذا النحو، ولكن وصلت إلى مسامعنا هكذا.... في الصباح خرج من غرفة النوم بينما الأب والأم لم يغمض لهما جفن. كشَّر والد الفتاة عن أسنانه وسأله:

ـ إيه... وماذا سيحصل؟... لنرى.

ـ وقِّف ولك روحي... لماذا أنت متشنج وفي حيرة...؟ الله... الله... بالتأكيد يعرف شيئاً ما.

قدموا له طعام الفطور، ثم ودع أهل البيت قائلاً:

ـ أستودعكم الله.

في هذه المرة دنت الفتاة من والديها والدموع تنهمر من عينيها...

ـ ولك بنتي اسكتي... لا تبكي... بالتأكيد يعرف شيئاً ما.

يا ترى ما هو الشيء الذي يعرفه؟! لنتركهم ينتظرون... اختفى الشاب ولم يترك أثراً خلفه... سنبحث عنه حتى نجده...

قبل أن يدخل السجن، وصلت أخباره... يقال أنه كان يدخل إلى محل لبيع الأقمشة:

- أنزل هذا «الثوب».

يأخذ الثوب ويضعه تحت إبطه ويخرج... كان بائع القماش لا يصدق هذا الأمر فيلقي القبض عليه قبل أن يركب سيارة الأجرة.

- ولك اترك يدي... اترك... اترك ولك روحي. لم نأكل قماشك حتى الآن... الله... الله... وما دخلك في هذا الأمر...؟ توقف بعض الشيء لنرى هذا الأمر... توقف ولك أخي... انتظر... بالتأكيد هناك شيء نعرفه! كان يقول هذه الكلمات بثقة عجيبة، بحيث أن الذي أمامه يتركه شاء أم أبى ويجمد في أرضه حتى أنه يقول:

- لننتظر ونرى... ما هو ذلك الشيء الذي يعرفه؟! ويقف ليراقب النتيجة بفارغ الصبر.

كل الذين انتظروه بقيت حسرة المعرفة في أعماقهم، لأن الذي يراه مرة لا يراه مرة ثانية. الأعمال التي قام بها ليست واحدة، ولا ألفاً... انتشرت قصصه وأفعاله بين الناس، وانتقلت أخباره على كل لسان حتى وصلت المجتمع بأكمله. ولكن كل الأعمال التي كان يقوم بها... جميعها كانت على نمط وإخراج وترتيب واحد.

في أحد الأيام كانوا يقصون فعلته على قاطع التذاكر في الحافلة، فاشترك جميع المستمعين بالضحك والقهقهات...

في أحد الأيام ركب الحافلة فقال لقاطع التذاكر:

- ناولني محفظة النقود هذه... التي أمامك.

ـ لماذا؟

ـ ناولني... ناولني إياها.

ـ ولماذا أعطيك يا روحي؟

ـ الله... الله... أعطني ولك عيني... أعطني... أقول لك ناولني. ما دخلك بالموضوع ولك أخي؟ ناولني كي أراها مرة... أعطني وشوف ماذا سنفعل...! بالتأكيد يعرف شيئاً ما!

احتار قاطع التذاكر من كلام الرجل فخلع المحفظة المعلقة على رقبته وقدّمها له وهو في حيرة تامة.... أما هو فأخذ المحفظة ببرودة ونزل من الحافلة، ومشى بشكل عادي وعلى مهل ودون خوف. أما المسافرون فتسمروا كل واحد في مكانه أمام هذه الحادثة... ينظرون إليه... وقد ذهب دون عودة...

يقصون علينا المئات من أحداثه ومغامراته... لم يقبض عليه مرة واحدة... ولم يدخل السجن أبداً! ولكن أحداثه تتناقلها الألسن... وربما تتضخم الأحداث عند سردها الحادثة من شخص لآخر.... المهم في إحدى الأمسيات أحضروه إلى السجن... إنه غلام صغير وضعيف، في الخامسة والثلاثين من عمره، ولكن منظره يُظهره أنه في الخامسة والعشرين... عيناه صغيرتان كرأس إبرة... إنه مخلوق يشبه الجان ولا يتحدث كثيراً.

بقي يومين كاملين في المهجع ولم يفتح فمه بكلمة واحدة.... في اليوم الثالث انفجرت قنبلته! يقولون أنه ذهب إلى أحد المساجين وهو لا يعرفه ولم يره أبداً، وقال له:

ـ أعطني خمسين ليرة.

ـ وماذا ستفعل بهذا المبلغ؟

ـ أعطني... أعطني ولك أخي... أقول لك أعطني.

ـ تكرم... وماذا سيحصل؟

ـ الله... الله... أعطني ولك أخي... وما دخلك بالأمر؟ أعطني لماذا أنت واقف حتى الآن؟ أعطني ولك أخي بالتأكيد نعرف شيئاً ما.

فأعطاه الرجل المبلغ عسى ولعل يعرف ما الشيء الذي يعرفه هذا الرجل!

ـ خذ لنرى ماذا سيحدث...!

يقولون أنه أخذ المبلغ وذهب... عرف السجناء جميعاً، حتى الحراس، لعبة الرجل من أساسها. لم يمض الأسبوع الأول على وجوده في السجن حتى اختفى عن الأنظار، وبعدها فهم الجميع الأمر:

عند المساء اقترب من الحارس المناوب وقال له:

ـ افتح هذا الباب.

ولكن هناك فرق بين حديث وحديث... لو قال هذا الكلام لغيره لصفعه الحارس على وجهه. سأله:

ـ ماذا سيحصل؟

ـ الله... الله... افتح ولك أخي... بالتأكيد نعرف شيئاً ما... افتح لنرى!

فتح الحارس باب المهجع:

ـ تعال معي.

ـ ماذا سيحصل؟

ـ تعال ولك أخي تعال.

هو من الأمام والحارس من الخلف... حتى دخلا الحديقة:

ـ افتح هذا الباب.

ـ لماذا؟

ـ افتح ولك أخي... وما دخلك في هذا الموضوع؟ افتح لنرى ماذا سيحصل...! بالتأكيد نعرف شيئاً ما...! افتح.

يفتح الحارس الباب... عسى ولعل يعرف ماذا سيحصل...! أما الآخر فيختفي عن الأنظار بينما الحارس ينظر إليه.

○ ○ ○

٧

يجب أن تنفجر النَّعْرَةُ

كان شخصان يتعاركان... أحدهما صوته مبحوح لا يخرج... أما الآخر فكان كلامه جهورياً وقوياً. فقال أحد المشاهدين:

ـ أساس المعركة هو الصوت... يجب على الإنسان أن يصرخ أثناء خصومته مع الآخر.

نظرت إلى الرجل وإذا به قصير القامة... ضعيف البنية... ناشف اللحم، فقال:

ـ أعرف هذا الشيء لأنه حصل معي.

افترقنا عن الزحمة مع الشخص الضعيف وسرنا معاً، فقال:

ـ في أحد الأيام كنت أعمل في بلدة تابعة لإحدى المحافظات النائية. وجئت بإجازة إلى استانبول مدتها خمسة عشر يوماً وفي جيبي أكثر من ألفي ليرة. قبل أن تنتهي إجازتي بيوم واحد تعرفت إلى امرأة فقلت لها دون مقدمات، لأنه لم يكن لدي الوقت الكافي لأقضيه معها، «هل تتزوجيني؟» فكان جوابها: «أنت فارس أحلامي». أخذتها إلى الشاطئ / البلاج/ كي أتعرف عليها عن كثب، وألم بأخلاقها وعاداتها. دخلت إلى غرفة الملابس وخلعت ملابسي وخرجت مباشرة... ولكنها ظلت في الغرفة ولم تخرج بأي حال من الأحوال. عندما عدت إلى الغرفة من السباحة كانت المرأة قد اختفت وطار معها المبلغ الذي كان في جيبي. لو قمت بالبحث عن المرأة فإني سأتأخر عن العمل وسأتعرض لعقوبة الطرد، والنقود التي معي لا توصلني إلى نصف الطريق، فقطعت تذكرة بقدر

النقود التي معي وركبت القطار. وبعد ذلك سأقطع الطريق سيراً على الأقدام.

عندما نزلت من القطار لم يبق في جيبي ثمن كعكة واحدة، وأمامي ثلاثة أيام من المسير... فمشيت ومشيت... والطريق لا تنتهي... وبما أننا كنا في فصل الصيف، كنت أمشي ليلاً وأنام بضع ساعات في ظل صخرة أو شجرة. في اليوم الثاني بدأت ركبتاي ترتجفان، وأحاط السواد بعيني من الجوع والتعب. كانت الأراضي على طول الطريق قاحلة وجرداء على مد النظر، وأينما اتجهت بناظريك وعلى امتداد الطريق... لا شجرة... ولا نبتة... ولا أي شيء... فالظمأ والجوع كانا على وشك القضاء علي قضاء مبرماً.

بدت لي شجرة من بعيد... بعيد جداً... قلت في نفسي: آه لو كانت شجرة إجاص برية... وحتى لو كانت شجرة «مشا» كنت سآكل من أوراقها. كانت الشجرة تتراءى لي على بعد مائة خطوة، ولكن الطريق الواصل إليها لا ينتهي أبداً... تابعت المسير قدر استطاعتي وبدأت تصل أذنيّ أصواتُ المياه المتساقطة والجارية/الخرير/... هل هذا سراب يا ترى؟ أم خيال؟ كانت المائة خطوة التي تفصلني عن الشجرة بالنسبة إلي تعادل مائة كيلومتر وأكثر من شدة التعب... وفي نهاية المطاف أمسكت بالشجرة. وكان إلى جانب جذعها ثمة نبع... تجمعت المياه هنا وهناك... فالتصقت بالأرض ووضعت فمي على الماء، وشربت حتى ارتويت... ثم نظرت إلى الشجرة... إنها شجرة «خوخ حقل» إذا أراد القدر أن يبتسم لأحدهم... فكانت ابتسامته لي قهقهة كبيرة... فتعلقت بالأغصان مباشرة. وكانت حبات الخوخ قد استحالت إلى اللون الأصفر من شدة الحرارة. أكلت المستطاع حتى انتفخت كخروف... وتمددت تحت ظل الشجرة واستغرقت في نوم عميق وهادئ. ثم سلكت الطريق ثانية... كنت قد مشيت نصف ساعة على أكثر تقدير... لم أجد نفسي إلا

والطريق يدخل إلى القرية حيث يجلس بعض العجائز في مقهى ريفي قرب حافة النبع، فقالوا لي:

ـ ليحالفك الحظ يا بن البلد.

ـ شكراً لكم أيها الأغوات.

فقال أحدهم:

ـ لا يمر أحد من هنا إلا ويشرب ماءً من هذا النبع ثم يذهب.

قلت:

ـ واضح أن ماء قريتكم رائع... قبل قليل شربت من النبع الذي كان على طرف الطريق، وليست لي رغبة بالشرب ثانية.

قال صاحب الذقن البيضاء:

ـ أي نبع؟ هل تقصد النبع الذي تحت شجرة الخوخ؟

ـ نعم.

ـ أي واه...

احتار الجميع من كلامي وبدأوا ضرب ركبهم ورؤوسهم بأيديهم:

ـ هل تشكو من علة ما في جسمك؟ إن ذلك الماء هو ماء علة! فإذا ما شربت منه طاسة يطرح كل ما في داخلك خلال دقائق، لا يترك علة واحدة في الجسم إلا ويطرحها... لا يترك حجرة ولا رملاً!

لم يكن لدي طاقة للاستماع إليهم، فضربت يدي على بنطالي صارخاً: آمان. وأسرعت.... ويا له من ماء! لم يبق في أعماقي شيء... لا رمل ولا حصى ولا أحجار... حتى أعضائي الداخلية كانت على وشك أن تتمزق وتنطرح على الأرض... أقوى كثيراً من الملح الانكليزي والزيت الهندي... لقد انتهيت تماماً فلم أعد أستطيع السير لمسافة مائة متر.

بقي لي مسافة يوم لأصل إلى مكان عملي... شعرت بمفاصلي أنها على وشك التفكك من التعب والجوع والظمأ من جهة... ومن تأثير حبات الخوخ والماء الذي شربته من جهة ثانية... وصلت إلى سفح أحد التلال وأنا أزحف وأدبُّ بعض الشيء... نظرت إلى الأسفل وإذا بقرية لا تبعد كثيراً عن مكان وجودي، ساحتها مزدحمة بالناس... وأصوات الطبول والمزامير تملأ المكان... وبدأت ثلاثة أطقم من الطبول والمزامير تتجه نحوي... أصبح جسمي نحيفاً جداً، حتى بنطالي كان يسقط عن جسمي وكنت أشده وأرجعه إلى مكانه بينما الطبول والمزامير تتجه نحوي.... هناك شيء ما! لنرى ماذا سيحدث... فاقتربوا مني قائلين.

ـ أهلاً بك أيها البهلوان «المصارع».

وأحاطوا بي من كل جانب وأخذوني معهم إلى القرية وسط قرع الطبول وموسيقى المزامير... وفي كل مرة ينادونني بالبهلوان. كنت أفهم أن قصدهم الآغا أو الأفندي أو المعلم أو الأسطة وما شابه.... وصلنا إلى الساحة... وضعت يدي على بطني:

ـ عن إذنكم أيها الأغوات.... وأسرعت إلى مرحاض الجامع القريب... وبعد أن قضيت حاجتي خرجت وإذا بالقرويين مجتمعين في الساحة... وشخصان يقتربان مني، فقال أحدهما:

ـ لقد وضعنا عجلة لمن يخرج من المصارعة منتصراً.

قلت:

ـ ماذا؟!

ـ الغالب سيأخذ العجلة.

كانوا قد أشعلوا نارين على طرفي الساحة، وفوق كل نار وضعوا خروفاً للشوي... فسال لعابي من منظر الخروف المحمر... فقلت لهم في دهشة وحيرة:

ـ هل كل من يدخل قريتكم تطلبون منه مصارعة أحدهم؟! وهل هذه عادة عندكم؟!

أجاب الرجل ضاحكاً:

ـ انظر إلى هذا البهلوان... إنه يسخر من القرويين... هيا تصارعا حتى نرى.

قلت:

ـ أنا لا أجيد المصارعة، ولم أصارع أحداً طوال حياتي.

ـ آمان أيها البهلوان... وما هذا الكلام الذي تقوله؟! ألم نقم بكل هذه الاستعدادات من أجلك؟!

قلت:

ـ لقد نسيت بنطال المصارعة.

ـ ولك يا روحي... ألبسة المصارعة كثيرة في القرية... كل شاب عندنا يملك بنطالاً للمصارعة.

كنت قد أتيت إلى المكان المناسب!!

ـ هيا... اخلع... اخلع... لنرى.

وبين وقت وآخر كنت أضرب يدي على بنطالي قائلاً:

ـ عن إذنكم.... وأسرع نحو المرحاض.

سمعت أحدهم يتحدث خلفي:

ـ ماذا يفعل هذا البهلوان في المرحاض بين وقت وآخر؟!

ـ بالتأكيد إنه يدهن نفسه.

إذا قلت لهم أني لست بمصارع فإنهم لن يطعموني... قلت في نفسي هذه مصارعة فيها غالب ومغلوب... وماذا سيحصل يعني؟ ألفُّ مرتين أو

ثلاث في الساحة وأرمي نفسي على أعشاب الساحة. كنت أسمع الأحاديث من حولي:

ـ ولك عمي شو هالبهلوان؟ إنه كالذبابة... إن مصارعنا علي الذئب يأكله أكلاً...

ـ إن روح هذا الإنسان كالنسمة الطرية.

ـ بالنسبة إليك هكذا... ولكن مثل هؤلاء يجب أن تراهم في نهاية المصارعة، إنه رجل كالريش... وقد عمت شهرته العالم.

ـ ولك عيني هذا «يوسف آق كوبرولو» المشهور في المصارعة.

ـ أصابعه كالفولاذ، رأيته مرة يتصارع مع رجل ضخم كالجبل ويرميه أرضاً.

ـ إنه رجل «كالسلندر» يمضغ الإنسان مضغاً.

ـ من يعرف...؟ إنها حكمة الله في قوة هذا الإنسان الضعيف... من أين له هذه القوة؟ آه لو أن أحدهم يأخذه عن طريق خطأ تحت رجليه ويدوسه تحت أقدامه كسجادة محلية صغيرة.

أحضروا لي مجموعة كبيرة من «بناطلين» المصارعة... كلما ألبس بنطالاً كنت أضيع في داخله... الحل الوحيد هو ربط البنطال إلى بطني مثل كيس خيش عادي. نظرت إلى الخروفين اللذين كانا يدوران على النار... كانا قد احمرّا على أكمل وجه وما من حاجة إلى تدويرهما... أنزلت نفسي داخل أصغر بنطال، فدهنوني بالزيت على أكمل وجه... ونزلنا إلى الساحة. فنظرت إلى الشخص الذي سأتصارع معه... لم يكن رجلاً عادياً بل أشبه بوحش كاسر! ولم يكن جسمي بأكمله يوازي ساقاً من سيقانه! وضعت يدي خلف ظهري ولم يبق لدي الوقت الكافي للذهاب إلى المرحاض. فخرج صوت الدلال مدوياً:

ـ أحدهما... المصارع يوسف آق كوبرولو المشهور، و الثاني المصارع الناشئ علي الذئب... خرج الاثنان إلى الساحة ليقدما الشجاعة والمناعة...

فبدأ قرع الطبول وتعالت ألحان المزامير... لا مفر من الخلاص بعد الآن وبما أنني كنت قد حضرت بعض المشاهد من المصارعة في «كيرك بنار» فكنت أعرف أن المصارعين كانا يصرخان بقوة: «أنا قادم... ها» ويطلقان هذه النبرات الصوتية لتخويف بعضهما البعض... فقلت في نفسي: سأطلق صرخة قوية جداً وأتداخل بالرجل وأرمي بنفسي على الأرض فيقول الناس آنذاك أنه وقع من لعبته هو.... فقلت وأنا أضرب كفيَّ ببعضهما:

ـ أنا قادم ها...

وسرت نحو علي الذئب بقوة. في هذه الأثناء كان علي الذئب قد رمى بنفسه على بعد خطوتين مني، عندما شاهدني أتجه نحوه، فسرت ثانية نحوه وأنا أفرقع كفي فوق ساقي... في هذه المرة كان علي الذئب قد رمى بنفسه على بعد ثلاث خطوات مني... قلت في نفسي أن الرجل يسخر مني وأنه يقوم بمناورة للانقضاض علي... إنه سيقبض علي عندما أصل إليه... تمام... لقد عرفت اللعبة فهو ليس بحاجة للمناورة ليبحث عن لعبة... إذا جلس فوقي فإن روحي ستخرج حتماً من جسدي. قلت في نفسي: لأقترب منه قليلاً وأقول له: «لا تخش مني أيها البهلوان، أبوس عيونك أيها البهلوان... لا تدهسني... ارمني أرضاً بشكل خفيف، أنا سأقع على ظهري مباشرة» كنت أفكر هكذا... ولكن الرجل لم يدعني أقترب منه بحيث أني كلما سرت نحوه كان يهرب... وخلال ذلك كنت أسمع المحادثات بين القرويين:

ـ إنه مصارع صنديد...

ـ لا أحد يستطيع أن يمسك يديه...

ـ انظر إلى هذا الرجل المسمى بالذئب... إنه يهرب مثل كلب صياد...

ـ وكيف لا يهرب ولك روحي؟ إذا ما مسكه الرجل، الله لا يقدّر، إنه يجعله عاجزاً...

هذه الكلمات شجعتني كثيراً، فضربت بقدميّ بقوة على الأرض:

ـ أنا قادم ها.... وسرت نحوه... كان الرجل يهرب مني وأنا أطارده. وبقينا هكذا ندور في الساحة، وكنا دائماً نضرب أكفّنا على سيقاننا. لم أدر كم مضى من زمن ونحن هكذا... وكلما كنت أزداد حماسة وقوة واندفاعاً، كان علي الذئب يجدُّ بالهروب والتخلص مني. فأعطى ظهره لي وبدأ بالهروب... فكان يضرب كفيه على ساقيه وفي الوقت نفسه كان ينهزم باستمرار. لعبتنا لم تكن لعبة مصارعة وإنما كانت جرياً. فقلت في نفسي أن هذا الرجل سيفعل معي شيئاً... وسرت باتجاه معاكس... وإذا بنا نصطدم ببعضنا بقوة. لو لم أمسك ببنطاله لكنت قد سقطت أرضاً... بقيت متعلقاً ببنطاله لا أتركه، والرجل يرتجف من الخوف والهلع... الظاهر أنه قد تأثر نفسياً ومعنوياً بشكل كبير. الرجل سيقتلني حتماً... فبدأت أهمس له:

ـ انحني أيها البهلوان...

فانحنى... فتعلقت على رقبته بسرعة عجيبة... ورقبةالرجل ليست رقبة... فهي أشبه بوتد ضخم... ويداي لا تستطيعان الإحاطة بها وهما مثل ذبابة صغيرة عادية في رقبته. فقلت له:

ـ أيها البهلوان أريد أن أقول لك بعض الكلمات.

ـ آمان أيها الآغا... دعني أقول لك قبل أن تقول لي... لا تؤلمني بالله عليك... لا تدعني ذليلاً أمام القرويين.

من جهة كنا نتصارع ومن جهة ثانية كان يترجاني.

ـ ولا تكسر شيئاً من جسمي... إن شهرتك قد لفت العالم... أنا لا أستطيع الوقوف في وجهك... وبما أنني أكبر مصارع هنا... فقد أجبروني على مقابلتك.

فتحفزت وتشجعت عندما سمعت هذه الكلمات. فقلت وأنا أقفز مبتعداً عن المصارع خطوتين نحو الخلف.

ـ أنا قادم ها.... وتداخلت به... فانحنى المصارع أمامي.

ـ آمان... آمان أيها الأسطة... أنت تعرف... أنت البهلوان... أعطني يدك لأقبلها... لا تتركني عاجزاً على الأرض وأمام هذا الجمع الغفير. ولا أستطيع البقاء هنا أكثر من هذا... لا تجعلني عاجزاً في ديار الغربة... قل لي... اطلب مني... متى تريد أسقط على الأرض وأتمدد على ظهري... ولكن لا تمضغني...

كان الرجل قد انتهى تماماً... من الذي يمسكني بعد الآن؟

ـ ألا تخجل من طولك وعرضك ولك؟ هل تكون المصارعة هكذا؟ لقد وسخت الفتوة والقوة والرجولة.

وأكملت كلامي وأنا أحس بثقة أكبر:

ـ أنا قادم ها....

أطلقت هذه الصرخة القوية وإذا بمغصة تقطع بطني في تلك اللحظة، فأسرعت نحو علي الذئب بقوة أكثر:

ـ آمان، بالله عليك هيا انقلب بسرعة، تمدد على الأرض بسرعة وإلا أمضغك بأسناني وأقضي عليك كلّياً.

قال الرجل الضخم:

ـ تكرم يا آغا. وتمدد على ظهره مباشرة. أما أنا فما كان مني إلا أن

جلست على ظهره... ثم تحركت بسرعة ولم أتوقف إلا في مرحاض الجامع.

عندما عدت تمددت فوق الأعشاب حيث كان الإسهال قد قضى علي أكثر... فاقترب مني البهلوان وقبل يدي وهو يقول لي:

ـ يا أستاذي... يا أسطتي.

وأحضروا العجلة التي ربحتها من المصارعة وأنا في حالة يرثى لي... على وشك أن أموت. فقلت:

ـ بالله عليكم أحضروا لي بعض العيران أيها الأغوات.

شعرت بالقوة بعد أن شربت العيران. في تلك اللحظة جلس الجميع من حولي على شكل دائرة فوق الأعشاب، وأحضروا الخروف المحمر ووضعوه أمامي وهو على شكل رمانة ناضجة للأكل.... قبل أن أمد يدي إلى الخروف... وإذا بفارس ينزل بحصانه من التلة المقابلة... ووصل إلينا خلال لحظات قليلة حيث نزل عن الحصان... إنه ليس آدمياً... إنه صخرة قطعت من أصلها منذ فترة قصيرة... وقال:

ـ مرحباً يا أغوات.

ـ مرحباً.

ـ ما هذا الذي تفعلونه؟ هل تأكلون الخروف قبل المصارعة؟!

ـ لقد انتهت المصارعة.

ـ الله... الله... وأي بهلوان قد تصارع هنا؟ ألم تبعثوا خلفي؟ أنا يوسف آق كوبرولو المصارع.

وإذا بمغص قوي ضرب أمعائي.

ـ عن إذنكم أيها الأغوات. سأحضر حالاً....

قلت ذلك وأسرعت نحو المرحاض. وأنا في طريقي إلى الجامع وإذا

بعلي الذئب يمسك من رقبتي ويقذفني إلى الأرض... حسبت أن صاعقة قد نزلت على رأسي... ولمعت البروق في عيني. ومسك من أسفل قدمي وهزني بقوة ورماني في الهواء... فالتقطني الموجودون هناك قبل أن أقع على الأرض.

مسكت بنطالي وقلت:

ـ عن إذنكم أيها الأغوات.... وأسرعت نحو المرحاض. وبعد أن قضيت حاجتي هربت من نافذته المطلة على الطرف الثاني للساحة.

كنا قد وصلنا إلى سيركجي. فقال الرجل:

ـ هكذا... إذا كان أحدنا يتقاتل مع أحد يجب أن يفجر النعرات القوية... وبتفجيرها... تعمل على تخويف من يقف في وجهك... ولكن إذا كان الهجوم من مصارع حقيقي، فهذا يعني أن أمرك قد انتهى.

○ ○ ○

٨

الليلة التي مرت مع مجنون

ما سأرويه لكم... ليس قصة... بل هي ذكرى سجلتها في مذكراتي لأنها حدثت معي شخصياً. والآن... وكما تعرفون هناك ملك مصري اسمه فاروق طرده شعب مصر. في إحدى الفترات أصيب الملك بنوع من البطر، فقد طلق زوجته لأنها لم تلد له سوى البنات، هذا أولاً، أما ثانياً فهو شاه إيران الذي كان على وشك أن يتزوج ثانية زوجته التي طلقها لأنها لم تكن ترغب بالإنجاب آنذاك.

انظروا إلى هذا الأمر... الأول يطلق زوجته لأنها لا تلد صبياناً... والثاني سيتزوج من ثريا التي لن تلد أبداً. كتبت مقالة صغيرة حول حياة هذين الشخصين: ملك مصر الذي طلق زوجته لأنها لا تلد ذكوراً، وشاه إيران الذي تزوج من ثريا والتي ظهر فيما بعد أنها عاقر.

أقام عليَّ الاثنان: ملك مصر و شاه إيران دعوى في إحدى المحاكم... إنه أمر لا يصدق، ولكنه حقيقي... عندما أودعت الأوراق في المحكمة جاء سفيرا كل من مصر وإيران في أنقرة إلى وزارة خارجيتنا وتقدما بالمقالة لوزير الخارجية، وادعيا أن هذه المقالة تسببت في تأزيم العلاقات بين تركيا من جهة، وبين مصر وإيران من جهة ثانية، وأقاموا دعوى ضدي. لم يخطر على بالي بأي شكل من الأشكال أن يقدم ملك مصر وشاه إيران على فتح دعوى شخصية ضدي، ولم يخطر على فكري أن يُقدِمَ شعب مصر على طرد هذا الملك من أرضه. وعلى الأخص أنني لم أكتب شيئاً عن السياسة الداخلية لتركيا ولا عن الأشخاص والمسؤولين الأتراك لأنهم

أقاموا دعوى ضدي في المحاكم، لقد كتبت هذه المقالة الخارجية لأتخلص من الدعاوى الكثيرة التي أقيمت ضدي.

فدخلنا المحكمة... التهمة الموجّهة إليّ: أنني قمت بتحقير الملك والشاه دفعة واحدة... حقرتهم؟! لم أحقرهم! حقرتهم؟! لم أحقرهم!... أجرينا عقد اتفاق مع المحكمة... فحكمت علي بالسجن ستة أشهر.

الحادثة التي سأرويها لكم جرت أثناء هذه المحاكمة.... ولكن توقفوا بعض الشيء حتى أضع ملاحظة بين قوسين: «أتساءل بيني وبين نفسي وأقول: يا ترى هل علم شعب مصر الذي طرد ملكه عن عرشه أنني دخلت السجن بسبب ملكهم هذا؟ ومن المعروف أن الملك فاروق لم يحاكم أحداً من الكتاب المصريين، ولم يدخل أحدهم السجن بسببه... فكيف وأنا الإنسان الغريب عن مصر أدخل السجن بسبب ملك مصر؟!»

دخلت السجن!... ولكن كان دخولي حقيراً... لا يوجد في جيبي «متليك واحد»، لا يزورني أحد ولا أزور أحداً... ولا أحد يسأل عني أو يبحث عن مكان وجودي... وما السجن بالنسبة لي؟ لا شيء... وخاصة لمدة ستة أشهر... الإنسان لا يشعر به ولا بألمه... الآخرون يحملون على ظهورهم حكم السنوات الطويلة... عشرون عاماً... وثلاثون عاماً... ويضحكون عليهم فكيف بي أنا؟؟

ـ تقول ستة أشهر... كأنك ستدخل إلى الفراش... وتمر الأشهر الستة وأنت تقلب من جهة اليمين إلى جهة اليسار في السرير.

مجرد أن تدخل السجن... ستتحرك في الفراش ببطء شديد جداً... عندما تقلب من طرف إلى آخر يجب أن يتغير الموسم... الدوران باتجاه اليمين معناه الصيف، ونحو الشمال معناه الشتاء... وإذا لم تتحرك فإنك

لن تعرف الوقت بين الجدران الأربعة...!

كل شيء حسن... لكني لا أملك ثمن علبة دخان، ولا ثمن كأس من الشاي... أنا لا أملك شيئاً على الإطلاق. داخل السجن. لا يوجد سوى طبيخ الهلال الأحمر. في السجن يوجد طعام لكن أولادي في الخارج، ماذا يأكلون وكيف يعيشون؟؟

قلت في نفسي:

ـ وما دخلك بالملوك والشاهات أيها المزمار؟! أقول ذلك وماذا ينتج من كلامي هذا؟

في ذلك الوقت وصلني خبر مفاده: إذا ما طلبت عفواً أستطيع الخروج من السجن. هل أقول لكم شيئاً؟ إن طلب الاعتذار والمسامحة من ملك يصعب علي كثيراً... بدلاً من طلب السماح من الملك فلتبق الرجولة معي... ولأنم هذه الشهور الستة لأنه لم يبق لدي شيء سوى رجولتي... وهذه تكفيني. ولكننا في زمن لا تساوي الرجولة فيه شيئاً... لا أستطيع الكتابة حتى أبعث مقالاتي وقصصي إلى الصحف والمجلات التي أعرفها و تعاملت معها، حتى ولو كتبت فإنهم لن يسمحوا بإخراج هذه الكتابات من السجن... أقول لهم:

ـ دعوني أكتب... لو كنت خارج السجن أما كنت سأكتب وأنشر؟!

بدأت أرسل كتاباتي سراً إلى الخارج، ومع أن الكتابات والمقالات التي أنشرها دون اسم وتوقيع، إلا أنهم بدؤوا الشك في أنفسهم.... الأحداث تدور في سجن سلطان أحمد. في أحد الأيام ناداني مدير السجن إلى مكتبه... إنه رجل طيب على كل حال... قال أن له ولداً وبنتاً، أحدهما يدرس في الجامعة، والآخر في الثانوية... ويظن رؤساؤه أنه هو الذي يفسح لي المجال في الكتابة وإرسال المقالات إلى الصحف والمجلات،

وإنهم بهذا الصدد يوجهون إليه الإنذار تلو الإنذار بإبعاده كمدير للسجن في إحدى الولايات النائية البعيدة... وأن أولاده يبقون دون تعليم، فقال لي:

ـ أشفق على أولادي.

يا إلهي هل أشفق على أولاد المدير، أم أشفق على أولادي؟ فرضاً إذا أشفقت شخصياً على أولاد المدير، فمن ذا يشفق على أولادي؟ إذا هرَّبت المقالات إلى الخارج سيخرب بيت أولاد المدير... وإذا لم أهرب المقالات سوف يموت أولادي جوعاً. كنت والمدير بمفردنا في مكتبه وفي وقت متأخر جداً من الليل... هو يقول لي راجياً:

ـ أشفق على أولادي.

وأنا أقول له متوسلاً:

ـ أشفق أنت على أولادي.

كل واحد منا يدق على نفس الباب... وكلانا يغني على ليلاه... ولكن لم نتوصل إلى الاتفاق. هل أقول لكم الحقيقة؟؟ إن طرف أولادي قد ضغط علي أكثر من أولاد المدير... أشفقت على أولادي ولم أشفق على أولاد المدير. بعد ذلك شددوا المراقبة علي بشكلٍ كبير.... إنه ثمن لقمة الخبز يا أخي... وهل هذا يُفهم بالشد والضيق والمراقبة؟ كانت كتاباتي ومقالاتي تنتقل إلى الخارج سراً مثل مادة مهربة... وهذا الكلام أيضاً غير وارد وغير جميل في نظري... «أهرب المقالات؟!» لا يجوز أبداً. شعرت بضميري يؤنبني بعض الشيء لأنني أستعمل هذه الكلمة... أي التهريب. وهذه المهربات رواية، فيها مغامرات وبعض قصص الحب والغرام.

ضيقوا الخناق علي... وراقبوا تحركاتي عن كثب... ولكن الكتابات

تخرج قتالية... كان هذا الأمر قد أغاظهم كثيراً، ويريدون معرفة طريقة إخراج الكتابات.... في أحد الأيام اقترب مني النائب العام التنفيذي في السجن وسألني مبتسماً:

ـ كيف تُخرج الكتابات؟ وما الطريقة التي تتبعها في هذا المجال؟ أريد أن أعرف ذلك.

ـ أنا الآخر أريد أن أعرف شيئاً أيضاً.

ـ وما هو هذا الشيء؟

ـ كيف يدخل الأفيون والهروبين والأسلحة إلى السجن؟

في تلك الأيام كانت أسواق الأفيون والمخدرات تقام في السجن... ويقتل في كل شهر عدة أشخاص بسبب ذلك. كانوا يريدون معرفة كيفية إخراج الكتابات، وأنا كنت أريد معرفة كيفية دخول المخدرات والأسلحة إلى السجن. فقلت له:

ـ الإنصاف يا سيدي... إنهم يستطيعون إدخال المخدرات والأسلحة إلى السجن أفلا أستطيع أن أخرج الكتابات من السجن...؟!

ضحكوا...؟! ضحكوا حتى الثمالة... ولكن وضعوني في الزنزانة لوحدي، مع أنهم لا يستطيعون وضع مهربي المخدرات لوحدهم لأنهم كثيرون... لكنهم يضعون مهربي الكلمات إلى الخارج في سجن انفرادي... ووضع شخص واحد في غرفة واحدة سهل جداً....

ولكن كنت أخرج لبضع دقائق في أيام الزيارات... ثم لا يلبثون أن يطبقوا الغرفة علي. أما زائري فإما لا أحد... وإما من يزورني يأتي دون أن يحمل معه أي شيء لي.... يوم... يومان... شهر... أكاد أجن... هل تعرفون ما معنى أن يظل الإنسان مع نفسه؟ وخاصة من أمثالي «لن أقول الثرثارين»؟؟

الساعات لا تمر... أمشي داخل الغرفة ذهاباً وإياباً... أدور وأدور... أخرج إلى الممشى... أذهب إلى المرحاض... يا الله... لا أملك نقوداً ولا أي شيء... أغني، الأغنية تنتهي، أصرخ ينتهي الصراخ، أدعو من أعماقي: ليأت إلى هذه الغرفة إنسان ما... حتى ولو كان وحشاً كاسراً... ليأت عزرائيل نفسه... كنت راضياً بذلك. لم أتحدث مع أحد... في المساء كان الحارس يأتي وينظر من ثقب الباب. كنت أحاول التحدث معه فيقول لي:

ـ إنني جئت للتفتيش.... ثم يضع السلسلة على الباب ويغلقه جيداً ويذهب.

مرت ثلاثة أشهر وأنا وحيد في الغرفة. وذات يوم زارني أحدهم وقد حمل معه أشياء كثيرة... سجائر، عنب، بطيخ أصفر، زيتون، جبنة، بندورة، وعلبة من مربى المشمش... أووه...!

وضعت هذه الأغراض تحت السرير، وأشبعت بطني على أكمل وجه... كانت الغرفة قد تحولت إلى محل لبيع الفواكه والخضار... أنظر إلى الأغراض مطولاً وأحس بسعادة غامرة، وأقول في نفسي:

ـ هذه الأغراض تكفيني شهراً كاملاً. نحن في السجن يجب أن نقتصد في كل شيء.

جاءني الطعام، ولكني تمنيت أن يأتي أحدهم لأتحدث معه. حل منتصف الليل، والجو إلى حد ما بارد. أويت إلى الفراش... بدأت أكتب الشعر والبطانية على ظهري. حصلت ضجة في الخارج، واهتزت سلسلة الباب عدة مرات. من المعروف... لا تصدر أية ضجة في خارج الغرفة. وسمعت الساعد الأيمن للقفل ينزع من الباب، ثم يُفتح الباب الحديدي محدثاً دوياً في هذا السكون. أما أنا فتحركت من مكاني... من يأتي إلى الغرفة في هذه الساعة المتأخرة؟! خرجت إلى الممشى، وبما أنه مظلم لم أر

الشخصين اللذين دخلا إلى الغرفة... عندما اقترب الظلان مني عرفت أن الشخص الموجود في الخلف هو الحارس، فقال لي:

ـ سيظل عندك....

ودفع الظل أمامه نحو الغرفة ثم غادرنا على الفور. وأغلق الباب وسحب الساعد الحديدي. شعرت بفرح عظيم لأنه جاءني رفيق إنساني يؤنسني في وحدتي، قلت للرجل:

ـ تفضل....

وعندما دخل الرجل... يا الله...! إنه ليس آدمياً بل هو وحش... حافي القدمين، ثيابه رثة إلى أبعد الحدود وعلى وشك أن تتقطع أشلاء... قصير القامة، بدين، مخلوق ضخم. كان يمشي مثل كبش قُدِّم له العلف الوفير... رأسه ورقبته واحدة، وينظر إلي بعينين كبيرتين... كل عين كفنجان قهوة. فقلت له:

ـ حمداً على السلامة أيها الصديق... أهلاً بك.

ـ أي والله...

هذا جميل جداً... إذاً هو يتحدث... إذاً هو إنسان. له صوت عميق مكسر... مخنوق إلى حد ما. قلت له:

ـ اجلس لنرى ماذا في الأمر...

أرشدته إلى مكانه... لم يكن يحمل معه بطانية وفرشة ولا أي شيء لينام أو يجلس عليه، فقلت له:

ـ حمداً على السلامة... ماذا حصل لك أيها الصديق؟

ـ قتلت أحد الغوغائيين.

كان ينظر إلى عيوني بشكل مخيف... بدأت أرتجف من الخوف.

ـ ما اسمك؟

ـ اسمي «بنلي تاجي».

ـ لا يهمك شيء يا سيد تاجي.

ـ لا تقل يا سيد يا آبه لأنني لا أقدر أن أضبط أعصابي... أنا اسمي «بنلي تاجي».

على خده الأيمن شامة كبيرة...

ـ وأين حصل هذا؟

ـ في العصفورية «مشفى الأمراض العقلية».

بدأت أرتجف من الخوف كريشة.

ـ ومتى حصل ذلك؟

ـ هذا اليوم... عند المساء... لقد قتلته... لذلك أرسلوني إلى هنا.

ـ واه... واه...!

ـ ما هذا الواه الذي تقوله ولك؟

ـ يعني حصل خير... سلم الله يديك.

سكتنا... كنت أنظر إليه بطرف عيني دون أن يحس بذلك... إنه أمر سيئٌ جداً. قلت في نفسي: لأتحدث معه حتى يخفف من عصبيته:

ـ لماذا حصل هذا الأمر؟

ـ هذا اليوم هو يوم زيارة لمشفى الأمراض العقلية... كانوا قد جلبوا له بعض «السجقات» أو النقانق فوضعهم تحت وسادته، عندما يضع أحدهم شيئاً تحت وسادته أغضب كثيراً... كل شيء يأتي من الخارج يجب أن يوضع في الوسط حتى يأكل منه كل الشعب... شعرت بغضب كبير...

بعد أن تمدد الشخص على السرير ونام، ما كان مني إلا أن هجمت عليه وغرزت في جسمه عدة طعنات من سيخ حديدي.

ـ جميل... جميل... لقد فعلتم خيراً.

مباشرة مددت يدي تحت السرير وأخرجت السلة:

ـ تفضلوا يا سيد تاجي... هل تريد عنباً؟ يوجد لدي جبنة أيضاً، وعندي سجقات أيضاً....

ـ لا تقل لي سيد آبه... إنني أغضب من هذه الكلمة.

ساد الصمت بضع دقائق... يا إلهي... كيف لي أن ألين هذا الشخص؟!

ـ إذاً حصل هذا الشيء في العصفورية؟

ـ نعم.

ـ إنه أمر محير جداً...!

ـ ولماذا احترت؟

ـ أنتم ما شاء الله رجل فيه عقل وحكمة، ماذا كنتم تفعلون في العصفورية؟ ربما كنت موظفاً هناك... أليس كذلك؟

ـ لقد أرسلوني من هناك ووضعوني في زنزانة هذا السجن لأنني قتلت أحدهم... ولهذا أرسلوني إلى العصفورية.

ـ واه... واه... يا حرام لقد ظلموك... المعذرة، لماذا قتلت ذلك الشخص؟

ـ لقد وضعوني في الزنزانة وشدوا السلاسل على رجلي... بعد بضعة أيام... أدخلوا إلى زنزانتي شخصاً آخر وشدوا قدميه بالسلاسل مثلي... في أحد الأيام كان أحد زواره قد أحضر له علبة مربى مشمش فوضع

المربى تحت السرير، أنا أغضب كثيراً من هذه الفعلة... كل شيء يأتي من الخارج يجب أن يوضع في الوسط حتى يأكل منه كل الشعب... ما كان مني إلا أن طعنته عدة طعنات بسيخ حديدي وهو نائم.

ـ لقد فعلت خيراً. سلم الله يديك يا تاجي أفندي.

ـ لا تقل لي أفندي يا آبه... انظر إنني على وشك أن أغضب.

مددت يدي إلى علبة المربى وقلت له:

ـ تفضل كل لوجه الله تعالى... لماذا تجلس كالغرباء هكذا؟ تفضلوا...

كنا قد سكتنا ثانية... وقلبي يدق بسرعة من الخوف... لو صرخت «النجدة... النجدة» حتماً سيقضي علي قبل وصولهم.

ـ حرام أن يرموا إنساناً مثلك في الزنزانة... حرام.

ـ ولأنني قتلت أحدهم في أحد المهاجع وضعوني في الزنزانة.

ـ إذاً هكذا؟

ـ كيف هكذا؟

ـ يعني... فعلت خيراً... ليمنحك الله قوة زائدة... والآن أريد أن أسألك... وليس في سؤالي عيب... لماذا قتلت ذلك الشخص؟

ـ لأنهم كانوا قد أحضروا جبسة في يوم الزيارة، ووضعها تحت السرير.

ـ ومن أعلمك بذلك؟

ـ لا... لا... يعني حاصل القول والفعل....

ـ فقتلته في الليل بالسيخ وهو نائم؟

ـ أخرجت الجبسة والبطيخ من تحت السرير.

ـ لماذا لا تأكل؟ كُل ولك عيني... من أجل الله. انظر إلى هذه الدنيا... يرمون شخصاً مثلك في السجن، هذا غير ممكن أبداً.

ـ لأنني كنت قد قتلت شخصاً في الخارج، ولهذا السبب أدخلوني في السجن. كنا ننام معاً في غرفة... كان ذلك المصروع قد وضع تحت سريره......

ـ وأنت...... وهو نائم!!

ـ لقد أدخلت السيخ في جسده، وأنت من أين علمت ذلك؟

ـ يعني... أفترض هكذا...

ماذا كنت سأفعل مع هذا الوحش حتى الصباح؟ بصراحة لقد فكرت بشيء... سأقوله لكم... لقد أرسلوا هذا المجنون إلى غرفتي كي يقتلني ويتخلصوا مني... ألم يجدوا مكاناً غير هذا المكان في هذا السجن الضخم وإذا ما قتلني بنلي تاجي هذا فماذا يعني؟ لا شيء. انظروا إلى هذا البلاء الذي وقع على رأسي، من أجل تهريب بعض المقالات إلى الخارج ستذهب حياتي بشربة ماء.

ـ تفضلوا... لماذا أنت جالس هكذا؟ كلوا بعض الشيء.

خمسة شهور... جميع الزائرين يأتون لزيارتي فارغي اليدين... إلا هذا اليوم... لماذا؟ وعلى حسب قناعتي، كنت سأقتصد هذه الأغراض حتى خروجي من هنا.

ـ أرجوك... كل يا أخي....

في الليلة الماضية لم أنم أبداً... النعاس يملأ عيوني... ولكن إذا غفوت غفوة صغيرة فبنلي تاجي سيغرز السيخ في جسدي.

كنت أحسب التطورات التي ستطرأ في المستقبل القريب... إذا ما

هجم على بنلي تاجي... ما الذي أستطيع أن أفعله؟ في بداية الأمر... أعلق السلة على رأسه، ثم أضع الشرشف فوق السلة والبطانية، ثم نظل ندور في الغرفة حتى الصباح. هل أستطيع أن أقف في وجهه يا ترى؟ كل ساعد من ساعديه يشبه ساعد ثور كبير هائج، على أحد ساعديه صورة ملكة البحر وُ شمت بشكل واضح.

أعطيته اللحاف والطراحة، وقلت له:

ـ نم هنا.

فقال:

ـ أنا لا أستطيع أن أغفو... نم أنت.

من الأفضل أن لا أنام ولا أغفو... تمددت على السرير ولكن كنت حذراً جداً:

ـ إنهم يحاسبونني لأنني قضيت على أربعة رجال فقط... أما في الحروب فيقتلون آلاف الأشخاص ولا أحد يحاسب الآخر... أما أنا، فلأنني قتلت أربعة أشخاص فهم يحاسبونني... هل يحاسب الإنسان على قتل أربعة أشخاص فقط؟! والله عجيب...!

أما أنا فجعلت من نفسي معرفة حقيقية فقلت:

ـ إن جو الحرب لا يشبه الأجواء الأخرى... الذين يقتلون في الحرب محقون...

ـ لا تفعل ذلك ولك يا أخي... الطرفان يتقاتلان فيما بينهم... ويقتلون الرجال بالجملة... فمثلاً إذا كان طرف ما محقاً... والطرف الآخر ما موقفه؟ من الذي يحاسبهم؟ لقد وجدوني غريباً ولهذا السب يحاسبونني... كل ما في الأمر أربعة أشخاص فقط ولك أخي.

سكتنا... ثم ما لبث أن سألني:

ـ وأنت لماذا تنام هنا يا آبه...؟

ـ أنا لا شيء لأنني قتلت مصروعاً من المصاريع.

جمد بنلي تاجي بعض الشيء:

ـ ولماذا يا آبه؟

ـ هكذا... من أجل لا شيء، قتلته بإدخال السيخ في جسده.

ـ وبدون أي سبب؟

ـ وهل يكون القتل دون سبب؟ قبله قتلت والده... فاحترش فيَّ وقتلته.

تراجع سواد عيون بنلي تاجي خائفاً نحو أطراف العيون:

ـ ولماذا قتلت والده؟

ـ من أجل لا شيء، قلت في نفسي لأدق السيخ في جسده ليس إلا.

ـ هكذا دون أي سبب؟

ـ لا... في البداية قتلت زوجته... وعندما جاء زوجها خلصت عليه أيضاً.

تحرك بنلي تاجي من مكانه:

ـ ولماذا قتلت تلك المرأة يا آبه؟

ـ والله نسيت... لأنه قديم.

ـ بالله عليك، كم شخصاً في ذمتك؟

ـ لا أدري... ربما خمسة عشر أو عشرين شخصاً... هذا أقل تقدير.

ـ أنت حاربت يا آبه.

حمل بنلي تاجي اللحاف والوسادة وابتعد عني، وجلس في أبعد زاوية للغرفة. وبقيت حتى الصباح أقص له كيفية قتلي للأشخاص... بأسلوب خاص.

جاء الصباح فبدأ بنلي تاجي بضرب الباب الحديدي بقوة. جاء الحارس فتحدثا همساً لبعض الوقت... فأخذ الحارس تاجي معه، وأنا رجعت إلى حالتي العادية المريحة.

مرت سنوات طويلة... سمعت بعد ذلك أن بنلي تاجي قد مات في سجن «سينوب» عام ١٩٥٤ فقد قتلوه بعشر رصاصات.

○ ○ ○

٩

كم مرة تم دفن العم زوبور؟

يقولون بأنني عندما كنت صغيراً لم يكن باستطاعتي أن ألفظ كلمة العم «زوبيار» وكنت ألفظ ذلك الاسم محرفاً ل «زوبور»، «Zubur» وظل هكذا حتى الآن.

قررت أن أقضي إجازتي السنوية في منزل العم «زوبور»، وبينما كنت ذاهباً بالقطار إلى منزله... وما أن اقتربت منه حتى سمعت أصوات البكاء والنواح......

في إحدى الأمسيات سقط العم زوبور على الأرض وفارق الحياة. عاينه طبيب السكة الحديدية وكتب تقريراً بأن العم زوبور مات من جراء نوبة قلبية.

أما ورثة العم زوبور فكانوا خمسة أشخاص... كل واحد منهم يفكر بطريقته الخاصة ويختلف عن الآخر بطبعه ونظرته إلى الحياة... الورثة كانوا: من زوجته الأولى، ابنته «بيرسان»، وابنه «أوغوز». وزوجته الثانية جميلة هانم. وابنة زوجته الثانية من أب آخر، واسمها «آينور». وابنه الأصغر والذي لم يتجاوز عمره السادسة عشرة واسمه «متين». هؤلاء الأشخاص المختلفون فيما بينهم يجمعهم القاسم المشترك الوحيد هو: العم زوبور ولكنهم تنازعوا واختلفوا مع بعضهم بعد وفاته مباشرة. هذا الخلاف نقيض كلياً للخلافات الأخرى:

كل واحد منهم كان يريد أن يثبت للآخر بأن حبه للعم زوبور أكبر من حب الآخرين، وكانوا يتسابقون في التعبير عن هذا الحب.

لم يترك العم زوبور نقوداً، ولكنه ترك لهم منزلاً وبعض الأشياء.. وكل واحد يحاول وبشتى الوسائل أن يكون أكثر المحبين للعم زوبور ليأخذ المنزل والأشياء... وهذا ما كان واضحاً في الأجواء.

كانت جميلة هانم تصرخ وتولول وتبكي وتقول:

ـ إلى أين تذهب وتتركنا لوحدنا...؟

والعم زوبور لم يستطع أن يجيب زوجته... كان مسجى على ظهره وقد كفن بقماش أبيض في إحدى غرف الطابق الأول.

أما «آينور» ابنة جميلة هانم من غير أب... فكانت تبكي وتنوح وتشد شعر رأسها من كثرة حزنها... وتضرب نفسها بالجدران.... لقد انتابني شعور بالحزن والحب لهذه الفتاة وقلت:

ـ يجب أن يعطى المنزل والأشياء إليها لأنها تحب العم زوبور حباً جماً كما هو واضح في حركاتها و حزنها.

وكلهم كانوا يصرخون وبنفس واحد:

ـ إلى أين ذهبت... وتركتنا لوحدنا؟؟

والعم زوبور... لا يصغي إليهم أبداً!!

هذا الموقف المؤلم كان يستند إلى حقيقة معروفة... بعد كل هذا اللف والدوران... وهي: «إيجاد المال اللازم لجنازة العم زوبور».

بدأ سباق آخر، وهو إقامة حفلة جنائزية كبيرة تليق بمقام العم زوبور... لم ترغب جميلة هانم أن تقام الجنازة على الفور:

ـ يجب أن يبقى المرحوم ضيفا في منزله لليلة أخرى على أقل تقدير.

أما «أوغوز» فقد غضب كثيراً على اقتراح أمه بأن ينام ليلة واحدة... فهو يصر أن يظل المرحوم أكثر من ليلة ضيفاً في منزله.... أما آينور... فكانت تريد أن يظل المرحوم أكثر من ثلاث ليالٍ ضيفاً في منزله.

ولاستحالة عدم دفن المرحوم لم يقم أحد بتقديم أي اقتراح حول الموضوع...

وبدأ جدل آخر حول بقاء قارئ للقرآن على رأس المرحوم حتى دفنه... متين مثلاً يرفض أن يظل على رأس أبيه قارئ واحد لقراءة القرآن الكريم... بل يجب أن يكون أكثر من واحد... أما آينور فقد كانت وجهة نظرها أن قارئين فقط قليل لوالدها... و«بيرسان» رفعت عدد القراء إلى خمسة، كان عليهم أن يتناوبوا البقاء وقراءة القرآن حتى ساعة دفنه.... كل واحد منهم كان يريد أن تكون جنازة العم زوبور جنازة رائعة، وليست مثل جنازة إنسان فقير مُعدَم. وكل واحد كان يجد اقتراح الآخر قليلاً وأقل من الواجب.

بما أنه تربطني قرابة شديدة معهم لم أستطع تركهم وهم في هذا الموقف. فيجب أن تقام للعم زوبور جنازة تليق به... فتعريفة الجنازة من قبل البلدية كانت كبيرة... وتم استئجار عشرين سيارة وثلاثين قارئاً للقرآن في المقبرة مدة نصف يوم دون انقطاع... وكل فرد في العائلة كان يتسابق في وضع أكبر وأفضل وأجمل باقة من الزهر على قبر المرحوم.

وبما أن جميع هذه المصاريف قد أصبحت ديناً... فلم يبق سوى إرجاع هذه الديون إلى أصحابها، ولأجل ذلك اضطروا إلى بيع المنزل ودفع الديون وتقاسم المبلغ الباقي... قدروا سعر المنزل القديم المؤلف من طابقين وثلاث غرف بعشرة آلاف ليرة... وبينما كانوا منهمكين في عملية بيع المنزل وإذا بمشكلة جديدة تظهر أمامهم وهي: عندما تم دفن العم زوبور لم يحصلوا من البلدية على رخصة أو تقرير بموته...! وبما أن البلدية لم تعترف بالتقرير الذي أعطاه طبيب السكك الحديدية، لذلك وجب علينا رفع جثة العم زوبور مرة ثانية من القبر ليتم فحصه

ومعاينته من قبل طبيب البلدية ليعطي تقريراً ورخصة للدفن...

كان إخراج العم زوبور من قبره ونقله إلى المنزل قد أصبح سبباً آخر على إظهار مقدار الوفاء والمحبة له من قبل العائلة... وكأن العم زوبور قد توفي للمرة الثانية... فبدأ البكاء والنواح والعويل والحزن مرة ثانية. كانت جميلة هانم تريد أن تأخذ رفات العم زوبور إلى البيت لتتم معاينته وفحصه هناك.

وبعد أربعة أيام من دفنه ذهبنا مع موظفي البلدية إلى قبره... وأخذنا التابوت من القبر... حملناه إلى المنزل ووضعناه في غرفة النوم.... كان الجميع قد أصبحوا حيارى في أمرهم من كثرة البكاء والنحيب بحيث أن أحداً لم يقدر أن يدخل إلى الغرفة ليشاهد العم زوبور مرة ثانية.

بعد ساعتين... جاءت طبيبة البلدية وهي سيدة أنيقة جداً... أشرنا إليها نحو الغرفة... وبما أن الجميع لا يريدون الدخول إلى الغرفة فقد أدخلت الطبيبة إليها ولكن لم أنظر أنا الآخر إلى جثته... فأدرت رأسي باتجاه معاكس... أما الطبيبة فقالت قبل أن تصل إليه:

ـ آه إنه قد مات.

فقلت لها:

ـ نعم إنه قد مات.

خرجت الطبيبة من الغرفة، وقالت:

ـ إنه شاب... كم عمره يا ترى؟

ـ اثنان وسبعون.

بانت الحيرة ورسمت عدة إشارات استفهام على وجهها:

ـ هل كان متزوجاً؟

ـ نعم...

فالتفتت إلي الطبيبة وقالت:

ـ هل هذه زوجتك؟

فقفزت جميلة هانم من مكانها وصرخت:

ـ كان زوجي.

نظرت الطبيبة بحيرة كبيرة إلى وجهي، ودخلت ثانية إلى غرفة العم زوبور وعادت وسألتنا:

ـما كان مرضه؟

فقلنا لها إنه لم يكن مريضاً...

ـ هل كان يشرب؟

ـ نادراً جداً.

قالت الطبيبة:

ـ إنه قد مات... تعالوا إلى البلدية وخذوا رخصة الدفن.

عند المساء أخذنا رخصة الدفن. رفضت جميلة هانم أن ندفن العم زوبور في الليل... وتعليقاً لكلامها قالت بيرسان:

ـ ليظل قارئ يقرأ له القرآن حتى الصباح.

وقالت آينور:

ـ ليكن قارئان...

فجاء القراء... وبدأ الخمسة بالبكاء والنواح والنحيب والصراخ:

ـ إلى أين تذهب... وتتركنا لوحدنا؟!

في اليوم التالي تم دفن العم زوبور ثانية بمراسيم جنائزية لا تقل عن مراسيم الدفن الأولى.

بعد عشرة أيام من دفن العم زوبور عادت عملية بيع البيت ثانية إلى الظهور... بدأ الناس الذين دفعوا المال اللازم لدفن العم زوبور يطالبون باستعادة أموالهم... كانت المصاريف قد تجاوزت الألفي ليرة في الدفن الأول، وألفين وأربعمائة في الدفن الثاني. بينما المنزل سيباع بعشرة آلاف ليرة... وبعد دفع الديون فإن المبلغ المتبقي هو خمسة آلاف وستمائة ليرة وسيوزع على الورثة إضافة إلى بعض الأغراض. في هذه اللحظة قالت بيرسان:

ـ مسكين أبي... ألن تقرؤوا الفاتحة على روحه؟

غضبت جميلة هانم لكلام ابنتها عن زوجها وقالت:

ـ بالتأكيد نفكر بهذا كما تفكرين به.

كانت جميلة هانم تريد أن تقيم مولداً على روح زوجها في المنزل، فقال أوغوز:

ـ المولد لا يكون في المنزل... إنكم تحاولون إزالة كل شيء... وتجعلونها تحصيل حاصل...

تمت قراءة المولد على روح العم زوبور في الجامع الكبير... وتمت رعاية ثمانية قراء، وتم توزيع أكثر من ستمائة قطعة من الحلويات... وقد أعجب الحضور والجميع بالمولد.

وبعد مصاريف إقامة المولد كان سيبقى من ثمن المنزل أربعة آلاف ليرة... لكن جميلة هانم كانت قد سمعت خبراً مفاده أن سبب وفاة العم زوبور لم يكن أزمة قلبية وإنما انفجار قازان في خزان المستودعات التابعة

للسكك الحديدية. ولهذا السبب تقدمت بشكوى إلى النائب العام تطلب فيه حق زوجها... وإذا تم إثبات هذا الشيء فإن إدارة السكك الحديدية ستدفع تعويضاً... لكن الإدارة ادعت بأن القازان انفجر قبل ست ساعات من موت العم زوبور. ولم تعلق الإدارة شيئاً على هذا الإدعاء. وعلى أي حال من غير المهم أن ينفجر القازان بعد وفاة العم زوبور... المهم في الأمر أن انفجار القازان تسبب في إخافة العم زوبور وتوقف قلبه بعد ست ساعات. فتدخلت العدلية في هذا الأمر أيضاً... كان الجسد سيرفع للمرة الثانية من القبر للمعاينة. كان العثور على قبر العم زوبور صعباً للغاية وسط المقابر... المهم تم انتشال التابوت من القبر...

طلبت آينور أن نأخذ التابوت إلى البيت وهي تجهش بالبكاء... إلا أن الطبيب رفض ذلك كلياً. عندها قالت بيرسان:

ـ إذا كان الأمر هكذا... فليبق قارئ على رأسه.

سألنا الطبيب الذي فحص الجثة:

ـ هل مات البارحة؟

قلت:

ـ لا، لقد مات من مدة شهر.

وقف الطبيب بضع لحظات ثم سألنا:

ـ هل كان يذهب إلى المدرسة؟

قالت جميلة هانم:

ـ يعتبر من الجامعيين لأنه تخرج من مدرسة الصناعات الحربية.

قال الطبيب:

ـ لحظة من فضلكم!

ذهب لدقائق وعاد ثانية وقال:

ـ على أية حال... اذهبوا أنتم.

نُقلت جثة العم زوبور إلى المشرحة... وبما أن نتيجة التشريح لم تُظهر موت العم زوبور بسبب انفجار القازان فلم تقم الدعوى من أجل التعويضات والتأمينات.

كان أوغوز لا يريد أن يدفن والده كالناس الذين ليس لهم أهل، فقالت جميلة هانم:

ـ ليس من حقك لوحدك أن تفكر بهذا...!

تم دفن العم زوبور للمرة الثالثة بحفلة جنائزية أفضل من الحفلة الثانية... وللمرة الثالثة بدأ الجميع بالبكاء والعويل في المقبرة:

ـ إلى أين تذهب وتتركنا لوحدنا؟!

في هذه المرة بدأ خلاف آخر حول تشييد القبر... بالنسبة لبيرسان... ادعت أن خالتها زوجة أبيها تريد أن تنام على أملاك المرحوم كلها، لأنها لم تكن راضية أن تضع حجرة واحدة فوق قبر المرحوم للتخلص من المصاريف الزائدة. أما جميلة هانم فقد اتهمت بدورها أولاد زوجها بنفس التهمة التي كانت متهمة بها من قبل أولاد المرحوم. الخلاف والمشاجرة كانا السبب في إقامة دعوى جديدة... لأن المرحوم كان مؤمِّناً على حياته، وأن زوجته كانت ستقبض من شركة التأمين مبلغ اثني عشر ألف ليرة. فما كان من بيرسان إلا أن تقدمت باستدعاء إلى النيابة العامة طلبت فيه التحقيق بموت والدها لأن خالتها أي زوجة أبيها قدمت له السم بالطعام لتقتله وتستولي على أملاكه.

وضعت النيابة العامة يدها على هذه الشكوى وجرى انتشال تابوت العم زوبور للمرة الثالثة من القبر... ولكن ذلك لم يحصل بسهولة، لأن

إيجاد القبر أخذ وقتاً طويلاً حيث لم توضع شاهدة على القبر.

بعد أن تم تشريح الجثة دعت النيابة العامة بيرسان إلى التحقيق... وأنا الآخر كنت من المدعوين للتحقيق حول القضية... قال النائب العام:

ـ ما مدى القرابة التي بينكم وبين المرحوم؟

قلت:

ـ إنه عمي.

ـ هل هو عمك؟

ـ نعم.

نظر الطبيب الذي كان يجلس مقابل النائب العام إلى التقرير الذي أمامه:

ـ أرجو أن لا يكون ثمة خطأ ما في القضية... هل المرحوم كان ذكراً أم أنثى؟! هل أنت متأكد من ذلك؟

ـ أنا متأكد تماماً... إنه عمي.

انتهى التحقيق، وظهر أن العم زوبور لم يمت بالسم. كان المنزل قد بيع وطار ثمنه للدفن المتكرر وإقامة المواليد على روحه... كان أوغوز لا يريد أن يدفن والده كإنسان وحيد لا أهل له، وكانت خالته زوجة أبيه لا تريد أن تضع حجرة واحدة فوق قبر أبيه بعد أن تقبض المبلغ من التأمينات... وبالمقابل لم تبق جميلة هانم تحت هذه التهمة... هي الأخرى اتهمت أولاد المرحوم بنفس التهمة الموجهة إليها. وتم دفن العم زوبور للمرة الرابعة بحفلة جنائزية أفضل من الثالثة والثانية.

وبما أن إجازتي كانت شهراً... لم أتركهم خلال الشهر أبداً... ثم

رحلت عنهم... وسمعت فيما بعد أن شركة التأمين قد ادعت أن العم زوبور قد انتحر، وبهذه الحالة لا يحق للورثة أن يقبضوا التأمين عنه.

وانتقلت المسألة إلى القضاء. ومن أجل التحقق أن العم زوبور مات منتحراً كان يجب إخراج جثته للتشريح وجاءت نتيجة التشريح أن العم زوبور مات أثناء إنجابه ولداً...! ولم يكن من الانتحار.

وبعد ذلك لم أعلم كم مرة أخرجت جثة العم زوبور من القبر، وكم مرة أعيد دفنه!!!

○ ○ ○

١٠

الفأر ملك الفارين

المجرم الذي تزداد جرائمه، ويرتكب جريمة تلو الأخرى يصبح في نظر البعض أسطورة. الفعل الذي يرتكبه مرة يصبح عند الناس ألفي مرة... فتكبر الأسطورة بانتقالها على الألسن. وصل خبره قبل مجيئه:

ـ لقد تم إلقاء القبض على الفأر ثانية.

ـ يقولون أنهم سيأتون به إلى السجن.

ـ سترون... لن يظل أكثر من أسبوع ويهرب منه.

ـ هذه المرة... سيكون فراره صعباً لأن عارف بابا سيدخله الحمام، ويكسر العصا الغليظة على ظهره. ليهرب بعدها إذا استطاع.

ـ سنرى ذلك... هذا الفأر رأى من أمثال عارف بابا كثيراً.

في ذلك اليوم استمرت المناقشات في السجن حول الزائر الجديد... الفأر الذي أصبح له أكثر من مائة سالفة على ألسن المساجين... كانوا يتحدثون عنه وعن عبقريته ودهائه في الفرار من السجن، وأنه بحقٍّ ملك الفارين... حتى الجرائد كتبت عنه الكثير، وجميعها من بنات الخيال. إذا كان لأحد ما أكثر من ثلاث سوابق، فبالتأكيد وعلى العرف الداخلي للسجن... تتضاعف هذه السوابق حتى تصبح تسعاً وتسعين سابقة. ولكن هذا الفأر كان قد شكل أكثر من مائة حادثة فرار من السجن.

كان فراره الأول من السجن قد حصل على النحو التالي، ولم يكن له من الشهرة كما هو عليها اليوم: لم يعرفه أحد عند دخوله السجن لأول

مرة... وبعد أسبوع واحدٍ من دخوله صادف إخلاء سبيلٍ لبعض المساجين، وكان يومها قد قال لأحد من أخلي سبيلهم:

ـ يا أخ... خذ هذه مائة ليرة... المطلوب منك: عندما يحضرون لقراءة أسماء المخلى سبيلهم من السجن ادخل إلى المرحاض ولا تخرج منه إلا بعد نصف ساعة من قراءة الأسماء...!

وعندما جاء الشرطي يقرأ الأسماء كان الذي أخذ المبلغ من الفأر قد دخل المرحاض، وخرج جميع من شملهم إخلاء السبيل... وبعد أن خرجٍ ذلك الشخص من المرحاض، بعد نصف ساعة ذهب إلى المدير قائلاً:

ـ اليوم هو يوم إخلاء سبيلي من السجن.

ـ ولك أخي... ألم تخرج قبل نصف ساعة من الآن؟

ـ لا... لا...

فهم وقتها أن الفأر قد خرج من السجن تحت اسم هذا الإنسان. ولكن هذه اللعبة تستخدم لمرة واحدة. منذ ذلك اليوم فهموا جيداً شخصية الفأر... عندما ألقوا القبض عليه للمرة الثانية، تناوله عارف آغا رئيس الحراس في السجن، وانهال عليه ضرباً بالعصا على ظهره وهو يقول:

ـ اهرب ثانية لأراك ولا...

كان في نية الفأر أن لا يهرب ثانية من السجن... ولكن عندما تحول الأمر إلى عناد فسوف يهرب مهما كان الأمر.

هرب الفأر أمام مرأى ومسمع الجميع... هل طار هذا الفأر يا ترى؟!

في ذلك اليوم أيضاً صادف إخلاء سبيل خمسة مساجين... كانوا

يجهزون ويحزمون أغراضهم وأمتعتهم... فما كان من الفأر إلا أن دخل ضمن أمتعة أحدهم دون أن يشعر به، وتم ربطه جيداً... وخرج مع المساجين الخمسة. بعد ذلك اليوم بدأ التفتيش الدقيق على أغراض المساجين الذين يخلى سبيلهم....

تم القبض على الفأر للمرة الثالثة... وبقي عارف بابا يضربه «حتى عودة الحمار من الماء»:

ـ وِلَكْ أيها الواطي... إن كنت رجلاً اهرب لنشوف.

وحسب ما يقوله المساجين، أو يدَّعونه... لولا هذه الكلمات النابية من عارف بابا ما كان الفأر يفكر بالهرب من السجن. وبما أن الأمر قد أصبح خارج إرادته فإنه لا يستطيع أن يتحمل. بعد عشرة أيام هرب الفأر للمرة الرابعة، ولكن عندما ألقى القبض عليه اعترف بكيفية هروبه من السجن:

عند كل صباح تقف شاحنة كبيرة على باب السجن تحمل نفايات السجن... وفي أحد الأيام غمر الفأر نفسه في أحد براميل القمامة الكبيرة الموجودة في السجن... وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم... وتحت مرأى ومسمع الحراس... انتقل الفأر إلى خارج السجن.

بعد ذلك اليوم بدأ الحراس بتفتيش براميل القمامة تفتيشاً دقيقاً قبل نقلها إلى الشاحنة صباح كل يوم... ولكن الفأر هرب مرة أخرى...! وإدارة السجن على وشك أن تصاب بالجنون...!

أخبار الفأر كثيرة بحيث أن الإنسان لا يستطيع أن يصدقها ولا بأي شكل من الأشكال. حسب ما يقولون... أنه مشى ذات مرة على جدار صقيل كما يمشي على الزفت...

في إحدى الأمسيات... لم يجدوا الفأر في المهجع... بدأوا بالصراخ:

ـ ولك هرب الفأر!!

جاء صوت من مكان مجهول... إنه صوت الفأر...! صوته موجود، ولكنه غير موجود...!

ـ أنا موجود... لم أهرب.

ـ أين أنت يا فأر؟

نظروا إلى سقف المهجع، فإذا هو يسير على سقف المهجع ورأسه مدلى نحو الأسفل:

ـ ماذا تعمل هناك؟!

ـ لقد ضاق صدري... أتنفس قليلاً!

ـ انزل إلى الأسفل.

ـ لن أنزل.

ـ انزل.

ـ احلف على أنك لن تقتلني...

قال عارف بابا:

ـ والله وبالله... لن أقتلك.

ـ احلف على ناموسك.

ـ أحلف بناموسي... لن أقتلك.

ـ احلف على عرضك.

ـ بعرضي وزوجتي لن أقتلك.

وإذا بالفأر ينزل إلى الأسفل هازاً يديه وكأنه يمشي على سطح الأرض... طبعاً هذا غير ممكن ومستحيل، ولكنها أسطورة من أساطير الفأر التي تتناقلها الألسن....

وفي إحدى المرات... «وطبعاً هذه أيضاً إشاعة»... كان عنصران من عناصر الجندرمة يقودانه إلى المحكمة... بدأ بالتثاؤب المتكرر وهو في القطار حتى بدأ العنصران يتثاءبان مثله... وخلال لحظات كان العنصران قد خلدا إلى النوم... فما كان من الفأر إلا أن نزل في أول محطة وقف فيها القطار... وبقي العنصران نائمين حتى وصولهما إلى استنبول... ولم يستيقظا إلا في محطة حيدر باشا، بعد أن بذل موظفو القطار جهداً كبيراً في إيقاظ عنصري الجندرمة عند نزول الركاب.

وفي إحدى المرات، ورغم أن يديه مقيدتان، قفز من السفينة وبدأ بالسباحة حتى وصل إلى شاطئ «يالوفا».

وفي إحدى المرات أيضاً... «وعلى حسب ما أبدعوا القصة»... كان يسير مع مجموعة من الشرطة، فقال لهم:

ـ انظروا إلى هذا الطير في السماء...!

فرفع الجميع رؤوسهم نحو الأعلى وبدأوا بالبحث عن الطير... وقالوا:

ـ أي طير...؟ هل هي النوارس؟

لأي شيء كانوا حزينين...؟! هل لعدم رؤيتهم للطير؟ أم للفأر الذي طار من أيديهم؟!

وبقدر ما يتحدثون عن الفأر فقصصه لا تنتهي أبداً... إنه في عيونهم: غزال في الطبيعة... وسمك في البحر... وطير في السماء.... يقولون: إنه سيهرب ثانية...

ـ ولكن في هذه المرة صعب جداً.

ـ لا صعوبة عنده في الهرب... يهرب يعني يهرب... ويصبح طيراً في السماء... سيطير حتماً.

ـ لو أن عارف بابا لا يدخل في محاولة وتحد معه أنه لا يستطيع الهروب، فهو لن يهرب.

لم نره في السجن إلا في صباح اليوم التالي... عندما أحضروه في المساء، أدخلوه إلى الحمام وانهالوا عليه بالضرب حتى الصباح بحيث أصبح في حالة يُرثى لها... لا حول ولا قوة له، ولا يستطيع رفع قدمه عن الأرض... كان وجهه بلون العفونة.... شاب يافع ضعيف البنية، قصير القامة، ولكن منظره كان محبوباً إلى حد ما. كان عارف بابا ينهال عليه بالعصا ضرباً ويقول:

ـ إذا كنت رجلاً اهرب في هذه المرة.

فيجيبه الفأر:

ـ لا تُدخل الرجولة في هذه المسألة...

وكما يقولون أنه قال لعارف بابا:

ـ إذا دخلت في رجولتي... فإنني سأهرب.

لقد لاحظت شيئاً وهو أن عارف بابا يحب هذا الفأر، رغم أنه ينهال عليه بالضرب بالعصا ولكن في اليوم التالي يأخذه معه إلى الزيارات الخارجية ويعالجه بنفسه ولا يسمح لأحد أن يعتدي عليه، وفي الوقت نفسه كان يقدم له أجود الطعام وأفضله وأحسنه. كان الفأر يئن أنيناً من شدة الألم، وعارف بابا يسأله:

ـ هل لك حاجة ولك فأر...

ـ أدامك الله يا عارف بابا.

تحسنت صحة الفأر، وبدأ يقف على قدميه... كان لا يتدخل في شؤون الآخرين. ويقول لعارف بابا وهو يأكل العصا منه:

ـ لا تضربني يا عارف بابا... والله إذا ضربتني سأهرب أمامك وأمام المدير والنائب العام.

وهكذا وصلت الأمور بينه وبين عارف بابا إلى هذه المعاندة والمشادة الكلامية والفعلية... كان التسلي الأكبر للفأر هو عناية ورعاية كلب عارف بابا، وهو كلب صغير اسمه «يللي» ويحبه عارف بابا كثيراً. كان الفأر يلعب مع هذا الكلب ويعلمه فنون البهلوانية من الصباح حتى المساء، كان الفأر يحمل قطعة قماش أحمر في يده ويرميها فيسرع الكلب «يللي» بسرعة عجيبة ويأتي بها. كان الاثنان يدوران في ساحة السجن من هنا إلى هناك والمساجين يلاحقونهم... إمساك يللي مستحيل من طرف أي واحد، ولكن الفأر كان يتمتم ببضع كلمات غير مفهومة:

ـ تع... ولك... يللي.

هذه الكلمات مهما كانت معانيها، كان الكلب يللي يفهمها، ويحمل القطعة ويعود إلى الفأر هازاً ذيله ويضع القماش الأحمر بين قدميه... وكان الفأر بالمقابل يعطيه إما قطعة لحم صغيرة أو قطعة من السكر المقطع. العلاقة وطيدة بين الفأر وعارف بابا جداً.

ـ كيف الحال وَلَكْ «عكس الكلب»؟

ـ الله يديمك يا عارف بابا.

كان الفأر يحمل في جيبه دائماً حبات من الفستق... يمد حفنة منها إلى عارف بابا...

ـ وأين الأسنان يا عكس الكلب حتى آكلها؟!

ـ ولماذا لا تضع طقماً من الأسنان يا عارف بابا؟

ـ من أين المال يا عكس الكلب حتى أضع طقماً من الأسنان؟

كان الفأر يكسر حبات الفستق بطريقة مغرية أمام عارف بابا:

ـ انظر إلي يا عارف بابا... لو وضعت طقماً من الأسنان لكنت كسرت الفستق مثلي هكذا... إن الأسنان تعيد الإنسان ثلاثين سنة إلى الوراء... أي تجعله يافعاً يا عارف بابا. استمرت الحالة ثلاثة أشهر:

ـ لماذا لا تأكل الفستق يا عارف بابا؟

ـ وأين الأسنان... يا عكس الكلب؟

ـ لو كانت لك أسنان لكنت كسرت حبات الفستق هكذا... إن طاقم الأسنان يعيد الإنسان ثلاثين سنة إلى الوراء.

وهكذا بقي الفأر يردد هذه الكلمات لعارف بابا، حتى أقنعه أن كلامه دخل من فمه وخرج من أنفه من كثرة الترديد... ولكن عارف بابا أصابه البلاء عندما وضع طقم الأسنان...

قبل كل شيء كان عارف بابا عجوزاً لا يضحك أبداً... عمله بين المساجين، والعلاقة مع المساجين دائماً بالسباب والشتائم والضرب... ففي كل مرة كان يقول فيها عكس الكلب... كان طقم الأسنان يسقط من فمه ويتدحرج على الأرض، والمساجين ينفجرون من شدة الضحك...

بدأ عارف بابا بوضع يده على فمه عند كل شتيمة أو مسبة لأحدهم، وفي أكثر الأحيان... وعندما يغضب كثيراً كان لا يستطيع الإسراع في وضع يده على فمه فيقع طقم الأسنان من فمه كما يفر الطير من باب قفص مفتوح... وكان الفأر على الدوام بانتظار الأسنان حيث يلتقطها قبل أن تقع على الأرض ويعيدها إلى عارف بابا وهو يصرخ:

ـ لقد مسكته يا عارف بابا...

كان عارف بابا يفكر بعدم وضع هذا الطقم في فمه، إلا أنه كان قد صرف من أجله مبلغاً ضخماً... لماذا لا يضعه ويستفيد منه؟ وإذا ما وضعه يسقط من فمه... ولا يقدر على الصراخ ولا على الشتيمة... إنه ليس بطقم أسنان، إنه البلاء ذاته!

قيل أن المفتش سيزور السجن... وبدأت الاستعدادات لمقدمه... وفي صباح أحد الأيام جاء المفتش وجمعونا في الساحة، الجميع في الساحة مع المفتش والنائب العام والمدير والموظفين والحراس... أما الكلب يللي فكان ينتقل بين الجميع من هنا إلى هناك... ما كان من الفأر إلا أن جعل عارف بابا يغضب غضباً جماً، عندها فتح عارف بابا فمه يريد أن يشتم الفأر:

ـ يا عكس الكلـ......

وإذا بطقم الأسنان يطير من فمه... ما كان من يللي إلا أن التقط الطقم بفمه قبل أن يقع على الأرض وفوراً اتجه كالسهم نحو الباب الحديدي وخرج من بين القضبان... طار واختفى...!

ـ أمسكوه...

من الذي يستطيع أن يمسك به غير الفأر؟! كان عارف بابا يترجى الفأر بصوت وكأنه يبكي:

ـ ولك فأر... هيا أمسكه وأحضره إلى هنا.

ثم التفت إلى الحارس وصرخ فيه:

ـ افتح الباب...

انطلق الفأر خلف الكلب... وعارف بابا خلف الفأر... والمفتش والمدير والنائب ينظرون بحيرة إلى هذه الدراما...!

وعاد عارف بابا بعد غياب قصير وهو يلهث من التعب:

ـ لقد ذهبت الأسنان... وذهب يللي... وذهب الفأر...

أثناء وجودي في السجن... لم يكن الفأر قد عاد... أما عارف بابا فكان يحاكم لأنه ساعد الفأر على الفرار من السجن...!

○ ○ ○

١١

هناك حمقى كثيرون

عاد بيربير أنور «Pirpir» إلى السجن حليق الشعر، وكانت ألبسته أشبه بألبسة كونت، ويجر وراءه حقيبتين كبيرتين... فاستقبله أصدقاؤه القدامى بالقول:

ـ حمداً على السلامة.

أجابهم:

ـ آي والله أيها الآغا.

أحضر خادم المهجع شاياً، فقال بيربير أنور للقهواتي:

ـ اعمل شاياً للأصدقاء أيضاً.

أنزل آغا آبو الكردي صفعة خفيفة على رقبة «بيربير أنور» وسأله:

ـ ولك أنور... ماذا فعلت هذه المرة؟ هل بعت أحد المخافر؟!

قال بيربير أنور:

ـ لا يا آغا... هذه المرة لم يقبضوا علي في الجامع... تعبير خاص بعرف المساجين،

معناه أنه مظلوم/

ضحك الموجودون من جواب بيربير أنور...

عند المساء أقام آغا المهجع الكردي آبو، مأدبة عشاء على شرف بيربير أنور. بعد الطعام انتقلت «الفتاة الصفراء» وهي بلغة المساجين السيكارة المليئة بالحشيش والأفيون والمخدرات... دورياً على الحاضرين، كل واحد

كان يسحب نفساً عميقاً... فقال بيربير بعد أن سحب عدة سحبات طويلة وسعل سعالاً قوياً:

ـ لقد امتلأ رأسي تماماً.

قال آبو الكردي:

ـ هيا عمروا البوسطة...

تم نشر بطانية على الأرض وعندها أخرج آبو الكردي من داخل نطاقه الأحمر زوجاً من النرد ورماه فوق البطانية، ثم تناوله بيربير ثانية وهزه ضمن كفيه وضرب يده على صدره وألقى بالنرد على الأرض قائلاً:

ـ هيه...

كان عدد اللاعبين خمسة، والنرد ينتقل من يد لأخرى.... خسر بيربير عدة مرات ودفع بالنرد المقدم إليه بأصابعه:

ـ إنه مقطوع...

كان يجرب حظه... ولكنه أعطي له ثانية... ورمى بفئة المائة ليرة. تساءل الشخص الذي يهز النرد:

ـ إلى الأمام أم الخلف؟

ـ شانو... بانو... من الأمام عشرين... ومن الخلف ثمانين... «دوشيش» وتناول المائة ليرة من الأرض.

خسر بيربير في تلك الليلة خمسمائة ليرة، وفي الليلة التي تلتها أكثر... فوضع للبيع بيجامة الحرير، والأغراض الأخرى التي أحضرها معه، والحقيبتين وخاتمه وساعته اليدوية التي رهنها بالأمس ولم يستطع أن يرجعها، وطلب قرضاً من آبو الكردي على أساس أن له مبلغاً إضافياً في إدارة السجن. قال آبو وهو يلمُّ المال الموجود على الأرض:

ـ اقطعوا البوسطة... /أي أوقفوا اللعب/

أرسل آبو شخصاً إلى إدارة السجن ليتأكد من كلام بيربير فيما إذا كان له مبلغ إضافي في حوزتهم أم لا... ولم يكن لدى إدارة السجن سوى عشر بارات لبيربير، عندها صفع آبو بيربير صفعتين قويتين على وجهه وأنزل لكمة قوية على رجله... تجاه ذلك نقلت إدارة السجن بيربير إلى مهجع آخر، وهناك باع فرشته وأصبح «آدم بابا» على الوجه الأكمل... /أي أصبح عرياناً لا يملك شيئاً/... تجاه هذا الموقف بدأ بيربير يقص لأصدقائه مغامراته المتكررة والعديدة، فكانت قصصه جميلة وحلوة وطويلة... كان الجميع يسقطون على الأرض من كثرة الضحك وهو يقص لهم أساليب النصب والاحتيال.

قال بيربير إن «شفجنلي آغا» كان آغا عليهم في قريته، وقد زُجَّ في السجن لأنه أعطى مالاً لأحدهم كي يقتل عدواً له، فاكتشفوا أمره وألقي القبض عليه وأدخلوه السجن.

كان شفجنلي سليمان آغا رجلاً ناهز الخمسين من عمره، كان مصراً على أن يكون صاحب أرزاق وأطيان وأموال، وبسبب إصراره هذا قام بتنفيذ جريمة القتل... فهو يملك نصف القرية، وقطعاناً من الخراف والماعز، ومساحات واسعة من الأراضي الزراعية، كما يملك طاحوناً. وفي كل أسبوع تزوره زوجاته الثلاث وأقاربه الكثيرون.

كان جميع من في المهجع يطلبون من بيربير أنور أن يقص عليهم قصة المخفر:

ـ هيا ولك بيربير قص لنا، ماذا فعلت في المخفر؟

يبدأ بيربير أنور بقص حادثة المخفر وربما للمرة المائة:

ـ في أحد الأيام كنت جالساً مع المرحوم علي المصرفجي في مقهى يوسف. فجاء أحد الحمقى وأوقع بنفسه... المسكين متزوج حديثاً وعاطل عن العمل، وزوجته لا تعرف أنه عاطل عن العمل، فكان يخرج من البيت

صباحاً قائلاً: أنا ذاهب إلى العمل... ويعود إليه عند المساء، قال:

ـ لقد سئمت المقاهي والتسكع فيها.

أجاب المرحوم علي المصرفجي:

ـ لقد حزنت من أجلك يا سيد... إنني أريد أن أقدم لك إحساناً...

قال الرجل وهو يدعو له:

ـ ليرضى الله عنك.

فقال علي المصرفجي وهو يشير إلي:

ـ هذا الصديق من ضباط المخابرات، وبالتأكيد سيجد لك عملاً!

فقلت له مباشرة:

ـ هل تستطيع أن تعمل مفتشاً في الشرطة؟

قال الرجل:

ـ والله لا أدري إذا كان باستطاعتي القيام بهذا العمل أم لا، لأنني لم أدرس بما فيه الكفاية... حصلت على الشهادة الابتدائية.

ـ هذا أفضل... فالجامعيون تكون قلوبهم رقيقة ولا يستطيعون القيام بواجباتهم؛ وفي مسلكنا هذا إذا ما تمَّ القبض على متَّهم يجب أن لا ترأف به وتقول هذا من خلق الله، بل ستضربه بحيث تسمع صوت العصا على جسده.

ـ لا تخف من هذه الناحية، وبإذن الله تعالى أولاً... سأكون عند حسن ظنك.

كنت قد خرجت من المقهى لأنه لدي عمل يجب إكماله، فبقي علي المصرفجي والشخص هناك، وتم الاتفاق بينهما على ما هم بشأنه:

ـ أنا لا أطلب منك حتى عشر بارات، وإني أقدم لك هذه الخدمة

لوجه الله، أما الضابط فإنه يريد ثلاثمائة ليرة لتعيينك مفتشاً في الشرطة!!

فكان الرجل قد أعطى المبلغ له...

ضرب شفجنلي سليمان آغا بيده اليمنى على رأسه:

ـ انظر إلى هذه الأمور التي تحصل...! كم من الحمقى في هذه الدنيا...! ثم ماذا حصل بعد ذلك يا بيربير أفندي؟

ـ وما معنى ٣٠٠ ليرة في ذلك الوقت؟؟ يعني ٣٠٠٠ ليرة الآن...! عند المساء صادفت علي المصرفجي وذهبنا إلى ملهى ومشرب «بيليبيك جعفر» وشربنا حتى الصباح، وخرجنا من هناك ونحن سكارى... وبدأنا بالصعود من «بلطة» إلى حي «الجارشمبا» فشاهدنا على الزاوية بناية من طابقين من الخشب وفي أعلاها لوحة من الورق المقوى كتب عليها: «خانة للإيجار... المراجعة... الحلاق الملاصق». دخل المرحوم علي المصرفجي إلى الحلاق وقال له:

ـ ما رأيك لو نلقي نظرة على هذه البناية.

بعد أن شاهدنا المنزل، قال علي المصرفجي:

ـ بكم...؟

قال الحلاق:

ـ ستون ليرة.

قلت له مباشرة:

ـ قبلنا.

قال الحلاق:

ـ أعطوني العربون.

قلت:

ـ وما هذه العربون يا أخي...؟ سنقيم في هذا المكان مخفراً... المطلوب منك الآن أن تكتب استدعاء إلى وزارة الداخلية تقول فيه ما يلي: «لقد تم استئجار منزلي من طرفكم لإقامة مخفر فيه، وأطلب إيجار المنزل سلفاً عن عام كاملٍ... وعن كل شهر ستين ليرة».

عندما سمع الحلاق دفع سلفة عام كامل من الإيجار... فرح كثيراً فقلت لعلي المصرفجي:

ـ أنا الآن ذاهب... أما فأنت اذهب إلى البيت وألق عليه نظرة فاحصة ثانية، وقم بالتقسيمات المطلوبة عليه.

عندما ذهبت للمنزل قال علي المصرفجي للحلاق:

ـ هل تعلم أن الرجل الذي ذهب الآن هو مفتش في الشرطة؟ وإذا أردت يمكنك أن تؤجر له المنزل بمائة وخمسين ليرة، ولكن ستدفع لي مائتي ليرة، أنا أقدم لك هذه الخدمة لوجه الله تعالى... ولكن المفتش يريد مالاً. ما كان من الحلاق إلا أن دفع المبلغ المطلوب فوراً.

ضرب شفجنلي سليمان آغا بيده اليمنى على رأسه وقال:

ـ واي، الله واي... ما أكثر الحمقى في هذه الدنيا... ولك أخي! هل هناك أجحش من ذلك الإنسان؟! ثم ماذا حصل بعد ذلك يا بيربير أفندي؟

ـ بعد ذلك... وبعد أن أخذنا المال من الشخص ذهبنا إلى السوق واشترينا علماً، وسألنا عن اسم مكان المنزل وكتبنا لوحة «مخفر سلام قولاً» وثبتنا اللوحة على باب المنزل ورفعنا العلم على بلكون الطابق الثاني.

أنزل شفجنلي سليمان آغا صفعة قوية على رأسه وقال:

ـ ولك بيربير... أنت تكذب... هل يكون مخفر على هذا الشكل؟!

قال بيربير:

ـ إذا كنت كاذباً فلا يخرجني الله من هنا سالماً... ولك أخي... كانت مخافر ذلك الوقت هكذا... إذا وُجد داخل بيت ما مدفأة من الصاج تخرج دخاناً والسقف يرشح وفي داخله كرسيان مكسوران وطاولة عرجاء... وخزانة عتيقة، وفوق الطاولة بضعة أوراق، وتقويم... افهم من ذلك أن المكان سيكون مخفراً بالتأكيد.

ـ ثم ماذا حصل بعد ذلك يا بيربير أفندي؟

ـ ذهبنا إلى المقهى الذي رأينا فيه الرجل... وكان ينتظرنا، قال علي للرجل:

ـ أوجدنا لك عملاً أيها الأخ، فقد تمّ تعيينك في «مخفر سلام قولاً» هيا... فصل لنفسك لباس مفتش وابدأ العمل مباشرة.

كان الرجل لا يعرف كيف سيشكرنا، أما أنا فقلت للرجل:

ـ ولكن انتبه... تم تشكيل هذا المخفر حديثاً، ولأجل هذا السبب فإن فيه نقصاً في العناصر... ستعمل هناك بمفردك لمدة وجيزة، ربما شهر أو أقل... ثم تقوم بتعيين الحراس وعناصر الشرطة.

وأخذنا الرجل إلى المخفر...

قال شفجنلي سليمان آغا ضارباً رأسه بيديه:

ـ ولك... هناك أناس مثل الحمير في هذه الدنيا.

ـ بعد يومين ذهبنا إلى المخفر... كان الرجل قد صنع لنفسه لباس مفتش بشكل جميل، يلمع لمعاناً... عندما رآني نهض على الفور وقدم لي تحية عسكرية، وكانت الأمور على ما يرام.... خرجت مع علي المصرفجي إلى الشارع، فأشرنا إلى أحد المارة:

ـ هل تستطيع الحضور إلينا؟

قال الرجل:

ـ ولماذا؟

ـ ستعرف السبب في المخفر...

ـ وما شأني في المخفر؟

ـ لا تجبرنا على استعمال القوة معك يا أفندي... ستأتي إلى المخفر تحت اسم القانون.

أدخلنا الرجل إلى المخفر... قلت للمفتش:

ـ اكتب هوية هذا الشخص.

وخرجت من الغرفة... كان علي المصرفجي وبعد بالاتفاق، أن ينظم مخالفة قيمتها خمس عشرة ليرة... وكان الرجل على استعداد لدفع خمساً وعشرين ليرة، فقط ليخلص نفسه من المخفر.

لطم شفجنلي سليمان آغا رأسه بقوة وقال:

ـ ما أكثر الحيوانات في هذا المجتمع يا أخي...! ماذا حصل بعد ذلك يا بيربير أفندي؟

ـ بعد ذلك بدأنا القبض على المارة من أمام المخفر، وكنا نتهم كل شخص على أن له سابقة، بينما الرجل يتوسل ويقول:

ـ أنا لست ذلك الشخص.

وكنا نقول له:

ـ اذهب إلى المديرية وأعلمهم بذلك...!

وعندما يصر المتهم على براءته كنا نطلب منه الهوية، وإذا لم يكن يحمل هويته، فيكون الرجل قد وقع في المصيدة.... كنا نعترض في اليوم الواحد أكثر من خمسة عشر رجلاً...

ـ ما أكثر المصاريع في هذه الدنيا ولك أخي!!

في هذه الأثناء كان المفتش قد بدأ بالشكوى... فهو لا يستطيع البت في هذه الأعمال لوحده... يجب أن يدعم المخفر بمجموعة من عناصر الشرطة والحراس. وعندما سألناه: وما هذا الشغل ولك أخي؟! وإذ به يخرج مجموعة كبيرة من الأوراق الرسمية التي كانت تصل إلى المخفر، وتتضمن أجوبة عن أسباب توقيف المارة، ولم يكن لنا علم بذلك. كان الجميع يحسبون أن المخفر حقيقي، فكانت ترد إليه الشكاوى والخصومات، وكان مفتشنا يستلم هذه الشكاوى و يرسلها إلى المديرية العامة للدراسة. هل أخبركم أكثر من ذلك؟ لقد بدأت المديرية بمخاطبة المخفر وإرسال الأوامر والبرقيات إليه...!!

قال شفجنلي سليمان آغا:

ـ أنت تكذب يا بيربير أفندي.

قبّل بيربير أنور السيجارة الغليظة المحشوة بالمخدرات وقال:

ـ إذا كنت أكذب فلتضربني هذه النعمة.... قلت يومها للمرحوم علي المصرفجي:

ـ هيا، لنختفِ من هنا قبل أن تدق رقابنا.

وكان يقول لي:

ـ لننتظر بعض الوقت لنرى ماذا سيحدث...

في أحد الأيام ذهبنا إلى المخفر مرة أخرى وإذا بعنصرين من عناصر البوليس موجودين مع مفتشنا، فقال لنا:

ـ كتبت منذ مدة إلى المديرية... أخبرتهم عن النقص الموجود في مخفرنا فأرسلوا لنا هذين العنصرين مؤقتاً.

مخفرنا كان على وشك أن يصبح مخفراً حقيقياً بكل معنى الكلمة، ولكن من يديره...؟ هم...؟ نحن...؟ لكن العريضة التي قدمها الحلاق

لوزارة الداخلية من أجل الإيجار قد سدَّت علينا الطريق. وفوق ذلك كله أعلم مفتشنا المديرية أن له شهرين في العملِ ولم يتقاض راتباً. هل يستطيع أحد في موقعكم أن يطلب من الدولة مالاً؟؟ لقد فعلها مفتشنا...! حتى ولو لم يأتنا المال من الخارج فالمخفر كفيل بنفسه على أية حال.

كانت الأمور تسير كما نريد، ولكن عندما طلب المفتش راتبه، وصاحب البيت أجرته قالوا في المديرية:

ـ من أين خرج لنا هذا المخفر المسمى «مخفر سلام قولاً»؟! اذهبوا وتحروا الأمر...

كنت و المرحوم علي المصرفجي نسأل عن الهويات في الخارج ولدى عودتنا إلى المخفر وجدنا كل مديرية الأمن في المخفر، وعندما شاهدنا عناصر شعبة الأمن أنا وعلي المصرفجي صرخوا:

ـ ولك بيربير... ولك علي المصرفجي... كنا نبحث عنكم.

ووضعوا الكلبجات في أيدينا ومفتشنا يصرخ في وجوههم:

ـ ولك أخي صار لي مدة ثلاثة شهور وأنا أقود هذا المخفر كوني مفتشه ورئيسه.

هذه هي قصة المخفر كاملة، أما نحن فقد أدخلونا السجن.

أنزل شفجنلي سليمان آغا صفعة قوية على جبينه وقال صارخاً:

ـ ولك أخي ما أكثر الحمقى في هذه الدنيا.

كان بيربير أنور يحكي كل يوم قصة جديدة... قصة كيف باع برج بيازيد بمبلغ ألفي ليرة:

كان شفجنلي سليمان آغا يلطم بيديه وجهه ورأسه لدى سماعه القصة الجديدة ويصرخ:

ـ ولك أخي... ما أكثر الأغبياء والحمقى في هذه الدنيا! هل هناك

إنسان يشتري برج بيازيد... هكذا؟!

طلب الحاضرون من بيربير أنور أن يحدثهم عن كيفية بيع الجسر:

ـ هيا قص لنا ذلك...

وبيربير يقص لهم كيف باع الجسر بمبلغ ثلاثة آلاف ليرة وكأن العسل يتدفق من فمه، وشفجنلي سليمان آغا يقوم حيناً ويجلس حيناً وهو يستمع إلى قصة بيع الجسر...

ـ ولك هل يمكن شراء الجسر هكذا...؟ كم من الناس قد أصبحوا حميراً في هذه الدنيا...؟!

ويطلبون من بيربير أنور:

ـ قص لنا كيف بعت الترامواي يا بيربير...

وسليمان آغا يقول:

ـ لا ولك جمل... هل يباع الترامواي؟

ويقص بيربير أنور عليهم كيف باع الترامواي، وسليمان آغا يقول مستغرباً وصارخاً:

ـ واي الله واي... إذاً هناك ثيران يشترون الترامواي في هذه الدنيا!!

ـ ولك بيربير... كيف بعت الساعة الموجودة في ساحة «أمين إنو»؟!

يقص عليهم بيربير... و شفجنلي سليمان آغا ينصت مندهشاً، والآخرون يقولون له:

ـ لم تسمع شيئاً بعد البيربير يبيع القطارات! حتى البحر يبيعه!

وسليمان آغا يقول:

ـ إذاً هناك حمقى وحيوانات كثر في هذا الزمن!!

ساد جو التفاهم بين بيربير أنور وشفجنلي سليمان آغا على أكمل وجه

وأصبحا صديقين حميمين إلى أبعد الحدود أصبحا متفاهمين دائماً لا ينفصلان... وكانا قد خرجا إلى حديقة السجن يتهامسان...

كان للسجن حديقتان، الحديقة الوسطى، والحديقة العليا. وقد ارتفعت الأعشاب في الحديقة العليا وأصبحت بطول قامة الرجل.

بعد زمن وجيز بدأ بيربير أنور يتردد ثانية إلى مهجع آبو الكردي... كانا يجلسان حول بطانية القمار ثانية، وفي كل ليلة كان بيربير يخسر خمسمائة أو ستمائة ليرة.

في إحدى الأمسيات سمع المساجين أنيناً حزيناً صادراً من الحديقة العليا، فهرع الجميع نحو مصدرالصوت... وإذا بشفجنلي سليمان آغا ينهال على البيربير بالضرب المبرح بأقدامه والبيربير يصرخ ويصرخ... تم تخليص البيربير من يد سليمان آغا بصعوبة بالغة، ولو بقي بعض الوقت لكان البيربير قد مات! فسألوا سليمان آغا عن سبب قتله لبيربير ولكنه لم يقل شيئاً.

بعد فترة فهم الجميع السبب؛ وهو أن بيربير أنور كان قد باع حديقة السجن العليا لسليمان آغا بمبلغ خمسة آلاف ليرة...! وخسر المبلغ كله في القمار.

بعد ذلك اليوم، عندما كان يطلب المساجين من بيربير أنور أن يقص عليهم كيفية بيعه للتراموای كان شفجنلي سليمان آغا يغادر المكان ولا يعود إليه إلا بعد انتهاء قصة البيع من قبل بيربير أنور.

○ ○ ○

١٢

سأريك «بفرجيك»

كان أحد الأشخاص يسرد لصديقه حادثة في باخرة أبحرت من مرفأ «قاضي كوي»:

ـ غادرت منزلي صباح هذا اليوم، واتجهت نحو حافلة الترام التي كان موقفها في نقطة تقاطع الشارعين. شاهدت حافلة الترامواي من بعيد وهي واقفة في موقفها المحدد... وعندما حاولت مسك مقبض الباب لأصعد بدأت الحافلة بالحركة... أسرعت من خلفها لعلني ألحق بها والسائق ينظر إلي من المرآة التي أمامه... لم يقف بل بالعكس زاد سرعته باطّراد. قلت في نفسي:

ـ إذا لم ألحق بحافلة الترامواي هذه سأنتظر نصف ساعة أخرى.

خلعت نعلي من قدميَّ وبدأت بالجري خلف الحافلة، ولكنها ظلت تسير مسرعة دون أن تسأل عن أحد... عندما صعب علي اللحاق بها توقفت عن الجري، فتوقفت الحافلة على بعد ٢٠ـ ٣٠ متراً عني، قلت إن هذا السائق ابن حلال صرف، أوقف حافلة الترامواي عندما لاحظ أنني لن ألحق بها... جريت ثانية، وقبل أن أصل إليه بخمس أو ست خطوات تحرك ثانية...! كنت أحث الخطى من جهة... ومن جهة ثانية كنت أصرخ:

ـ أيها السائق...

شعرت أن سرعة الحافلة قد خفت... لحقت بها... وعندما رفعت رجلي لأصعد إليها، وإذا بها تزداد سرعة!! لولا وجود الركاب على الباب

و شدوني من يدي، ربما كنت سأسقط أرضاً... دخلت من الباب وبدأت أشتم السائق لأنني كنت في حالة نفسية وجسدية شديدة...... فقال أحد المسافرين:

ـ إن ما فعله معك لا يعد شيئاً على الإطلاق بالنسبة لغيرك! انظر ماذا سيفعل بالركاب الذين سيصعدون في المواقف القادمة...

كانت حافلة الترامواي مكتظة بالركاب حتى الأبواب، قال محدثي وهو أحد الركاب الواقفين:

ـ إننا نقترب من الموقف... انظر ماذا سيفعل الآن...

أوقف السائق الحافلة قبل الموقف بعشر خطوات، وبينما كان الركاب الواقفون يسرعون نحونا ليصعدوا إليها، وبعضهم كان يهمّ بالنزول، والآخرون داخلها يجهزون أنفسهم للنزول عمت الفوضى باب الحافلة؛ كل واحد يقول للآخر صارخاً: «لماذا لا تنزل؟»، «لماذا لا تصعد؟» وإذا بالحافلة تتحرك فجأة فعلا الصراخ والمعمعة ونداءات التوقف... ثمة امرأة كانت تريد النزول فتدحرجت على الأرض، ورجل مسن رمى بنفسه علّه ينجو ولكنه سقط على أرض الحافلة، ولم يستطع أحد من الواقفين الركوب من الموقف، فبدأ الركاب في الداخل يصرخون... ولكنهم يصرخون في الركاب الآخرين وليس في السائق:

ـ إذا كنتم ترغبون بالنزول، لماذا لم تجهزوا أنفسكم؟؟

ـ لماذا لم تتحركوا في الوقت المناسب...؟ ألم يكن من الأفضل لكم؟

أما الذين لم يصعدوا إلى الحافلة فكانوا يركضون خلفها... أوقف السائق الحافلة على بعد ثلاثين خطوة من الموقف، فكان وقوفه وتحركه في اللحظة نفسها «أي توقف وتحرك مباشرة» بعضهم سقط على رأسه وبعضهم تدحرج على الأرض، ولم يصعد سوى شخصين أو ثلاثة... كان الركاب في الداخل يتجادلون مع بعضهم:

ـ لماذا لم تركب عندما توقفت الحافلة؟

ـ وهل يقفز إلى الحافلة وهي تسير؟!

ـ حصل خير... ليسقطوا أرضاً حتى تعود عقولهم إلى رؤوسهم...

ـ ولك أخي... ماذا سيفعل السائق المسكين يعني...؟ لقد أوقف الترامواي مرتين... ماذا سيفعل أكثر من هذا؟!

قال الشخص الذي كان يتكلم معي:

ـ هل رأيت هذين الفصلين بأم عينك؟ كل هذا لا يشكل شيئاً... انتظر حتى الوصول إلى «قاضي كوي» وهناك سترى العجب العجاب...!

لم يكمل الرجل حديثه بعد، وإذا بالحافلة تتوقف فجأة ودون سابق إنذار فاندفع الركاب نحو الأمام بقوة عجيبة، وكأنهم يهجمون للقتال وتساقطوا فوق بعضهم البعض، كل واحد على جسد الآخر... غلام صغير في حضن امرأة لا يتجاوز عمره أربع سنوات قفز من حضنها وحط على رقبة رجل عجوز أمامه، أما أنا فقد اصطدم رأسي في إطار الباب، واندفع الجميع بقوة رد الفعل إلى الأمام، وكثر الرفس بالأقدم والتدحرج على أرض الحافلة... وعندما أوشكوا بعودة التوازن إلى الحالة العادية، وإذا بالحافلة تتحرك ثانية وبسرعة عجيبة تحركاً مفاجئاً، في هذه المرة، وقعنا نحو الخلف وجلس كل واحد في حضن الذي خلفه.... في المرة السابقة اصطدم رأسي بإطار الباب، أما هذه المرة، فسقطت على صدر امرأة بدينة واصطدم رأسي بحديد الباب بقوة. عندما عاد التوازن ثانية إلينا بدأ الجميع بالجلوس... وبدأ الركاب يذمون بعضهم بالوعظ والكلام:

ـ إنهم لا يعرفون الوقوف في الحافلة.

ـ على الركاب أن يتعلقوا جيداً عند الصعود إلى الحافلة.

وقال الشخص الذي يحادثني:

ـ كل هذا ليس بالمهم... سترى ماذا سيحصل لنا بعد ذلك...

كنت أراقب ما يحدث في كل موقف... وبين الموقفين كانت الحافلة تقف إما قبل الموقف أو بعده، وكانت تتحرك قبل أن ينزل الركاب وقبل أن يصعدوا، وفي كل موقف يسقط على الأرض عدة أشخاص ويتدحرجون... وعندما تقف في المواقف، كان الركاب الذين لم يستطيعوا الصعود يركضون خلفها، ثم تخفف سرعتها وكأنها على وشك الوقوف، ثم تتحرك فوراً بسرعة مضاعفة بعد كل تباطؤ في الحركة. وعندما كانت الحافلة تقف فجأة كان الجميع يندفعون إلى الأمام، وعندما تتحرك فجأة كان الركاب يسقطون إلى الخلف، وعلى المنعطفات كنا نسقط إما إلى اليمين أو إلى اليسار. وفي إحدى المرات اصطدمت مع رجل كان يقف عكس اتجاه سير الحافلة، فقال الرجل الذي يحدثني ثانية:

ـ سيحصل أشياء وأشياء... إلى حين وصولنا إلى «قاضي كوي».

قلت له:

ـ أنا دائماً أذهب وأعود بالحافلة، هذه الأمور تحصل معي لأول مرة.

قال:

ـ طبعاً... إذا أردت ركوب حافلة الترام ثانية ستنظر إلى السائق، إذا كان صالحاً... وعندها تقرر الصعود إلى الحافلة أم لا؟... أنا أعمل ذلك في كل صباح... ولكن بما أنني كنت مستعجلاً هذا الصباح لم أنظر إلى وجه السائق، إن المرء لا يستطيع ركوب الحافلة إذا كان سائقها غير «صالح».

ـ لو ننزل من حافلة الترام... قبل أن يصيبنا بلاء ما...

ـ ولكن كيف ستنزل؟ هل النزول سهل كما تتصور؟! لقد أخطأنا عندما ركبنا هذه الحافلة، ولكن كيف سننزل...؟ إذا أراد الإنسان النزول، لا سمح الله، كما رأيت... كم شخصاً وقع على رأسه... وكم من

الأشخاص تدحرجوا على الأرض... لا قدر الله... فإننا سنقع على رقابنا، أنا شخصياً لا أنزل من حافلة الترام عندما نصل إلى «قاضي كوي» قبل نزول السائق «صالح» منه... آي... آي... آمان ولك... أمسكوه جيداً... آه... آه...

لم يكمل الشخص كلامه. نزلنا ثانية فوق بعضنا... كنا نخربش بعضنا على أننا نريد الإمساك بهم كي لا نقع على الأرض كالقطط الموضوعة في كيس خيش.

سألته:

ـ من هذا الذي يسمى صالح؟

ـ تمسك جيداً حتى أقول لك من هو صالح... صالح هذا صديق طفولتي، نسكن في حي واحد، ودخلنا المدرسة معاً، كانا اثنين... صالح الذي تراه الآن... والآخر «رشاد»، وأعتقد أنك تعرفه، وهو المليونير المشهور...

ـ أي رشاد هذا؟

عندما بدأ الرجل يعرفني أي رشاد هو... زادت شدة حيرتي.

ـ إذاً رشاد هو رفيق الدراسة!!؟

ـ نعم... صالح ورشاد وأنا أولاد حي واحد، دخلنا سوياً مدرسة واحدة... طباع رشاد وصالح متشابهة جداً... كلاهما تنبل وكسول، طباعهما قاسية، ولهذا السبب تعرضا للضرب والقتل حتى صاروا رجالاً، ستصاب بحيرة إذا قلت لك أنهما من كثرة ما تعرضا للقتل والضرب أصبحا لا يستطيعان الوقوف أو النوم إذا لم يقم أحد بقتلهما وضربهما. كان جسمهما يصاب بحكة إذا لم يضربا... آمان أمسك جيداً... إننا نقترب من الموقف... كنا نلقب صالحاً ب «سوموكلو» يعني «أبو العظام» ونسمي رشاداً بـ «سيديكلي» يعني «أبو شخاخ»... كان هذان الصبيان

يسِمُون الحي والمدرسة بوجه أسود، يصدر من منزليهما صباح كل يوم صراخ حاد، أحدهما صراخ صالح والآخر صراخ رشاد... أحدهما يأكل القتل من والده والآخر من والدته... يتأخران كل يوم عن المدرسة؛ ندخل الصف ويبدأ الدرس... بعد قليل... يدخل رشاد إلى الصف وهو يشد بنطاله، ومن خلفه يدخل صالح وهو يسحب عظامه... ويضيق صدر المعلم منهما فينهال عليهما ضرباً ولكماً. كنت ورشاد نجلس على مقعد واحد، أما صالح فكان يجلس في مقعد خلفنا... يبدأ المعلم بإعطاء الدرس، ويظل الاثنان يبكيان حتى انتهاء الدرس وهما يسحبان مخاطهما. ولهذا السبب كان لرشاد اسمان: أحدهما رشاد السيديكلي «الشخاخ»، والآخر رشاد السحاب. كان للاثنين طباع واحدة، مثلاً: خلال معاقبة المعلم لهما بالضرب كانا يتمتمان «بفرجيك، بفرجيك» حتى انتهاء القتل، وبما أن أحدهما بجانبي والآخر من خلفي كنت أسمع تهديدهما «بفرجيك بفرجيك».

ـ آمان افتح قدميك جيداً وقف لنسمع ما حفظته من الدرس.

بعد ذلك يا سيدي... يقوم المعلم بسؤالهما عن دروسهما...... الاثنان لا يعرفان شيئاً، ولا يكتبان وظائفهما ولا يحملان أقلاماً ولا كتباً، فينهال عليهما المعلم بالضرب خلال الدرس، ويبدأان ثانية بتمتمة «بفرجيك، بفرجيك» حتى انتهاء الدرس وهما يبكيان...... خلال فترة الاستراحة في الفصل: فهما لا يقفان... يضربان هذا ويقتلان ذاك من التلاميذ، يعاقبهما المعلم بالضرب ثانية وثالثة، ويتمتمان: «والله بفرجيك» عندما يسمع المعلم كلمة بفرجيك فإنه يغضب ويضاعف من شدة ضربهما:

ـ ولك شو بدك تفرجيني؟! فرجيني لنشوف!

ندخل إلى الصف، يبدأ الأستاذ ثانية بقتلهما... يذهبان إلى البيت...

تقتلهما أمهما، يخرجان إلى الشارع يقتلهما الأولاد، وعندما يعود والدهما مساءً إلى البيت يقتلهما.

لا أريد إطالة الحديث يا أخي... انتبه... إننا نقترب من المنعطف، تمسك جيداً. لقد كبرا بفضل العصا والقتل. في إحدى المرات قلت لصالح ورشاد، كل واحد منهما على حدة:

ـ ولك أخي لا تقل «بفرجيك» لأنك ستأكل ضربات أكثر وأشد، ماذا باستطاعتك أن تريه يعني؟!

كان جواب الاثنين واحداً، وعلى الفور، إنهما سيكبران وسيكونان رجالاً عظماء، وعندها سيرى المعلم!!

بعد ذلك يا سيدي؛ بما أن صالح فقير جداً فقد ترك المدرسة في المرحلة الإعدادية، أما الآخر، رشاد، فلأن والده غني فقد أكمل تعليمه... نال الشهادة الثانوية ودخل الجامعة حتى تخرج منها... رشاد ضيعناه، لم نعد نراه بعد ذلك، أما صالح فقد تعذب المسكين كثيراً في حياته؛ كان يتعرض للطرد في كل عمل ينتسب إليه... وحتى الآن وكما يدعي، لا يزال يردد «بفرجيك» ولكن المسكين لم تتح له الظروف حتى «يفرجي» العالم الذي يريده. اشتغل مدة قاطع تذاكر في إحدى السفن، ولكنه لم يفتح كوة التذاكر في وقتها المحدد... كانت السفينة تقف في الميناء استعداداً للسفر، ليصعد الركاب إليها... ويجتمع الناس، وعندما تستعد السفينة للإبحار يفتح كوة التذاكر فيبقى أكثر من نصف الركاب دون قطع التذاكر... بمعنى: يسافرون مجاناً، ويركبون السفينة دون تذاكر... أو لا يستطيعون اللحاق بها إذا أرادوا الانتظار لقطع التذاكر... ولكن صالحاً مسرور لأنه يفرجي الناس بما يريد أن يفرجيهم. وكثرت الشكاوى ضده... نقلوه من وظيفة قاطع تذاكر إلى موظف في المرفأ... ولكن هذه المرة كان لا يفتح باب المرفأ إلا عندما تستعد السفينة للإبحار، عندها يقوم

بفتح باب الميناء، وما أن يفتح الباب تتحرك السفينة على الفور، فيبقى نصف الركاب على الأرض لا يستطيعون ركوب السفينة... وإذا ما سقط أحد المسافرين في البحر عندها سترى فم صالح قد وصل إلى أذنيه من شدة الفرح.

ازدادت الشكاوى ضد صالح فطردوه من العمل.... في أحد الأيام ركبت حافلة وإذا بالسائق الذي يقود الحافلة يردد دائماً «بدي فرجيك... بدي فرجيك» وإذ به صالحنا هذا «أبو العظام» هو السائق... كانت الحافلة تقف إما قبل الموقف أو بعده، والركاب يهرولون... أمسك أحد المسافرين مقبض الباب ووضع قدمه على باب الحافلة وإذا بصالح يضغط على الزر «الهيدروليكي» فيغلق الباب آلياً، فانحصر الراكب وأصبح نصفه داخلاً ونصفه خارجاً، وقد كان المسكين يصرخ متألماً وخائفاً، بينما صالح يقود الحافلة بسرعة وهو مسرور جداً وشفتاه تتمتمان:

ـ بفرجيك... بفرجيك...

ثم يا سيدي... طردوه من هذا العمل أيضاً.... وفي صباح أحد الأيام وكالعادة ركبت حافلة الترام من حي «البستانجي» ولكن مسير هذه الحافلة كان شاذاً «غير طبيعي» إنها ليست حافلة بل عربة مصيبة...! تقدمت نحو الأمام فوجدت صالحنا السائق... بعد ذلك اليوم كنت لا أركب الحافلة إلا بعد النظر جيداً في وجه السائق الذي يقودها... إذا كان صاحبنا صالح أبو العظام لا أركب، أما اليوم فكنت مستعجلاً لم أنظر في وجهه.

سألت الرجل:

ـ طيب... وما الذي حصل للآخر؟

ـ من...؟ تقصد رشاد أليس كذلك؟ يعني سيديكلي رشاد «الشخاخ»، هو الآخر صورة طبق الأصل عن صالح، ولكنه لا يقود حافلة بل يدير

أعمالاً كبيرة جداً مثل الشركات والمصانع والمعامل، إضافة إلى إدارته البورصة السوداء، ولهذا السبب لا نرى كيف يفرجي رشاد الناس الذين يتعامل معهم لأننا لسنا من طبقتهم... إنه يعمل بملايين الليرات... هل تعرف مثل أي شيء؟؟ إننا نرى دوران المروحة بأم أعيننا لصغرها ولكننا لا نرى دوران الأرض حول الشمس وحول نفسها، وهذا هو الفرق بين صالح ورشاد...! المسكين صالح أراه في حافلة الترام يفرجي الناس، أما الآخر فلا نراه، ما شاء الله إنه آفة كبيرة، إنه مصيبة... دير بالك، هيا نقترب نحو الأمام لأننا نقترب من «قاضي كوي».

تقدمنا نحو الأمام... سحب السائق المقبض الذي أمامه بقوة «هيه» فتوقفت العربة بسرعة، فتكوم الركاب فوق بعضهم البعض، ومنهم من هوى على الأرض من خلال الأبواب... لم يردد السائق «بفرجيك» ولكنه استعمل «هيه» وقد ملأت الفرحة عينيه.

نزل السائق من الحافلة، ونزلنا خلفه... والحمد لله أنقذنا أنفسنا...

ضعوا في ذهنكم دائماً: لا تركبوا الحافلة التي يسوقها صالح...! إنه متوسط القامة، بدين إلى حد ما، عيناه زرقاوان...!

○ ○ ○

١٣

الأمريكي المحلي

جلس أحد الشباب على طاولة قريبة من الجدار في مطعم «غار» وقد ملأ كأسه بالمشروب. لم يكن جلوس الشاب وحيداً وتناوله المشروب هو الذي جذب الأنظار إليه من قبل الآخرين، لكن ما لفت أنظار الجميع أنه كان يتكلم مع نفسه، مع العلم أن هناك كثيرون ممن يتحدثون مع أنفسهم وهم موجودون بكثرة، ولكن هذا الشاب جذب إليه أنظار الآخرين... كان رأسه منحنياً إلى الأرض، والشوكة في يده والهمسات تخرج من فمه، ثم ما لبث أن أطلق ضحكة كبيرة عاد بعدها إلى الحديث مع نفسه بصوت عالٍ، ثم ضرب بقبضته على الطاولة وأسند رأسه بين كفيه وشبك شعر رأسه بأصابعه وأزال عنه تسريحته...!

جميع الذين كانوا يراقبونه شعروا بالشفقة تجاه الشاب، ولهذا السبب لم ينظروا إليه مباشرة خوفاً أن تصطدم نظراتهم بنظراته.

دخل إلى «مطعم غار» شخص أمريكي، لم يكن يلبس زياً رسمياً أو نظامياً يدل على أنه أمريكي، ولكن بعض العلامات الفارقة تعطي للإنسان شيئاً من هذا الإحساس... ينتعل حذاء ضيقاً، وبنطالاً طويلاً وضيقاً إلى حد ما يتطابق مع ساقه تماماً... واضح أنه أمريكي، وخاصة من وضعية قبعته على رأسه، ومن خطواته المتزنة... اقترب من الشاب الذي يتحدث مع نفسه وجلس على طاولة مجاورة له، وطلب من النادل «بيرة».

بدأ الأمريكي كالآخرين ينظر إلى الشاب الذي كان يتحدث مع نفسه بدقة بالغة، ثم نقل كرسيه إلى طاولة الشاب:

ـ هل تسمح لي بالجلوس هنا أيها الأخ؟؟

كان الأمريكي يجيد اللغة التركية بطلاقة، أجاب الشاب:

ـ تفضل يا أخي... وما هذا الكلام الذي تقوله؟

ثم نادى النادل بصوت عال وهو يضرب الشوكة على الصحن الذي أمامه:

ـ غارسون...

جاء الغارسون.

ـ أحضر للسيد سرفيساً... وقدحاً.

ووضعهما أمام الأمريكي فملأ الشاب القدحين، ورفع الاثنان أقداحهما:

ـ على شرفك...!

ـ شرفك أيها الصديق.

ـ بشرفي وناموسي ظننتك أمريكياً حقيقياً... واجهتك واجهة أمريكية، حلال عليك هذه الطرق التي تتبعها أيها الصديق.

ـ إيه... حسبتُك نصف أمريكي... راقبتك جيداً من طاولتي... فلاحظت أن حالتك ليست على ما يرام، أيها الصديق، قلت في نفسي: لقد شاهدت الكثيرين... هيا وساعد هذا الأمريكي المسكين... هذه صفة الشهامة والشباب.

ـ شكراً أيها الصديق، لقد قلت الحق... أنا في حالة متوترة.

ـ هل هي موجة الزوجة؟

ـ لقد وضعت النقطة على الحرف أيها الصديق.

وصرخ وهو يضرب صدره مرتين:

ـ آه ولك آه... آه ولك آه...

كانت حنجرته على وشك أن تخرج من فمه في كل سحبة آه... وفي كل مرة كان يفتح فمه كأن النار تنطلق منه:

ـ إنني أحترق أيها الصديق... إنني أحترق...

قال الأمريكي وهو يضحك:

ـ لا تغضب أيها الصديق... لا تغضب... هذه الأمواج عادية في عهد الشباب.

ـ ولك والله سأقتلهم جميعاً... فقط دعني، وسأزيل بريهان وسلالتها من الوجود... ماذا سيحصل يعني ولك أخي؟ كم عاماً سأعيش...؟ لو أصبحت أخاً لعزرائيل ما عشت أكثر من عشر سنوات، ولكن سأخلص الدنيا من هذه «الميكروبات».

ـ شوية... أيها الأخ... لا تهتم لهذا الأمر كثيراً... افتح له قلبك، عندما تخرج كل ما في أعماقك سترتاح.

ـ هذه الفتاة التي تسمى بريهان يا آبه...

ـ لم تهتم فيك أليس كذلك؟؟

ـ من يوم ما ظهرت هذه الموضة الأمريكية تركتني كلياً.

قال الأمريكي:

ـ لقد راقبت هذه الموجة يا آبه... هدئ روعك واستمع إلي خمس دقائق فقط... راقبتك من الأمام، ولاحظت أني وجدت موجتك... تخاطب نفسك؟! قلت في نفسي علة هذا الشاب من علتنا، هل لاحظت كيف عرفت ذلك؟ لقد حصل معي مثل ما حصل معك ولك أخي، صورة طبق الأصل... تعرفت إلى فتاة وتفاهمنا على أكمل وجه، واتفقنا أن نذهب إلى السينما، كانت الفتاة تتصبب على الشاب

الأمريكي بطل الفيلم، وتخرج من أعماقها آهات حارة... ولك أخي... مرة، مرتين... عندما أحسست أن الهيجان قد عضها عانقتني وهي تتحسر وتقول بصوت خافت: «قبلني، قبلني» ومرة تنظر إلي وتناديني: «براندو، براندو» ولك من يكون هذا البراندو؟؟ فظهر أنه الممثل الذي كان في الفيلم.

ذهبنا إلى فيلم آخر، كانت الفتاة تنفعل أكثر وتلف ذراعيها حول عنقي وتهمس «جيمس، جيمس» ولك أخي... هل أنا وكيل لهؤلاء الممثلين؟! إنه أمر غير طبيعي، كانت الفتاة تنظر إلي وتراهم في شخصي، صفعتها صفعتين قويتين وقلت لها:

- بس ولِكْ... اذهبي إلى حيث جيمس موجود فيه.

بعد فترة وجدت فتاة ثانية، بالنسبة إلي، نيتي صافية جداً ولكن الفتاة كانت تتكلم ثلاث كلمات بالتركية وثلاثين كلمة بالأمريكية... «اتركي هذه الكلمات يا ضنايا، لا أستطيع أن أفهمك»... وإذا ما بدأت تغني أغنية أمريكية فكل شيء تمام: «أنا أحبك... آي لاف يو» /I love you/ ... اتركي ولك بنتي هذه الأمواج، أو أبدأ ب «آي لاف يو» خاصتك.

رأيت أن الحالة لن تسير على ما يرام، فقلت لها:

- هيا يا بنتي... مع السلامة...

وافترقت عنها بكل صعوبة... بعد ذلك يا صديقي وجدت فتاة أخرى، لن أكذب عليك، كانت نيتي صافية أيضاً... وددت لو أتزوجها ولكن عيون الفتاة على الأمريكيين، وعندما رست سفينة أمريكية في الميناء... إذ بالفتاة تطير إلى هناك... يلعن أمها... أصرخ فيها:

- أين أنت ولك بنت؟

كانت الفتاة تتهاوى... مجرد ما أتت سفينة أمريكية... تمام... كانت الفتاة ترمي بنفسها على سطح السفينة. هذه الصداقة الوطيدة

بيننا وبين الأمريكان كانت كافية لزيارة السفن الأمريكية إلى موانئنا دائماً. وما انفكت الفتاة من السير على سطح السفينة. في ذلك الوقت كان أحد أصدقائي قد تزوج وأنجب ولداً، نظرت إلى الولد... «يلعن أمها» الولد أمريكي صرف، كان رأسه قد طال مثل بطيخة طويلة، قلت لصديقي:

ـ ولك أخي ما هذا...؟!

وكما يقولون عندما تكون المرأة في الوحام، يأتي ولدها شبيها بالوجه الذي نظرت إليه طويلاً، وبإيماني إن عيون نسائنا لا تنظر في وجوهنا أبداً، أينما نَظَرَتْ ترى الأمريكان... ومن المستحيل أن نأتي بطفل ونجعله يشبهنا.

المهم يا أخي... اتفقنا مع الفتاة، وهي من عائلة شريفة... قلت لها:

ـ انظري يا ضناي، لا تنظري في وجوه الأمريكيين أبداً... انظري أينما تشائين... إياك والنظر في وجوههم.

عندما قلت لها هذا الكلام، وكأنني قلت لها ادخلي في أحضان الأمريكيين وارقصي معهم في «باي أوغلو»... هل تعرف يا صديقي؟ لم أضربها أبداً... ولكن قهرت نفسي، وهكذا بدأت أشرب وأشرب وأتحدث مع نفسي كما تفعل أنت الآن... ولك أخي والله لن نستطيع الزواج. انظر إلى هذه الأمور فهل تستطيع أن تبني في وسطها عشاً زوجياً؟ قلت في نفسي «سأريكم» وأصبحت بحاراً في إحدى السفن الأجنبية، وخرجت إلى ديار الغربة على سفينة سويسرية، وأخرى إنكليزية، وأخرى أمريكية... وبدأت ألف وأدور حتى تعلمت اللغة الأمريكية تماماً... يا جنس حوا... سأنتقم منكن...! وها تراني يا أخي... أصبحت أمريكياً عادياً... ماذا تطلبن بعد ذلك؟ أنا أمريكي... هل لديكن طلب آخر؟ ست سنوات لم أر أمي وأبي... ست سنوات أصبحت كما تراني

الآن أمريكياً صرفاً... لن أتحدث التركية أبداً... صعدت سطح السفينة و مشيت، كانت النساء والفتيات ينظرن في بؤبؤ عيني:

ـ سأجعلكن تقعدن على الخازوق...!

مشيت من «قرة كوي» لم تعجبني واحدة من اللواتي كن ينظرن إلى وجهي، ست سنوات طوال قهرتني... هل أنظر إلى مثل هؤلاء النسوة؟! يجب أن أحصل على ملكة جمال النساء.

خرجت من «باي أوغلو» ثلاث فتيات أمامي يتهامسن ويضحكن، ولكنهن فتيات... أقول لك فتيات بكل معنى الكلمة، يموت الإنسان وهو ينظر إلى عيونهن؛ ضعهن على قطعة خبز كالمارغرين والتهمهن. اقتربت منهن وسألتهن بالأمريكية:

ـ عفواً، أنا إنسان غريب عن هذا البلد، أشعر بالعطش... من أين لي أن أجد الماء؟

ضحكت الفتيات وعرفن أنني أمريكي، فقلن:

ـ تفضل معنا لنسقيك...

ـ بالله عليكن اسقوني يكاد بلعومي أن يحترق.

بدأت الفتيات بالمشادة الكلامية بين بعضهن بالتركية، إحداهن تقول:

ـ لنأخذه إلى «ملابيجي».

والثانية كانت تقترح وتقول:

ـ لندخله إلى الكازينو الموجود في الفندق القريب منا.

والثالثة وهي شقراء إلى حد ما، قالت:

ـ لنأخذه إلى بيتنا.

خذوني ولك... يا قليلات الإيمان والدين... خذوني إلى أي مكان تريدونه. بدأت الفتاة الثانية المشادة الكلامية بالتركية:

ـ ولك أختي من العيب أخذه إلى «الملايبجي» أنتن تعرفن الناس هناك.

ـ أفضل مكان هو الفندق، نصعد إلى قسم الملحق... أليس هذا حسناً؟

ـ ولماذا لا نأخذه إلى البيت ولك روحي؟ ليرى الرجل ضيافتنا.

لاحظت أن المشادة ستطول... فقلت بالأمريكية:

ـ لو أن هناك بيرة باردة نشربها معاً.

صعدنا إلى ملحق الفندق وبدأنا بالحديث، فسألتني السمراء:

ـ لأي سبب جئتم إلى هنا؟

ـ أنا سائح... أنا أدور العالم بأكمله... والآن جئت إلى هنا.

ـ وكيف وجدت هذا المكان؟ أي بلادنا؟

ـ لم أجد أجمل من هذا البلد وبناته ونسائه... ولا أجمل منكن أبداً... معلوماتي عنكن أن رجالكم يلبسون العمامات، ونساءكم يلبسن الشراشف.

ضحكت الفتيات، فقالت دودة الفستق السمراء:

ـ ما رأيك لو تشاهد منازلنا أيضاً؟ لا تختلف عن منازلكم... وستتعجبون وتحتارون عندما تشاهدون ذلك.

قلت:

ـ بالله عليكن... منذ زمن طويل أنا مشتاق لأرى منازلكن.

بدأت الفتيات ثانية بالتحدث بالتركية، قالت الشقراء:

ـ آه... انظري إلى هذا الأنف ولك أختي... يا له من أنف جميل! إن أنوف الأمريكان دائماً غير شكل، وأنوفهم لا تشبه أنوف رجالنا.

طبعاً يا صديقي التشابه بعيد، لأن دجاجة الجار هي إوزة بعيون

الآخرين... عجيب! هل أنفي أصبح أمريكياً أيضاً؟! قديماً لم يعجب أنفي فتاة واحدة... فماذا حصل الآن؟!

ـ إن رقبته طويلة جداً... يا لرقابهم الطويلة هؤلاء الأمريكان!

وبينما نحن على هذه الحال يا صديقي، بدأت الثانية بالمشادة والمجادلة... سنأخذه إلى منزلي، والأخرى تقول إلى منزلي... وبما أنني لا أعرف التركية فلا أستطيع أن أقول لهن:

ـ ضعوا هذا الأمر على الدور... سأمر بكل واحدة على حدة.

كانت الفتيات على وشك أن يثقبن عيون بعضهن... ثم اتفقن على القرعة.

قلت:

ـ ما الذي حصل؟

قلن:

ـ نسحب القرعة كي نستضيفك.

وقعت من نصيب الفتاة الصفراء... كانت تسكن في «باقير كوي»... ركبنا القطار... بدأت الفتيات تتحدثن معي بصوت مسموع كي تغار منهن الفتيات الموجودات في القطار. كن يتحدثن بكلمة إنكليزية ويتبعنها بقهقهة عالية.

وصلنا إلى بيت الفتاة السمراء... كانت لها أخت تكبرها، أما والدها ووالدتها فقد كانا سعداء جداً، بذلوا المستحيل لتقديم الراحة لي، وأرسلوا الخبر إلى جيرانهم كي يرونني، وكل واحد كان يأتي ويقول:

ـ بالله عليكم... يجب أن نفهم أنفسنا على أكمل وجه وليظل عندنا بضعة ليالٍ...

يا صديقي... كلهن أصبحن ملكي... الفتاة الصفراء والبيضاء

والسمراء وأختها وبنت خالتها وأبوها وابنة عمها... هل فهمت يا صديقي؟

لا تترك نفسك في أفٍّ وأفٍّ... اذهب مباشرة إلى سفينة أجنبية وسجل فيها بحاراً... اترك هذه البلاد... اغترب ثلاث أو أربع سنوات، وعد بعدها وفتش عن واحدة لا تهتم فيك... إنهن ينجذبن إليك كانجذاب الإبرة إلى المغناطيس... انظر إلي... ألم أتحمل شهراً واحداً... سأركب سفينة وأذهب من هنا... لا تهتم بالأمر هكذا يا صديقي... تعال وسجل نفسك بحاراً في سفينتنا وذلك أفضل من الاحتراق هكذا، وأفضل من أن تخاطب نفسك هكذا، واترك النساء يخاطبن أنفسهن بعض الشيء. هيا يا صديقي على شرفك... على شرفك....

○ ○ ○

١٤

ابن أخ المشهور «الرجل الكبير»

نحن جماعة من الموظفين القدماء، نعيش في الدائرة التي نعمل بها مثل أخوة، نعرف بعضنا منذ سنوات طويلة... ولم يحصل بيننا في يوم من الأيام أيّ قال أو قيل. كل واحد يحب الآخر ويحترمه، وربما أصبحنا كمجموعة من الأقرباء المقربين.

وبينما نحن نعيش هذه الحياة الحلوة والأخوة الصادقة، وإذا بالمدير يدخل في أحد الأيام إلى قسمنا ومعه شاب يافع، والحقيقة أنه شاب شبهته بالممثلين... شعره مسرَّح ولمَّاع بفضل زيت الشعر، عندما ينظر المرء إلى شعره يصاب بالعمى من شدة اللمعان.

مديرنا محترم إلى حد ما، ومحبوب بعض الشيء، دخل إلى قسمنا مع الشاب وقد وضع يده على كتفه. تحركت من مكاني بسرعة البرق، وتحرك الزملاء من مقاعدهم أيضاً.

مديرنا رجل طيب وفي الوقت نفسه قاس إلى حد كبير، لا يعيرنا وجهه وابتسامته أبداً، وليس من عادته أن يأتي إلى غرفتنا... فلا بد أن يكون شيء ما مهمّ في مجيئه إلينا.

كنت أنظر إلى الشاب ولم أستطع تطبيق ملامحه على أحد... إذا قلت إنه من المسؤولين الكبار، فهو لا يشبههم، مع أن الشباب في هذه الأيام يصبحون مفتشين، ولكن هذا ليس مثلهم. إذا لماذا يقدره المدير ويتأبط ذراعه؟!

أحضر المدير الشاب إليَّ فعرفني عليه أولاً، ثم عرف الباقين:

ـ السيد تكين...

قال المدير بعد أن تم التعارف:

ـ سيد تكين سيعمل في قسمكم... بعد قليل سأخبر مدير الدائرة كي يرسل له طاولة وكرسياً.

سألت المدير دون أن أفقه فحوى سؤالي:

ـ وما العمل الذي نسنده إليه؟

احمرَّ وجه المدير وقال:

ـ سأخبرك لاحقاً.

والتفت نحو الشاب وهو يشير إلى كرسي فارغ:

ـ تفضلوا الآن مؤقتاً... سأرسل لكم المكتب فوراً.

خرج المدير من الغرفة... كنا ننظر جميعاً بطرف أعيننا إلى هذا المسمّى «تكين»، فقد جلس على الكرسي ولف ساقيه على بعضهما، وأسند ذراعه إلى طاولتي، ونفث بدخان سيجارته في أنحاء الغرفة.

قلت له:

ـ أهلاً بك يا بني.

رحب به الزملاء الآخرون أيضاً، وساد هدوء قصير في المكتب... تساءل الشاب:

ـ ماذا تعملون هنا؟

ـ نحن...؟ هنا القسم الثالث... نقوم بتنظيم معاملة الأوراق الواردة إلينا.

لا أعلم إذا فهم نوع عملنا أم لا، ولكنه قال:

ـ إنه عمل سيئ.

كم هو قليل التربية!!

ـ سيئ أو غير سيئ... هذا هو عملنا... ونحن مرغمون على القيام به.

حضر الآذن بعد قليل وقال:

ـ السيد المدير يطلبك.

تحركت بسرعة وطرقت باب المدير بعد أن أصلحت ثيابي وقيافتي ثم دخلت...

ـ هل تعرف ذلك الشخص الذي كان معي؟

ـ لا سيدي...

ـ آمان... ها... إنه ابن أخ السيد «فيشك الدين» خذوا حذركم.

ـ إذاً هكذا؟!

بقي فمي مفتوحاً...

ـ عند الصباح اتصل معي السيد «فيشك الدين» هاتفياً وقال: «سأرسل لكم ابن أخي، أعطه عملاً مناسباً». وبعد ساعتين جاء هذا الشاب وقال: «هل اتصل معك عمي من أجلي؟» فقلت: «نعم اتصل». ولكن منظر الشاب وحركاته ومواقفه لم تعجبني، سألته: «وما نوع العمل الذي تريد أن تعمل به؟» فقال: «ناقش هذا الموضوع مع عمي»... الغلام يتكلم من العلالي، فأنا لا أعرفه ابن من... وقريب من... ولست أدري ما هو العمل المناسب له... عمره ربما يقارب العشرين. سألته: «هل خدمت العسكرية؟» قال: «طبعاً خدمت العسكرية» سألته عن تعليمه، قال إنه جامعي. قلت له: «أحضر معك شهادتك الجامعية، وشهادة تأدية الخدمة الإلزامية، وهويتك لنقدم لك عملاً مناسباً».

بعد ظهر اليوم نفسه أحضر معه كل الأوراق التي طلبتها منه...

قال المدير: لو عينته في مكان آخر فالزملاء هناك لا يستطيعون مداراته

أو مجاملته فتحدث بعض المشاكل، ومهما يكن فأنت موظف قديم تملك خبرة طويلة في هذا المجال... أرجوك أن تهتم به وتشرف عليه لبعض الوقت تجنباً للمشاكل.

ـ على الرأس والعين، ولكن ما العمل الذي سنوكله له؟

ـ شوف، دبر الأمر... أعطه ما شئت، والأفضل أن لا تعطيه أي عمل!

عدت ثانية إلى القسم... ماذا رأيت؟ منضدة كبيرة عليها لوح زجاجي وكرسي للسيد تكين... لم أجلس طول حياتي على مثل ذلك المقعد الذي يجلس عليه الموظف الجديد...! ما العمل الذي سأوكله لهذا الشاب؟ فكرت بالأمر طويلاً فما كان مني إلا أن أخرجت من الخزانة ملفاً وقدمته له ظناً مني أنه نوع من المودة والحديث بيننا:

ـ لطفاً سيد تكين... لو تحاول إخراج فهرس هذا الملف وقت فراغك...

وقال:

ـ ما الذي سأخرج منه؟

ـ فهرسه.

ـ تقول فيست...! وما هو هذا الفيست؟

احترت في أمره، ونظرت في صورته... حاولت جاهداً أن أفهمه معنى الفهرس، ولكنه حك رقبته.

قال:

ـ ماذا سيصبح لهذا الملف؟

قلت في نفسي: «لو لم تكن ابن أخ السيد فيشك الدين لأعطيتك الجواب، ولكن... ادع لعمك».

قلت:

ـ نحن بحاجة إليه.

حمل الملف ووضعه على الطاولة وبدأ بتقليب أوراقه بأطراف أنامله... وبعد قليل قال:

ـ أنا ذاهب.

لم أقل له شيئاً... وخرج من الغرفة.

في اليوم التالي وصل إلى الدائرة عند الساعة الحادية عشرة والنصف، جلس بعض الوقت وغادر المكتب نهائياً ذلك اليوم. وبعد يومين حضر بعد الظهر وظل يدور في الغرفة ويخرج منها واضعاً يديه داخل جيوبه وهو يصفر...

بعد وقت قصير سألَتْ إحدى الزميلات وتدعى صفية هانم:

ـ من أين تخرَّج السيد تكين هذا؟

ـ من كلية الحقوق.

وقفت المرأة وفكرت ثم قالت:

ـ هل أقول لكم شيئاً ما؟ هذا الغلام لم يتخرج حتى من الإعدادية...!

والحقيقة، أنا الآخر كنت أملك الشعور نفسه لأنه لم يكن يعرف الكتابة بشكل جيد.

قالت صفية هانم:

ـ يتراءى لي أن هذا الغلام ليس من أقرباء فيشك الدين، لقد خدع مديرنا! ومثل هذه الخداع يحصل كثيراً في هذه الأيام... ألا تقرؤون ذلك في الصحف؟

ذهبت إلى المدير وسردت له ما جرى بيننا، فقال:

ـ آمان دخيل الله... اسكت، أنا الآخر عندي شعور بذلك، لم أر في حياتي رجلاً غبياً وجاهلاً مثله. إذا خدعنا على أساس أنه ابن أخ فيشك الدين، فرأسي سيوجعني كثيراً... كيف سنعرف هذا الأمر؟

قلت له:

ـ أعطني الشهادة لأذهب وأتأكد بنفسي.

أخذت «الدبلوم» وذهبت مباشرة إلى كلية الحقوق، فاتضح لنا أن الشهادة مزورة أو مزيفة.

قال المدير:

ـ بالله عليك، لننتظر بعض الوقت أيضاً... فإذا كان حقيقة ابن أخ فيشك الدين فإننا لن نتخلص من المشاكل.

مر وقت آخر، وإذا بأمور غريبة بدأت تحصل في قسمنا... في الوقت الذي لم يكن يفقد من الغرفة إبرة واحدة، بدأت أموالنا وأقلامنا الحبر الجميلة بالاختفاء أو السرقة؛ في اليوم الذي يأتي فيه السيد تكين كان يختفي شيء ما. وفي أحد الأيام اختفى معطف السيد «مشتاق» من المشجب، قبضنا على الحاجب ووضعناه في فم المدفع، فقال:

ـ أنا أعرف السارق ولكن لا أستطيع أن أبوح باسمه لأنني سأتعرض للمشاكل.

أعطيناه وعداً على أساس أن لا نقول لغيرنا... عندها تكلم الحاجب:

ـ السيد تكين كان يسرق كل أغراضكم... راقبته عدة مرات، وهو الذي كان يسرق.

بدأت بعض الرؤوس الحديدية تختفي تباعاً، حتى أن الآلة الكاتبة اختفت في أحد الأيام... عندها ذهبت إلى المدير وقصصت له الأمر فقال:

ـ لا تسألني، إنه يأتي إلي غرفتي بين وقت وآخر... وكلما يدخل إلي ينقص من مكتبي بعض الأشياء، قبل أيام اختفت قداحتي.

عدت إلى غرفتي وقلت:

ـ لو نعرف أنه ليس ابن أخ السيد فيشك الدين كنا سنقرأ على روحه الفاتحة.

في يوم قال السيد مشتاق:

ـ هل أدى هذا الشخص الخدمة العسكرية؟

ـ يقول أنه خدم الجيش، وأنه كان ملازماً أول.

ـ إنه يكذب فهو لا يفقه شيئاً من العسكرية.

أسرعت إلى المدير وأخبرته بما جرى بيننا...

ـ أنا أيضاً عندي اشتباه من هذه الناحية، كيف سنفهم الموضوع؟

ـ لنذهب إلى شعبة التجنيد ونتحقق من الأمر.

اتضح لي أن شهادة تأدية الخدمة العسكرية هي الأخرى مزورة، قلت للمدير:

ـ يجب أن نسلم هذا الشخص إلى البوليس.

ـ لنسلمه... لنسلمه... ولكن إذا كان ابن أخ السيد فيشك الدين حقيقة تركناه وكأن شيئاً لم يكن.

بدأ السيد تكين بتقليب الملفات بين وقت وآخر، وفي الوقت الذي كان حضوره قليلاً إلى الدائرة، أصبح يتردد إليها أكثر فأكثر، وكنا نراقبه على الدوام ونحذره في بعض الأحيان قائلين:

ـ لا تلمس هنا وهناك... دير بالك ها.

في هذه الفترة كانت رائحته قد فاحت هذه المرة أيضاً، كان يأخذ الرشاوى من المواطنين كي يخلص أعمالهم ومعاملاتهم بسرعة.

قال أحد الزملاء، وهو السيد عرفان:

ـ هذا الشخص لن يكون ابن أخ لفيشك الدين.

ـ لا يكون... لا يكون... ولكن إذا كان حقيقة ابن أخيه؟

ـ هذا غير صحيح لأن اسم هذا الشخص ليس تكين.

ـ ما اسمه؟

ـ دوغان.

ـ أهذا صحيح؟

ـ والله صحيح، لأنني رأيته مع أحد أصدقائه في السينما وكان دائماً يناديه دوغان، ولم يقل له مرة تكين.

أسرعت إلى المدير وأخبرته بما سمعته فقال:

ـ منذ وقت طويل وأنا أشعر بذلك، ولكن كيف سنفهم هذا الأمر؟

ـ أنا أستطيع أن أفهم.

سألت هنا وهناك... وإذا بهويته مزورة أيضاً...

ـ لا مجال بعد الآن للجلوس هكذا دون فعل شيء، يجب أن نسلمه إلى البوليس فوراً.

ـ طيب لنسلمه... ولكن إذا كان حقاً ابن أخ السيد فيشك الدين؟؟

كل هذه الأعمال لا تقاس بما يفعله تكين، لقد أقدم على خداع أربع فتيات في الدائرة على أساس أنه سيتزوجهن.

غضبت من الفتيات كثيراً:

ـ هل كنتن جاهزات لهذا الخداع يا ترى؟ وهل تنتظرن هذا الرجل لتقلن له تعال واخدعنا؟

كانت الفتيات راغبات في تقديم الشكوى بحقه، ولكنهن كن خائفات لكونه ابن أخ السيد فيشك الدين.

وتبين أيضاً أنه نصب على أرملة تعمل في قسم القيود بمبلغ اثني عشر ألف ليرة ووعدها بالزواج.

وكانت الخادمة أيضاً تبكي بمرارة لأنه أخذ منها ألف ليرة ووعدها بالزواج...

انقلبت الدائرة رأساً على عقب ولم يمض على تعيينه في الدائرة سوى ستة أشهر؛ لم يبق موظف في الدائرة إلا وتعرض للخداع والسرقة والنصب...

في نهاية الأمر عقد جميع الموظفين في الدائرة مؤتمراً لمناقشة الوضع... تقدم كل واحد منهم بشكايته، فتبيَّن أنه أخذ من البواب مائتي ليرة ووعده بتعيينه موظفاً أصيلاً، وعاش في منزل معاون المدير أكثر من شهرين وباع سجادة بيته ومذياعه.

اتجهت نوايا العاملين إلى تقديم شكوى بالغلام، لكن ماذا سيحصل لنا لو ظهر أنه ابن أخ السيد فيشك الدين؟؟

قال أحد الزملاء:

ـ مثل هذا المصروع لا يمت بصلة وبأي شكل من الأشكال لأن يكون ابن أخ لرجل معروف ومشهور من قبل الجميع.

ـ ولك يا روحي نحن نعلم أنه لا صلة له به، ولكنه إذا كان حقيقة ابن أخيه، وهو احتمال ضعيف، معناه أننا احترقنا جميعاً.

ـ لنُسمِّ من بيننا مبعوثاً إلى السيد فيشك الدين، لنتحقق من هذه المسألة.

هذا هو قرارنا الأخير... لنترك القرار جانباً، فقد وردت أنباء عن عزم السيد فيشك الدين على زيارة دائرتنا... ها... هذا تمام... «سيطلع على هوية الرجل» وسينكشف أمره عندما يراه السيد فيشك الدين... وقد أخذنا كل الاحتياطات لتسليمه للبوليس حالاً.

قال السيد مشتاق:

ـ لا... «ما في عونطة وزعبرة» لن أسلمه للبوليس قبل أن أبصق على.

قال السيد معاون المدير:

ـ أما أنا فلن يعرف أحد أي عقاب سأنزله به.

كانت إحدى الفتيات التي خدعهن تحمل في حقيبتها اليدوية حذاء كعبه مدبب، جهزته لتضربه به على رأسه... وكل واحد منا جهز شيئاً ما لنفس الغرض.

قلت لزملائي:

ـ آمان... بالله عليكم لنفعل فيه كل شيء، ولكن دون الضرب المبرح.

عزمت أن أعلق في رأسه زجاجة كازوز وهي جاهزة لدي.

كنا نخبئ عنه خبر قدوم السيد فيشك الدين إلى الدائرة لأنه إن سمع بهذا الخبر ربما لا يحضر إلى الدوام في ذلك اليوم، وحاولنا المستحيل وبشتى الطرق أن يكون في الدائرة ساعة حضور السيد فيشك الدين إليها.

في النهاية جاء السيد فيشك الدين إلى الدائرة وتكين في غرفتنا... كان المدير يحاول بطريقة ما أن يدخل السيد فيشك الدين إلى غرفتنا، كل الموظفين منفعلون منتظرون نتيجة اللقاء بفارغ الصبر، كل واحد قد جهز

ما عنده، والقهواتي وضع صفيحة من الماء على النار ليسكب الماء المغلي فوق رأسه، وأوصلنا الأمر إلى شعبة الأمن الجنائي، فحضر ثلاثة من الشرطة المدنية ووقفوا ينتظرون النتيجة حتى يقبضوا عليه ويأخذوه معهم.

ودخل السيد فيشك الدين غرفتنا ومن خلفه المدير ومعاونه، بينما تجمع باقي العاملين في الدائرة خلف الباب وفي أيديهم العصي والمكانس...

فور دخول السيد فيشك الدين إلى الغرفة وإذا بقليل الأدب المسمى تكين يهرع من مكانه ويتجه نحوه ويقبض على يده ويقبلها عدة مرات، فاحتار السيد فيشك الدين وقال مندهشاً:

ـ أدامك الله يا بني.

تكين:

ـ كيف حال زوجة عمي؟

ـ إنها بخير... الحمد لله.

ـ لقد طلبت مني زوجة عمي عدة مرات أن أذهب إلى عندكم، ولكن لم أستطع الذهاب لعدم وجود الوقت الكافي لزيارتكم، إنني خجول منها، ومنذ أن وضعتني هنا لم يبق عندي وقت أبداً...!

نظر السيد فيشك الدين مرة إلى المدير ومرة إلى تكين، وسأل المدير:

ـ هل أنتم مسرورون من تكين؟

ـ نحن مسرورون منه يا سيدي.

ـ مَن رئيسه؟

أشار إلي المدير... فسألني السيد فيشك الدين:

ـ كيف حال تكين؟ هل يعمل جيداً...؟

ـ إنه يعمل جيداً.

ـ أوه... أوه...

خرجوا من الغرفة... قبَّل تكين يد السيد فيشك الدين ثانية... ونحن بقينا كما كنا...

بعد شهرين جاء ترفيع لتكين، وقبل أيام من ترفيعه قال لي:

ـ أعطني ثلاثمائة ليرة ثمن تقرير طبي لأحد الأطباء كي أحصل على استراحة أسبوع كامل....

هل أعطيه أم لا...؟! إنني أفكر...!!

○ ○ ○

١٥

رسالة إلى شخص لا يرتاح في مقعده

إلى السيد......

عندما ينظر الآخرون إليكم، يحصل لديهم انطباع أنكم في وضع مريح للغاية، وتملكون مقعداً واسعاً، متيناً وغالي الثمن، ولكن لماذا أنتم غير مرتاحين في هذا المقعد رغم أنه وثير وناعم، لين وواسع؟! وعندما تسندون رسغ ذراعكم على الطاولة الكبيرة أمامكم يجب أن تكونوا في أوج الراحة... ومع ذلك فأنتم في وضع مضطرب من جراء الجلوس على هذا المقعد... لماذا هذا الاضطراب؟! هل وضع التلاميذ العرابيد بعض الأشواك على المقعد، بحيث عند جلوسكم تنغرز هذه الأشواك في مؤخرتكم؟! لا أظن أن هذا التصرف يحصل من التلاميذ... أرى أنكم على وشك السقوط من هذا المقعد الواسع والذي يبدو للناظر أنه مريح جداً، حتى البهلوان الذي يمشي على حبل مشدود ويجلس عليه بكل سهولة يظهر أنه في وضع مريح في جلسته أكثر منكم وأنتم على هذا المقعد! إن هذا البهلوان الذي يسير على الحبل يتوازن في مشيته أكثر من توازنكم وأنتم جالسون على المقعد!! وكأن المقعد قد دبت الروح في داخله وأصبح بغلاً متمرداً وأنتم تمتطون ظهره، وتتعلقون بشعر رقبته خوفاً من السقوط... وكلما شاهدتكم في هذا المقعد وأنتم بين السقوط وعدمه أشعر بانزعاج كبير وأخاف جداً من عدم توازنكم هذا، وأفضل شيء لنا أن نهرب بأعيننا كي لا نراكم، ولكننا لا نملك القدرة على ذلك لأن أي إنسان يجلس في مقعده ويشعر كأنه جالس على مجموعة من الأشواك والإبر أو جمر من النار فمن رابع المستحيلات عدم النظر إليه...

المقعد الذي تجلسون عليه واسع، والطاولة التي أمامكم كبيرة، وغرفتكم واسعة ودافئة... إذا كان لديكم هذه الميزات فما علّتكم يا ترى؟! وما هذا الاضطراب الذي يساوركم؟! حتى ولو سقطت على الأرض فلن تصاب بأي إضرار في جسدك لأن الأرض مغطاة بالسجاد السميك، فما هذا الذي يحصل بكم؟! تحسبون أنفسكم أنكم على قمة مرتفعة وستسقطون إلى هاوية سحيقة وتتحطمون، ويكاد يتفجر الخوف من عيونكم الشبيهة بفناجين القهوة...! إننا نرثي لحالكم هذه عندما نلمس المهالك الحقيقية التي أنتم فيها...

لا تتأوهوا ولا تظلوا قلقين يتلوى جسدكم من الألم. اجلسوا على هذا المقعد وتثبتوا فيه... ماذا بمقدورنا أن نقدم لكم لتشعروا بالراحة في مقعدكم؟؟ لست أدري... لم أفكر بشيء آخر بعد جلوسكم على هذا المقعد وأنتم بين السقوط وعدمه... لماذا ينقلب الإنسان الجالس على المقعد؟؟

هاه... لقد تذكرت حادثة أوصلتني إلى التفكير بمقعدكم، سأقصها لكم لعلها تفيدكم في الاستقرار وعدم السقوط:

ذهبت منذ سنوات طويلة إلى مقهى صيفيٍّ مكشوفٍ... كان المقهى يعج بالرواد الذين حضروا تلك الليلة لآن البرنامج الفني كان غنياً جداً... الأوركسترا تعزف، والمغنون ينشدون، والممثلون يعرضون مواهبهم على خير ما يرام... بدأ بهلوان يقدم لعبة جمباز صعبة في ساحة الحديقة وهي الصعود فوق كرسيين. في تلك الفترة كان أحد المتفرجين يثرثر بصوته العالي كونه شرب حتى الثمالة ويقذف بالألفاظ البذيئة للبهلوان ويزعج الجالسين حوله شر انزعاج... وبما أن السكران يتكلم بلغة أجنبية فلم نكن نفهم من كلامه شيئاً، ولكن ما فهمناه من تصرفاته أنه كان يرغب القيام ببعض الألعاب البهلوانية، لم يقتصر عمله على ذم البهلوان بل بادر

بالهجوم عليه لأن بعض الألعاب لم تعجبه، وكان يريد من جهته أن يعرض علينا حركات بهلوانية أفضل وأجمل مما أثار حفيظة أصحاب المقهى لأن رواده انزعجوا جداً.

يعتبر المقهى من المقاهي الفاخرة، ورواده رجال متميزون مختارون، ولهذا السبب لم يستطع خدم المقهى إلقاء السكران خارجاً. وفجأة ظهر رجل بدين من وسط المقهى، وربما يكون هو مديره، وطلب من الرواد والمشاهدين أن يأذنوا له بإقناع الرجل السكران، وذلك بحديث ساخر فريد من نوعه.

تقدم السكران الذي كان يقف على قدميه بصعوبة إلى الساحة وهو يتأرجح بين الطاولات والكراسي وقد وضع قي طرف فمه سيجارة، حاول الصعود إلى المنضدة الكائنة وسط الساحة فلم يستطع بأي شكل من الأشكال، وكان اهتزاز السكران وعدم توازنه وهو واقف على رجليه يضحك المشاهدين، وبدأ الجمهور بالتصفيق الحاد لأن السكران أصبح موضع سخريتهم... اشتدت عزيمة السكران نتيجة للتصفيق وثارت حميته، فوضع على الطاولة أربع كراس فوق بعضها، وقفز إلى الطاولة ثم إلى الكرسي الرابع في الأعلى وجلس عليه وبدأ ينفث دخان سيجارته... صفق المشاهدون كثيراً لهذا المنظر الذي لم يتوقعوا حصوله... المهم أنه نجح في ذلك!! ولكن الواجب الباقي عليه هو الهدوء والعودة إلى مقعده، ولم يكن لدى السكران نية في الهدوء والاتزان، فنزل إلى الأرض وأخذ ثلاثة كراس وحاول التسلق فوق الكراسي الأربعة القابعة فوق الطاولة... كان منظراً مخيفاً لا يمكن وصفه... ثم بدأ في الصعود وكانت رجلاه ترتجفان من حين لآخر والجمهور يصيح: سوف يسقط، سيقع على الأرض. كانت النساء تصرخ من شدة الخوف عندما كان السكران على وشك السقوط على رأسه، وفي كل مرة كان يفقد توازنه وهو ينزل على رأسه، يعود بتوازنه ويتمسك بخشبة كرسي أو طرف طاولة ويعود ثانية

إلى هدوئه، ويتخلص من السقوط في آخر لحظة. المهم أنه نزل إلى الأرض فصفقنا له طويلاً لأنه قام بأداء دور البهلوان، ويا ليتنا لم نصفق له! فقد عاد إلى الساحة وعلّق في كل من يديه كرسياً، ووضع السيجارة على طرف فمه وبدأ بالتسلق ثانية والكرسيان في يديه... صعد أولاً فوق الطاولة، ثم فوق الكراسي الأربعة بحركة ماهرة وبطء كبير، ثم صعد فوق الكراسي الثلاثة، وركز الكرسيين فوق الثلاثة... صعد وجلس فوقهما! أصبح السكران يرتفع عن سطح الأرض أكثر من سبعة أمتار وسط صياح الجمهور وزغاريد النساء.

جلس السكران فوق إحدى الكراسي وقذف بسيجارته التي وصلت إلى نهايتها، ثم أخرج علبة السجائر من جيبه وركز سيجارة على طرف فمه وأشعلها بقداحته، وخلال هذه الفترة كان على وشك السقوط عدة مرات والجميع خائفون يحبسون أنفاسهم، ثم بدأ بالنزول بعد أن شرب نصف سيجارته. ومثلما الصعوبة في الصعود كانت أكثر في النزول، وكان على وشك التدحرج على الأرض، إلا أنه نجح في النزول سالماً. ولم يكد يأخذ لحظة من الراحة حتى حمل بيده كرسياً وتسلق الطاولة والكراسي ثانية ولكن هذه المرة بسرعة القرد، وركز الكرسي فوق الكرسيين وصعد وجلس عليه، وبدأ يسحب بسيجارته... ثم رفع إحدى رجليه ووقف على رجل واحدة بينما الكراسي تتمايل وتهتز... وغالبية الجمهور وخاصة النساء وضعن أيديهن على أعينهن حتى لا يشاهدن منظر سقوطه على الأرض.

في تلك اللحظة بدأ السكران لعبة جديدة، لا بل تبدو مستحيلة، فقد وضع يديه على حافة الكرسي ورفع قدميه في الهواء وظل وهو في هذا الموقف الصعب يهتز كغصن في عاصفة، ولكنه لم يسقط على الأرض، وما زالت السيجارة على طرف فمه.

عندها عرفنا أننا لم نكن نراقب سكراناً ولكننا كنا نشاهد بهلواناً على مستوى كبير من اللياقة ودقة الحركة.

أيها السيد المحترم: إن حالتكم هذه، المشوبة بالاضطراب والخوف وقلة التوازن وأنتم جالسون على هذا المقعد الوثير الناعم، الواسع العريض، والطاولة الكبيرة التي أمامكم والتي تستندون إليها برسغيكم، والأرض المفروشة بالسجاد والجو الدافئ... كل هذه المواقف والأوضاع ذكرتني بالسكران المزيف، والبهلواني العظيم.

كان ذلك البهلوان يتسلق الطوابق الأربعة من الكراسي، ويقف على يديه كعمود في نهاية الكرسي، ومع هذا لم يسقط على الأرض!! أما أنتم فعكس ذلك لأنكم خائفون ومضطربون رغم أنكم تجلسون على هذا المقعد الكبير، العريض، الناعم...! حتماً ستقولون عنه: «إنه بهلواني»... وأنا لا أرغب أن أقول لكم: «وماذا ينقصكم لتكونوا مثله؟! نعم إنه بهلوان يقف على يديه مثل عمود على ارتفاع ستة أو سبعة أمتار، ولكن ما من أحد يطلب منكم الوقوف على يديكم على مقعدكم هذا... اجلسوا في مقعدكم في وضع الراحة، لا تتحركوا دائماً وكأن الأشواك قد انغرزت في مؤخرتكم. نقول لكم: كفى... لماذا لا يسقط البهلوان من هذا الارتفاع الكبير وهو يقف على يديه، وأنتم تخافون السقوط عن هذا المقعد الكبير والناعم؟!! ولكي نفهم هذا يجب أن نعرف سر عدم سقوط البهلوان! إن ذلك البهلوان لا يسقط يا سيدي لأن جميع الكراسي التي تحته في توازن تام وعلى أكمل وجه، ويتوزع ثقله على الكراسي بنسب متساوية، أما توازنكم فقد أكله الصدأ...! أرجو أن تحنوا رأسكم نحو الأرض وتنظروا إلى قدميكم وإلى أرجل الكرسي... فأرجلها ملتوية ومكسورة... أما قدماكم فسالمتان، كيف تسقطون وأنتم في هذه

الحالة يا سيدي؟! إنكم لا تستطيعون مجابهة هذا الوضع مهما حاولتم تركيز مؤخرتكم على هذه الكرسي بكل دقة؛ فهي عكس قوانين الطبيعة وقوانين المجتمع...!

نعم يا سيدي، حتماً ستسقطون، وعلى الأقل يجب أن تفهموا سبب سقوطكم وسقوط الذين جاءوا قبلكم كثمار التين...! ولكن مع الأسف الشديد لم يفهموا سبب انهيارهم، وها أنتم ستنهارون مثلهم، وتسقطون وأنتم تتدحرجون...!!!

○ ○ ○

١٦

ليراه معي سيد عاصم

كان السيد عاصم أول مدير عملتُ معه في بداية حياتي العملية أو الوظيفية. تقع الدائرة في ناحية صغيرة والسيد عاصم مدير الدائرة... كان إنساناً بشوشاً طيب القلب، لا تهمه أمور الدنيا، قنوعاً، مجرباً، خبيراً متقدماً في السن... كان بعض الموظفين ينادونه «يا سيدي» أثناء محادثتهم له وجهاً لوجه، وبعضهم يقول «سيد عاصم» ولم أكن أعلم فيما إذا كان السيد عاصم ينزعج من هذا اللقب أم لا.

وكما هو معروف فإن موظفي الريف يختلفون كلياً عن موظفي المدينة تبعاً للمناصب... فبينهم الموظف الكبير والصغير، والفروقات موجودة بين موظفي المدينة، أما في الريف فلا وجود لهذه التفرقة بين الموظفين، فالجميع يعتبرون أنفسهم في موقع مرتفع، والجميع يعرفون بعضهم حق المعرفة، ولا ينظر أحد إلى الآخر نظرة فوقية أو دونية.

في أغلب الأحيان كنا نذهب أيام السبت إلى «نادي المدينة» المخصص نصفه مقهى ونصفه الآخر للعب القمار... وبينما كنا في إحدى الأمسيات على مائدة الشراب في «نادي المدينة» فوجئنا برئيس قسمنا وموظفين قدماء على الطاولة... عندما فتحت سيرة «السيد عاصم ليراه معي» سألت رئيس القسم عن هذا اللقب وكيف تم الحصول عليه، احتار الموجودون لأنني لا أعرف ما يعرفونه.

قال رئيسي:

ـ يجب أن تسمع هذه القصة من السيد عاصم شخصياً.

تحدثوا مطولاً عن السيد عاصم وسبب وجوده هنا، وأن السيد عاصم كان مديراً لدائرة كبيرة في المدينة، وأنه تقدم بطلب نقل إلى هذه البلدة الساحلية الصغيرة ليصبح مديراً لدائرة صغيرة كهذه.

مضى عامان على وجودي الوظيفي هنا في هذه الدائرة، وكنت على وشك الزواج من فتاة تعرفت عليها، وكانت رغبة أهل الفتاة أن نقوم بمراسيم الزواج دفعة واحدة من خطبة ونكاح وحنة ودخلة... وبما أن الصداقة بين الشاب والفتاة ممنوعة، أو غير مرغوبة ومثار للكلام في هذه البلدة الصغيرة، فأنا لم أخرج مع الفتاة ولو لمرة واحدة، ولم أعرف عنها وعن أخلاقها وعاداتها أي شيء على الإطلاق.

ذات يوم دخلت إلى مكتب المدير لتوقيع إحدى المعاملات، قال السيد عاصم دون أن يرفع رأسه عن الورقة التي كان سيوقعها:

ـ لقد سمعت أنك ستتزوج، فهل هذا صحيح؟

كنت موظفاً صغيراً، ونادراً ما أحظى بمقابلة المدير فتعجبت كيف سمع المدير عن زواجي، وكيف يعطي اهتمامه لواحد من أمثالي، فقلت:

ـ هذا الأمر ليس قطعياً يا سيدي المدير، ولكنني ما زلت أفكر به.

قال وهو ينظر إلي من فوق عدسات نظارته:

ـ من هي الفتاة التي ستتزوجها؟ وابنة مَن؟

ـ لا تعرفها يا سيدي... إنها فتاة من هذه البلدة.

رفع نظارته عن عينيه وقال:

ـ إذاً هكذا...

ثم أضاف:

ـ إذا لم يكن عندك عمل هذا المساء، دعنا نتناول العشاء سوية.

شكرته على هذه اللفتة الجميلة:

ـ أنتم تأمرون يا سيدي.

ـ أستغفر الله... لنلتق غداً مساء في نادي المدينة.

التقينا عند المساء في النادي، فاختار طاولة بعيدة عن الازدحام وأعين الفضوليين في إحدى زوايا الصالة وقال:

ـ سنتناول المشروب أليس كذلك؟

ـ نعم.

أحضر الخادم الذي يعرف السيد عاصم إلى الطاولة جميع لوازم المشروب. قال السيد عاصم:

ـ إنني أراقبك من بعيد ومنذ فترة طويلة، الظاهر أنك شاب محترم.

حاولت جاهداً أن أشكره على هذه الالتفاتة الكريمة بأسلوب لطيف قدر المستطاع. ثم سألني:

ـ هل تعرف قصة تسميتي «ليراه معي سيد عاصم»؟

قلت:

ـ لا أعرف يا سيدي.

ـ هل صحيح أنك لا تعرفها، أم تتجاهل معرفتها لعدم إحراجي؟؟

ـ حقيقة لا أعرفها يا سيدي.

ـ إذا اسمع جيداً، سأقص عليك القصة، ولكن قبل ذلك أعلمني من هي الفتاة التي ترغب بزواجها؟

كان سؤالاً محرجاً جداً، لا أقدر على الإجابة عليه أبداً... وعندما طال صمتي قال:

ـ يقولون أنها فتاة من عائلة ذاقت الأمرين في الحياة... «أي أن العائلة فقيرة»...

قلت:

ـ نعم، أنا موظف صغير...

قاطعني قائلاً:

ـ طبعاً فكرت أن لا تكون نظرتك في الزواج نحو العلالي.

ـ نعم...

ـ قلت في نفسك يكفينا هذا الراتب؟

ـ نعم يا أفندم.

ـ قلت في نفسك لتكن واحدة مغمضة العينين؟

ـ نعم يا أفندم.

قال عدة مرات وكأنه يرسم علامة استفهام:

ـ الله... الله...

ثم قال:

ـ تماماً مثلما فكَّرتُ فيه منذ سنوات طويلة، ولكن هناك فرق واحد بيننا وهو أنني تزوجت متأخراً وأنت تبدأ باكراً... هذا حسن جداً.

ملأ الكأسين الفارغتين ثم قال:

ـ هيا لنشرب من أجل سعادتكما... انظر إلي جيداً، النصيحة التي سأقولها اجعلها قرطاً يطرق باب أذنيك دائماً: الفتاة التي ستتزوجها والتي ستأتي بها إلى منزلك، إياك ثم إياك أن تبدل من الحاجات التي جلبتها معها من بيت أبيها، فمثلاً إذا جاءتك بنوع من الجوارب إياك أن تبدله، لا تقل في نفسك لنشترِ جوارب أجمل وأغلى، ولا تقل في نفسك لن ترى عندي ما رأته في بيت والدها، فإذا فعلت ذلك فستحترق مثلي.

لم أفهم قصده تماماً، ولكني أجبته كموظف صغير أمام مديره:

ـ على الرأس والعين يا سيدي.

ـ أنا أعرف تماماً ما يدور في أعماقك، تقول ولماذا لا أشتري لزوجتي جورباً جميلاً وغالياً؟! إياك ها... إياك... لا تشتر لها، لا تقل في داخلك هذا جورب وكفى... لأن كل شيء يبدأ بالجوارب، عندما تقول جورباً تقول حذاء، وعندما تقول حذاء تقول غطاء رأس ثم بلوزة... ولا تشعر عندها إلا والزوجة طارت من يدك... نعم يا بني... أنا أيضاً كنت موظفاً صغيراً مثلك، شاباً يافعاً، لم أتزوج معتمداً على راتبي الصغير، قلت في نفسي لا تستطيع إسعاد زوجتك المقبلة بهذا الراتب الصغير يا رجل فاصبر، وصبرت وعملت وبقيت عازباً لمدة طويلة... ومرت السنوات حتى ترفعت وزاد راتبي الشهري، واشتريت شقة من بناية صغيرة وفرشتها كما أريد. كان عمري قد تجاوز الثامنة و الثلاثين... وجاء دور الزواج، ولم أكن أعرف آنذاك أن الدنيا مليئة بالفتيات من جميع الأعمار والأطوال والأطوار و العادات. جميعهن على استعداد لإلقاء أنفسهن بالنار من أجل الزواج، احترت في هذا الأمر كثيراً، بعضهن حصلن على الثانوية وبعضهن تخرجن من الجامعة، وبعضهن أميات و متعلمات إلى حد ما هن فتيات منزل، بينهن الشقراء والسمراء والحنطيّة والبيضاء، بعضهن أغنياء جداً وشبه أغنياء... بينهن البدينة والضعيفة والمدعبلة والطنبورة، وإحداهن تملك بناية من ثمانية طوابق... المهم لا أريد الإطالة، وأن يكون الإنسان سعيداً... فإذا كان الإنسان لا يهتم بشيء ما فإنه لا يعرف قيمته... ومن جهتي فحتى ذلك التاريخ لم أكن أعرف أن فتيات بالجملة ينتظرن الزواج، هذا الشيء مع الأسف لم أعرفه إلا عندما قررت الزواج، ضربت ذلك الرأس الجامد آنذاك وقلت:

ـ يا رجل تزوج من فتاة فقيرة إلى حد ما، يكفيها ما أملكه، لا تنظر

إلى الأعالي، لتجد كل الأشياء عندي، لتراها معي، لتكن عيناها مغمضتين؛ إذا وجدتُ فتاة بهذه المواصفات وعيناها لا تنظران نحو الخارج، تكون مرتبطة بي تماماً...

هكذا فكرت بيني وبين نفسي، فاخترت من بين مجموعة من الفتيات الراغبات فيَّ فتاة اسمها صبيحة تجمع هذه المواصفات، عمرها واحد وعشرون عاماً، أنهت الإعدادية، جذابة، ليست جميلة ولكنها في الوقت نفسه غير قبيحة يستطيع المرء أن ينظر إليها... بيضاء الوجه.

تزوجنا، ولم تحضر معها شيئاً من أمتعتها، فرحت لهذا الأمر كثيراً، كنت أقول لها:

- ما رأيك لو أشتري لك هذا الشيء يا صبيحة؟

تقول:

- عندي كل شيء.

أقول لها:

- بالله عليك لا تفعلي هذا يا صبيحة، انظري سأشتري لك هذا الشيء...

تقول:

- لا أريد.

حتى لا تتركني أشتري لها منديلاً أو جورباً تقول:

- عيني ليست في الأقمشة واللباس، إن الإنسانية ليست في اللباس و القماش...

هذه هي المرأة الحقيقية...! كدت أطير من فرط السعادة، فصبيحة أيضاً لا تعرف الحمرة ولا البودرة ولا أي شيء، وعندما كنت أحاول شراء هذه الأشياء كانت تقول:

ـ لماذا لا يقوم الرجال على دهن وصباغ أنفسهم إنهم يفسحون المجال للنساء ليتبرجن؟؟ فالرجال يحبون مشاهدة النساء وهن متبرجات.

هكذا كانت تتكلم، بعقلها، بفكرها، لا بقلبها... يقف المرء حائراً لدى سماعه حديثها الخارج من العقل، لم تكن تحب الخرز والحلق والأساور والخواتم أبداً، وتقول:

ـ هل أنا من آكلي لحوم البشر؟!

ليست مثقفة ولكنها تشد المتعلمات إلى حجرة كبيرة بعلمها وخبرتها، مسامحة... نعم لقد انتظرت طويلاً، وطويلاً، وفي النهاية أصبت الطير من عينه...!

مرت ستة أشهر وأنا على هذا المنوال... في إحدى المرات كنا نسير في الشارع معاً، قلت لها:

ـ ما رأيك لو أشتري لك جورباً جميلاً وغالياً، وخاصة بعد مرور هذه الشهور الطويلة دون أن أشتري لك شيئاً؟

قالت:

ـ لا أريد، أملك زوجين من الجوارب لماذا نشتري الثالثة؟

ولك عيني هل شراء زوج من الجوارب يعتبر إسرافاً وتبذيراً؟ أنا رجل، وعندي أكثر من عشرة أزواج من الجوارب، والجورب الذي تلبسه صبيحة من صنف خفيف ورخيص، ولونه كامد إلى حد ما:

ـ ما رأيك لو أشتري لك زوجين من هذه الجوارب الناعمة؟

المهم أنني اشتريت زوجين من هذه الجوارب الناعمة الغالية الثمن كلون اللحم... في البداية أبت أن أشتري لها ولكنك لو رأيتها بعد الشراء، فقد بدأت تشكرني وتدعو لي في كل لحظة، المهم لقد فرحت كثيراً لفرحها.

مرَّ شهران والجوارب في الخزانة لا تلبسها، وكأنني اشتريت لها جملاً وحصاناً دفعة واحدة، ولم أستطع أن أقول لها البسي الجوارب التي اشتريتها لك، وكنت أقول في نفسي: ربما لم تعتد لبس هذه الجوارب. وفي أحد الأيام قلت لها:

ـ لماذا لا تستعملين جواربك الجديدة يا صبيحة؟

قالت:

ـ سألبسها... سألبسها...

ولكنها لم تكمل حديثها.

وعندما أعدت الطلب منها تكلمت قال شو؟! قالت أنها تملك زوجين من الأحذية أحدهما مخصص للزيارات، وكلاهما لا يساويان شيئاً، فهي لا تلبس الجوارب لأنها لا تناسب هذه الأحذية القديمة، والجوارب لا تليق بهذه الأحذية...

ـ ولماذا لا تقولين ذلك يا صبيحتي..؟!

وخرجت إلى السوق واشتريت لها حذاء مناسباً لجواربها.

ومع أنها حاولت إعادة الحذاء وشكرتني كثيراً، فقد أخذتها في اليوم نفسه إلى أضخم محل لبيع الأحذية النسائية، واشتريت لها زوجين من الأحذية الغالية الثمن، ولكنها لم تستعمل الحذاء والجورب إلا في المناسبات اليتيمة أو الزيارات القليلة جداً لأحد الأصدقاء. وبعد ذلك عدلت عن لبسهما، وعندما سألتها عن السبب قالت خجلة:

ـ لأن ألبستي لا تلائم جواربي الجديدة وأحذيتي...

هاها... فهمنا...

ـ بكل تأكيد أنت محقة يا صبيحتي.

ذهبت في نفس اليوم واشتريت لها طقماً جاهزاً وقطعة من القماش لتخيطها فستاناً جميلاً عند الخياطة.

أضحت صبيحة جميلة ورائعة.. ألبسة جديدة، وأحذية جديدة، وجوارب جديدة، ولكنها لم تلبس هذه الأمتعة أبداً، وقالت السبب:

ـ إن لكل شيء ملاءمته يا روحي... إن البلوزة قديمة...!

صحيح... واشترينا لصبيحة عدداً من البلوزات، في هذه المرة قالت:

ـ يجب أن يكون لهذه الألبسة إشارباً جديداً...

ـ ليكن ما تطلبين يا صبيحتي.

وعندما قمت بشراء عدد من الإشاربات قلت في نفسي «كل شيء تمام»، وإذا بصبيحة عابسة وغاضبة!

ـ ماذا هناك يا صبيحتي!

ـ والله أخجل أن أقول يا روحي... لقد اشتريت لي أشياء دون أن أطلب منك ذلك، ولكن ماذا سأقول لك؟ كما يقال: مظهره الخارجي يحرقك ومظهره الداخلي يحرقني؛ إن ألبستي الداخلية لا تلائم شكل لباسي الخارجي.

ـ هل أنت منزعجة من أجل هذا السبب يا صبيحتي...؟ أوه... ليلعن الله الشيطان، ولماذا لا تقولين لي ذلك يا روحي؟

لماذا اخترت صبيحة بالذات وتزوجتها من بين كل النساء والفتيات؟ كي ترى عندي وتجد عندي كل شيء، ولا تكون عيناها في الخارج.

في ذلك اليوم وبعد انتهاء الدوام ذهبت أنا وصبيحتي إلى المخازن... ربما لديك فكرة عن الألبسة الداخلية، أولاً... ولكن لا تقل لنفسك هذه الألبسة داخلية ليس إلا. تقولون فيها الصباحية وفيها المسائية والكيلوت والشلحة و... و... والسوتيان... الله... الله... ولك عيني في بداية الأمر

ما كانت صبيحتي تلبس السوتيان، ولكن بعد أن لبست هذه الثياب الجديدة فصدرها لا يبقى في مكانه... إنها محقّة كل الحق.

طبعاً ولا ننتهي من الشراء عندما نشتري هذه الأغراض، لأن ما نشتريه يصبح قديماً مع مرور الزمن... هيا لنشتر الجديد ثانية، وهل ينتهي الأمر بشراء الجديد؟! لا أبداً... لأن الموديل يكون قد ولّى فيجب شراء موديل جديد... نعم لماذا اخترت صبيحة زوجة لي من بين كل الفتيات والنساء؟؟ كي ترى كل شيء عندي، وطبعاً سأشتري لها كل شيء.

في إحدى الأمسيات قالت صبيحة:

ـ أنا لا أطلب منك شيئاً يا روحي، ألبس هذه الثياب لأنك تطلب مني ارتداءها، ولكن شعري لا يتناسب مع هذه الألبسة والأناقة...

عندما قالت ذلك صدمتني الحيرة والعجب... ولك عيني بالتأكيد لن نشتري لها شعراً مستعاراً...

ـ طيب وماذا سيحصل يا صبيحة؟!

قالت:

ـ كل امرأة تذهب إلى الحلاق...

بدأت صبيحتي تذهب إلى الحلاق النسائي، والحقيقة أنها كانت تفكر بي بين حين وآخر، فتقول:

ـ أنا لا أذهب مثل باقي النساء إلى الحلاق كل يومين أو ثلاثة، أنا أذهب كل عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً.

كل شيء يجب أن يكون حسب الأصول أليس كذلك؟ كل هذه الألبسة والأناقة، يجب أن نشتري معها الحمرة والبودرة والكحلة... الخ. وهل تتذكر ما قلت في البداية؟ يجب أن ترى المرأة وتجد عندي كل شيء.

ذهبت أيام وجاءت أيام وصبيحة تفكر وتفكر وكأنها تحمل في جسدها ألف علّة...

- مالك يا صبيحة...؟ هل تشكين من شيء؟

- أنت تعرف يا روحي أنني لم أطلب منك شيء أبداً... وكل هذه الألبسة التي ألبسها الآن أنت اشتريتها لي قسراً...

كلامها صحيح، نعم أنا الذي اشتريت لها كل شيء دون أن تطلب مني ذلك.

- أدامك الله... لقد اشتريت لي كل شيء.

- طيب، وما الذي ينقصك يا صبيحتي؟

- الحمد لله، لا ينقصني شيء أبداً، ولكن انظر إلى لباسي وأناقتي، وانظر إلى أمتعة وأثاث بيتنا البالي... إن الحياة في هذا المنزل لا تتناسب والألبسة، فماذ يقول الناس: جميلة تلبس على آخر طرز، ولكن إياك أن تقترب من منزلها الذي لا أثاث فيه...

قل بربك... أليست محقّة؟ هيا لنشرب يا سيدي... لسعادتك...

إن تحديث أثاث المنزل ليس بالأمر السهل أبداً، ولكن ماذا ستفعل وصبيحة يجب أن ترى كل ما يخطر في بالها عندي؟! في البداية غيرنا طقم الكنابايات، ومع هذا التغيير كان يجب أن نشتري ستائر مناسبة للطقم الجديد، فظهر أن الستائر والكنابايات غير ملائمة لطاولة الطعام، فاشتريت بشكل إجباري طقماً جديداً للمائدة ملائماً للستائر والكنابايات... ولم ينته الأمر بتغيير طقم مائدة الطعام... المهم أننا بدلنا جميع أثاث المنزل.

- والله يا روحي ما زال المنزل بحاجة إلى أشياء كثيرة أخرى...

- وما هي؟!

ـ المنزل بحاجة إلى التلفزيون... والله أنا لا أرغبه عندنا، ولكن من المناسب والملائم للتجديد أن يكون هناك تلفزيون.

صبيحة التي لم تكن تملك في بيت أبيها مذياعاً، تطالبني الآن بجهاز تلفزيون ليتلاءم مع شكل منزلنا الجديد!! وهي محقة في ذلك فالمرأة يجب أن ترى كل شيء في بيت زوجها؛ فاشتريت لها تلفازاً، ولم يمض وقت طويل وإذ صبيحتي حزينة ثانية!!

ـ ماذا بك يا صبيحتي؟ ماذا هناك؟

يا سيدي إن المرأة محقّة، تقول كل شيء على ما يرام ومناسب تماماً لكن المنزل يقع في منطقة بعيدة وهو صغير وقديم لا يتناسب مع أناقتها وشياكتها وأثاث منزلها... بالعكس هي لا تطلب شيئاً غير الملاءمة فالأثاث الجديد يناسبه بيت جديد في مكان جديد...!

اشترينا بيتاً جديداً في أحد الأحياء الجديدة وفي بناية من الطراز الجديث والغالية الثمن، ولكن هذا البيت لا يناسب الأثاث الذي كان موجوداً في بيتنا القديم، فقد بعنا الأثاث القديم الذي كنا اشتريناه قبل مدّة واشترينا أثاثاً جديداً يناسب البيت الجديد، ولكن مع الأسف فإن الأثاث الذي اشتريناه لم يلائم المنزل بتاتاً.

في هذه الفترة كانت مصاريفنا قد زادت، ومع كل زيادة تزداد حياتنا الاقتصادية سوءاً... والشيء الذي كان يخلّصنا من هذا الضيق المادي هو ترفيعي، حيث كان راتبي يزداد تباعاً مع كل ترفيعة أحصل عليها. لقد اشترينا بالمال الذي كنت ادخرته سابقاً منزلاً جديداً آخر يلائم الأثاث الذي اشتريناه، وبما أنني أريد أن ترى عندي كل شيء، فقد سجلت المنزل باسم صبيحة...

مرة أخرى وصبيحة عابسة الوجه، ليس كعادتها.

ـ ماذا بك يا صبيحتي؟

آمان يا أفندم... كل هذه الشياكة والرشاقة والأناقة والأثاث والمنزل وأحمر الشفاه والتبرج هل تناسب اسم صبيحة؟! صبيحة تريد أن تغير اسمها! صبيحتي أصبحت «صابيش» صابيش تحت وصابيش فوق!

ـ صابيش، ما هذا الحزن الذي فيك يا روحي؟

طبعاً لا تريد صابيش شيئاً على الإطلاق، ولكن وجودنا في هذه البناية الضخمة والتي فيها ستة عشر طابقاً وكل واحد من القاطنين فيها يملك سيارة خاصة، وقالت أن كل هذه الأشياء التي اشتريناها من ثياب وأثاث ومنزل لا تساوي شيئاً وتبقى ناقصة إذا لم نقم بشراء سيارة خاصة بنا...!

بالنسبة لطلبها فهي محقّة كل الحق، ولكن لم أستطع أن أتحمل:

ـ ولك صابيش، هذا ليس ذنبك بل ذنبي!

وصرخت فيها بقوة وأضفت:

ـ ياليتني لم أشتر لك ذلك الجورب الناعم... ولك ماذا يضيرك لو بقيت بذلك الجورب السميك الرخيص؟ لما كنت تعرفين وجود هذه الدنيا.

كل هذا الكلام لم يؤثر فيها أبداً لأنني وقعت بالفخ... لقد اشتريت ذلك الجورب الناعم بلون اللحم والجورب بحاجة إلى حذاء، والحذاء بحاجة إلى فستان يلائم الحذاء، والفستان بحاجة إلى مانتو يلائمه... حتى وصلنا إلى السيارة الخاصة...! هيا لنتابع الشرب يا سيدي... لصحتك... وأنتم أيضاً... إيه... ولماذا اخترت صبيحة هذه من بين كل النساء والفتيات، عفواً باسمها الجديد صابيش؟! اخترتها لترى كل شيء عندي. والآن سنشتري السيارة، كنت قد وضعت مبلغاً في زاوية البيت واستدنت مبلغاً إضافياً، فاشتريت السيارة. وهل الأمر ينتهي بشراء السيارة...؟ أبداً فصابيش بحاجة إلى قيافة جديدة تناسب السيارة الخاصة، بحاجة إلى كفوف جلدية وقيافة سبور.

كنت أشتري لها كل شيء كي ترى وتجد كل شيء عندي، ولكن الديون على وشك أن تطبق على عنقي.

صابيش عابسة، وكل شيء يقع من وجهها يتحطم ويتجزأ إلى ألف قطعة، مهما اشتريت لها من أمتعة وأشياء... فهي غير سعيدة. أقول لها:

ـ ما بك يا صابيش؟

تقول:

ـ أريد الملاءمة والمناسبة في كل الأشياء.

طيب وما هي الملاءمة يا ترى؟ إن كنت رجلاً، افهم!!

الشيء الوحيد الذي لم تفعله صابيش حتى الآن هو الشرب، ولكن الملاءمة ووجودها في هذه البيئة جعلتها تشرب وتشرب... الويسكي.. العرق.. كونياك... وتدخن السجائر بنهمٍ، وخاصة السجائر الأمريكية الفاخرة المفلترة! تقول:

ـ إنني أشرب لا رغبة في الشرب ولكن لوجود الملاءمة فيه.

وبعد فترة بدأت بلعب «الكونكان» و«البزيك» وألعاب قمارية أخرى لا أعرف عنها شيئاً.

صابيش لاذنب لها على الإطلاق، الجحشنة فيَّ لأنني اشتريت لها غصباً عنها جورباً حريرياً ناعماً غالياً.

إنني راض عن كل هذه التصرفات لتكون سعيدة ولترى عندي كل شيء...

ـ لماذا أنت حزينة يا صابيشتي؟

ـ لأن لكل شيء ملائم ومناسب.

هيا يا بني، هيا لنشرب... لنجاحك... فيها الصحة والعافية.

وبدأ الداخلون والخارجون يكثرون إلى منزلنا... صابيش تقيم الاحتفالات... صابيش تنظم حفلات شاي... ولكنها غير سعيدة...

ـ ما علتك يا صابيشتي؟

ـ يجب أن يكون لكل شيء ملاءمته وتناسبه، أليس كذلك؟

أفهم ماذا تريد أن تقول، ولكن أتظاهر بأنني لا أفهمها، لأن كل شيء في حياة صابيش ملائم ومتناسب مع بعضه، منزلها، أغراضها، لباسها، تبرجها، أصدقاؤها، بيئتها، حياتها، سيارتها... ولكن شيئاً واحداً لم يعد يلائمها ولايناسبها، وهو أنا...! كنت قد أصبحت في حالة صحية ونفسية وجسدية سيئة همي الأول تأمين المال اللازم للحياة التي تعيشها... أصبحتُ غير مناسب وغير ملائم للحي الذي كان فيه منزلنا، لم أكن أناسب المنزل، ولا أناسب الأغراض ولا السيارة ولا الضيوف ولا الجيران، وأهم من كل هذا لم أعد أناسب التي كنت أعرفها سابقاً وهي صبيحة، بعد أن غيرت ذلك الجورب الخشن الرخيص، بدأت هي نفسها تتغير وتغير من الأشياء والأغراض والمنازل والجيران، حان الوقت الآن لتغيرني!

ولك أخي انظر إلى هذا الأمر، كنت أقول لترى عندي كل شيء، لكن ماذا حصل لي؟! سأحاول جاهداً أن أظهر أنني لم أفهم شيئاً، ولكن ما الجدوى؟ لقد فتحت صابيش دعوى الطلاق مني «وبما أن الجمال لايكون إجبارياً» تطلقنا، ولكن الأمر لم ينته بالطلاق... المنزل باسمها، والأغراض والسيارة، وفوق ذلك كله اشتهرت بهذا الاسم «لترى عندي السيد عاصم».

الأمر هكذا يا بني، جئت إلى هذه البلدة بناء على طلبي، ولك أخي كنت أردد دائماً «لترى عندي كل شيء» ولكن صابيشتي رأت كل الأشياء عند الآخرين، كسَّر الله يدي ولم أشتر لها ذلك الجورب... قل الآن للفتاة التي ستتزوجها: ما نوع الجورب الذي تودين لبسه؟؟

كنت قد رأيت الفتاة ثلاث مرات فقط علناً أمام الناس والآخرين، ولم أرها بمفردي، عندما سألني «لترى عندي السيد عاصم» هذا السؤال ذكرني بها عندما كانت جالسة أمامي لابسة جورباً من أرخص الأنواع، وردي اللون، فأجبت السيد عاصم:

ـ لم أعد أتذكر.

قال «لترى عندي السيد عاصم»:

ـ هذه وصية مني، وهي وصية أب يا بني... إياك ثم إياك أن تقول في نفسك «لترى هذه الفتاة عندي كل شيء» وتشتري لها جورباً ناعماً غالي الثمن، لأن كل شيء يبدأ بذلك الجورب... هيا لنشرب يا سيدي لسعادتكم...! وهكذا كما قلت، عندما كنت أكرر لترى عندي... لترى عندي... وإذا بالمرأة رأت كل شيء عند الآخرين.

كان السيد عاصم يقص هذه الحكاية وهو يضحك ويبتسم، إنه ليس كالآخرين الذين يعيدون آلام الماضي إلى نفوسهم.

○ ○ ○

١٧

افهم بقى ولك

كان ثمة «أسطة» يسمى شوقي، عندما تُذكر أمامكم كلمة أسطة، ما هي المواصفات والتقديرات التي تخطر على بالكم؟ جميع المواصفات غير العادية تجمعت في المعلم الأسطة، قلبه أبيض، يحب الخير، محبوب من أصدقائه، يسرع إلى مساعدة الآخرين، وفوق ذلك كله معلم بارع في عمله بكل معنى الكلمة، يفهم بلغة كل ماكينة ومحرك، يعرف بالخراطة والتسوية والكهرباء والقوالب والحدادة والموديلات... إنه يفهم جميع هذه الأعمال جيداً، وكانوا يقولون: كي تفهم الأسطة شوقي على حقيقته فأحضر ماكينة وشغِّلها بعيداً عنه، ودعه يراقبها عن كثب، فإنه يصنع مثلها تماماً، كان ماهراً في إصلاح كل شيء يُقدَّم إليه، من المذياع إلى التلفاز، إلى المكنسة الكهربائية، إلى محرك السيارة، حتى مرجل السفينة. ذات يوم تعطل جهاز دقيق في أحد المشافي ولم يستطع أحد إصلاحه، أما الأسطة شوقي فقد استطاع تصليحه على أكمل وجه.

وفي أحد الأيام أيضاً دخل إلى محله رجل ضعيف الجسم، أصلع الرأس، رث المنظر، وعمره مساو إلى عمر الأسطة شوقي، وعرف نفسه قائلاً أنه معلم بالخراطة و عاطل عن العمل... وقد سمع عن الأسطة شوقي وشهرته الشيء الكثير، وخاصة حبه للخير ومساعدة الآخرين، وأنه جاء إليه ليعمل عنده.

أجابه الأسطة شوقي الذي لا يرضى أن يكون إنسان مثله عاطلاً عن العمل:

ـ على الرحب والسعة... نحن نعمل هنا ثلاثة أشخاص، وبالتأكيد نجد لك مكاناً في هذه الورشة وخاصة أنت معلم خراطة، تفضل ادخل والبس هذه الثياب وابدأ بالعمل فوراً.

كان اسم القادم الجديد: أحمد، و الأسطة شوقي كان يناديه بالأسطة أحمد، أما حياة الأسطة شوقي فهو إنسان محترم وذو تربية حسنة منذ ولادته، كان رجلاً لا يكسر خاطر أحد أبداً.

قال الأسطة أحمد:

ـ أدامك الله يا أسطة شوقي.

ثم تناول الثياب المعلقة على قطعة حديد في الجدار ودخل إلى زاوية الورشة لارتدائها فوق ثيابه، وأثناء ذهابه سُمع صوتٌ قوي صادر... إنه صوت وقوع بعض الأشياء على الأرض.

قال الأسطة شوقي:

ـ ما الذي حصل يا أسطة أحمد؟

قال الأسطة أحمد:

ـ لم أستطع أن أفهم ما الذي حصل يا معلمي، لقد سقطت علبة الزيت على الأرض، وأخرجت صوتاً قوياً في سقوطها.

كانت علبة الزيت الكبيرة قد أوقعت مجموعة من الخردة موضوعة فوقها، لم يرغب الأسطة شوقي أن يكسر بخاطر الرجل فقال له:

ـ لا تهتم بالأمر، لا أهمية له على الإطلاق، سيحضر العامل ويرفعها عن الأرض.

قال الأسطة أحمد:

ـ لم أفعل ذلك قصداً.

وأجابه الأسطة شوقي:

ـ بالتأكيد لم تفعل ذلك قصداً.

بعد مدة قال الأسطة:

ـ افتح المحول.

مدَّ الأسطة أحمد يده قبل الصانع ليفتح المحول، وإذا بصوت آخر يزمجر في المكان «شانغيرت شانغورت» عندها قال الأسطة شوقي:

ـ ما الذي حصل ثانية يا أخي...؟

قال الأسطة أحمد:

ـ والله لا أدري كيف حصل ذلك، عندما رفعت يدي لتشغيل المحرك وقعت علبة المسامير الكبيرة عن الرف إلى الأرض.

قال الأسطة شوقي:

ـ لا تتعب نفسك يا أسطة أحمد، اترك الأولاد يجمعونها عن الأرض.

قال الأسطة أحمد:

ـ والله لم أفعل ذلك قصداً!

قال الأسطة شوقي:

ـ بكل تأكيد يا روحي، هل يفعل أحد ما شيئاً عن قصد؟ لا تفكر بهذا الأمر.

بينما كان الأسطة أحمد يساعد الأطفال في جمع الأغراض عن الأرض، وإذا بمنصة العمل تنقلب رأساً على عقب محدثة صوتاً قوياً.

قال الأسطة شوقي والذي كان على وشك أن يغضب رويداً رويداً:

ـ ما الذي حصل ولك أخي؟

قال الأسطة أحمد:

ـ والله لم أفهم كيف حصل هذا، ولكن المنصة الكبيرة قد انقلبت وهي تقول «لانغيرت».

قال الأسطة شوقي:

ـ الله يديم الصحة يا أسطة أحمد، لا تأخذ على بالك.

قال الأسطة شوقي ذلك حتى لا يترك أثراً في نفس الأسطة أحمد، إلا أن الثاني قال:

ـ والله وبالله لم أفعلها قصداً.

ـ بكل تأيد يا روحي.

لم يترك الأسطة أحمد في الورشة شيئاً إلا وقلبه، قلب السلَّم مرتين، ومنصة العمل مرة، وعلب الدهان المتراكمة فوق بعضها، وكسر كاسات الشاي، وقطعة من المحرك... كانت أصوات الأشياء المتساقطة تصدر عن كل مكان تصل إليه يد أحمد الأسطة، وتتكرر الانهيارات والضجيج من مكان وجوده.

قال من يعرفه عندما سمعوا أنه يعمل لدى الأسطة شوقي:

ـ ها.. ذاك الأسطة أحمد الذي يهد الجبل بقدمه؟

كان الأسطة أحمد رجلاً شاذاً... إذا حمل شيئاً ما أسقطه من يده، وإذا انحنى على الأرض ليلتقط شيئاً سقط من يده، كان يضرب برجله شيئاً آخر فينقلب أو ينكسر... وعندما يسحب رجله كان رأسه يرتطم في أي مكان، وإذا لم يجد شيئاً ما حوله قابلاً للكسر والقلب كان يلف رجليه على بعضهما ويقع على الأرض.

وخلال الأيام التي قضاها الأسطة أحمد في ورشة الأسطة شوقي كان قد أسقط أشياء كثيرة وألقاها في سلة المهملات، والأسطة شوقي يقول له بعد كل هذا حتى لا يزعجه:

ـ الله يديم الصحة يا أسطة أحمد، لينكسر العمل ولا تنكسر الخواطر، لتأت المصائب على المال ولا تأتي على الأرواح.

لم يبق في الورشة شيء إلا تحطم أو انكسر أو انقلب أو ألقي في المهملات، ولكن الأسطة أحمد كان ناجحاً جداً في أعمال الهدر والضياع، فإذا صادف شيئاً ما يكسره أو يقلبه أو يعطله، وإذا لم يجد ما يوقعه كان يلف يديه ورجليه ببعضهما ويسقط على الأرض أو يصدم رأسه بشيء أو يرتطم جسمه بأشياء أخرى محدثاً ضجة كبيرة أينما ذهب وأينما وقف، لم يصعد مرة على السلم إلا وسقط عنه.

بدأ الأسطة شوقي بالغضب رويداً رويداً لأن الضجة وأصوات الوقوع والتكسير والسقوط بدأت تشد من أعصابه إلى حد بعيد، وفي كل مرة بعد هذا الإهمال من قبل الأسطة أحمد كان يقول:

ـ ولك شو صار أيضاً؟

والأسطة أحمد يكرر نفس الكلمات المعروفة من قبله:

ـ لا أدري كيف حصل ذلك يا معلمي.

وكان أكثر ما يغضب الأسطة شوقي قول أحمد «والله ما عملت ذلك عن قصد».

بدأ الأسطة شوقي يشد على أسنانه ويهز رأسه يميناً وشمالاً عند كل سقوط شيء عن الرف أو دحرجته على المنضدة أو الأرض، وكانت أصوات صرصرة أسنان الأسطة شوقي تصدر تباعاً إلا أن طيبة قلبه الزائدة منعته من طرد الأسطة أحمد من العمل في الورشة وعدم توبيخه بكلمات نابية رغم الضرر الذي سببه له، وظل ينتظر حتى يترك الأسطة أحمد العمل من تلقاء نفسه بعد إدراكه ضخامة الأضرار التي سببها له.

مر شهر كامل على استلام الأسطة أحمد العمل في ورشة الأسطة شوقي، وكان جهاز كبير غالي الثمن يعود لغرفة العمليات لأحد

المستشفيات الكبيرة قد تعطل، وكان الأسطة شوقي الوحيد الذي يستطيع إصلاحه... أحضروا ذلك الجهاز الذي يعمل بالكهرباء إلى الورشة فقام الأسطة شوقي بمعاينة طويلة للجهاز كطبيب أخصائي يعاين مريضاً، وأدرك مكان عطل الجهاز فوراً... نعم يستطيع إصلاحه... فرح الذين أحضروا الجهاز فرحاً كبيراً، وكانوا على استعداد لدفع كل ما يطلبه الأسطة شوقي من مال لقاء إصلاحه، وفرح الأسطة شوقي أيضاً لأنه بهذا المبلغ الذي سيأخذه منهم سيعوض عن أضرار الكسر والقلب والهدر من عدته التي سببها له الأسطة أحمد. فقال لهم لأنه كان لا يثق بالأسطة أحمد:

ـ لا أستطيع إصلاحه.

فبدؤوا بالرجاء:

ـ بالله عليك يا أسطة شوقي خلصنا من هذا المأزق.

هذا جميل ولكن الأسطة أحمد القليل الدراية إما أن يوقع هذا الجهاز أو يكسره، ولهذا السبب قال للأسطة أحمد بصوت ينم عن التمني والرجاء الحار:

ـ بالله عليك يا أسطة أحمد... أبوس عيونك يا أسطة أحمد إياك أن تقترب من هذا الجهاز، ولا تلمس أطرافه، ولا تمر بجانبه بل بعيداً عنه، وإذا كسرنا قطعة منه لا سمح الله نظل العمر كله ولا نستطيع أن نسدِّد ثمنه.

قال الأسطة أحمد براحة:

ـ تمام يا معلمي... لا تهتم بهذا الأمر، أعدك بأن لا أقترب منه.

قبل الأسطة شوقي بتصليح الجهاز بعد أن أخذ وعداً من الأسطة أحمد بعدم الاقتراب منه، وكان عليه أن يقوم بتصليحه خلال أسبوعين من الزمن، فبدؤوا بالعمل مباشرة.

لم يمض على بدء العمل في الجهاز أقل من عشر دقائق وإذا «بشانغيرت وشانغورت» يهز المكان. كان القسم الأعلى من الجهاز قد وقع على الأرض متدحرجاً.

قال الأسطة شوقي وهو يمضغ شنبيه بين أسنانه من الغضب:

ـ شو صار أيضاً ولك أسطة أحمد؟؟

قال الأسطة أحمد ببروده الاعتيادي:

ـ قلت لي لا تقترب من الجهاز، كنت أمر بعيداً عنه ولكن الكابل الكهربائي التف على رجلي فوقعت على الأرض وسقطت القطعة على الأرض مدوية «لانغيرت» والله لا أدري كيف حصل ذلك.

قال الأسطة شوقي وهو يرتجف من الغضب والعصبية:

ـ طيب... طيب...

قال الأسطة أحمد كما في كل مرة:

ـ والله وبالله... لم أعملها قصداً.

قال الأسطة شوقي والذي كان يمسك نفسه بصعوبة بالغة، وحتى لا ينفجر:

ـ لا، ستعملها قصداً وعلى دراية أليس كذلك؟!

وكان قد صرخ فيه بهذه الكلمات أول مرة.

لم تمر سوى دقيقة وإذا بضجة أخرى تهز المكان...!

قال الأسطة شوقي صارخاً وهو ينهش قبضتيه بين أسنانه من الغضب:

ـ ما الذي حصل أيضاً؟

قال الأسطة أحمد ببروده الاعتيادي:

ـ والله لا أدري كيف حصل ذلك يا معلمي... خرج صوت «لانغيرت» وتدحرج على الأرض.

كان الأسطة شوقي وهو على وشك أن ينطح الجدار برأسه ويترجاه:

ـ اجلس على الأرض يا أسطة أحمد، ولا تتحرك من مكانك.

كان على وشك أن يبكي، كان يعمل على الجهاز ولكن عقله وفكره مشغولان بالأصوات التي كانت ستصدر عاجلاً أم آجلاً، ربما سينقلب شيء ما محدثاً صوتاً «شانغيرت أو شاغورت»... نعم لم ينتظر طويلاً، كان قد أصدر شانغيرتاً كبيراً، تبيَّن أن زفير ضغط كبير من أعماق رئتي الأسطة شوقي وقال:

ـ ماذا حصل ثانية ولك أسطة أحمد؟

فكرر الأسطة أحمد كلمته الأسطوانية ببرودة بالغة:

ـ لا أدري كيف حصل ذلك يا معلمي، وقعت على الأرض وقالت: «شانغيرت».

نظر الأسطة شوقي مطولاً في وجه الأسطة أحمد ثم قال وهو يضرب رأسه بكلي قبضتيه صارخاً في وجهه:

ـ افهم بقى ولا... افهم بقى ولا...

قال ذلك وهوى على الأرض دون حراك.

○ ○ ○

١٨

مصيرٌ إلا أن يكون ظلاً لبيت غني

قال العم مصطفى عندما سمع بخبر ذهاب ابن جاره بلال إلى ألمانية:

ـ أرسلوا بطلبه، وليترك كل شيء ويأتي إلي.

كان العم مصطفى قد ناهز الثمانين من عمره وهو من أكبر المعمرين في القرية، وكان مشهوراً في تلك المنطقة بلقبه مصطفى المجنون «دَلي مصطفى»...

جاء بلال إليه مسرعا:

ـ لقد بعثت خلفي يا عم مصطفى؟

ـ نعم لقد أرسلت خلفك، ستذهب إلى ألمانيا أليس كذلك؟

ـ هذا ما حصل يا عم مصطفى...

ـ خير إنشاء الله... من ناحية الخير هو خير... ستفتح عينيك وأذنيك جيداً في ديار الغربة، قل لي لماذا؟ لأن هناك أشخاصاً لهم أم واحدة ومائة وخمسون أباً، وهم كثر! إنهم لا يشبهون إنساننا، قلت في نفسي لأعطيه بعض الوصايا قبل أن يذهب إلى ألمانيا... أنت حفيد أعز إنسان لي، لقد انهزمنا أنا وجدك من العسكرية أيام «السفر برلك» وكان قد غادر هذه القرية أكثر من أربعين شابا، كنت وجدُّك بينهم... عاد ستة منا أحياء، أما الباقون فماتوا من الجوع والعطش... لقد انهزمنا من الجندية بعد ستة أعوام، ولو لم نهرب لكنا الآن في عداد الموتى، ولكن ليس لنا نصيب في الموت، بالأصل أنا قليل الحظ على الدوام لأنني بقيت حياً!! نعم... نعم... لقد هربنا أنا وجدك من العسكرية

وجئنا إلى القرية، بعد ذلك مات والدك. قل لي الآن لماذا أنت ذاهب إلى ألمانيا؟

ـ إلى العمل يا عم مصطفى.

ـ ولك ابني، بالتأكيد أنت ذاهب كي تعمل هناك ولست ذاهباً كي تفتح مصرفاً، لم يكن هذا سؤالي، سؤالي هو لماذا أنت ذاهب إلى ألمانيا للعمل؟

ـ ليس من عمل هنا يا عم مصطفى، سأذهب إلى هناك كي أدخر بعض القروش.

ـ هاه... هذا هو ما كنت أقصده، الآن افتح أذنيك جيداً واسمعني، انظر يا بني يا بلال، من السهل جداً أن يكون الإنسان غنياً في ديار الغربة، يكفي أن تجد طريقك لتسير عليه، وبما أنك ابن إنسان عزيز علي فاستمع إلى ما أسديه لك من نصائح لتصبح غنياً بسرعة، اسمع نصائحي جيداً...

ـ بالله عليك يا عم مصطفى دلني على طريق النجاح، أنا مصغ إليك كلياً.

ـ عفارم عليك... إن طريق النجاح يا بني هو أنه عندما تريد أن تتغوط ابحث عن ظل بيت غني، وإياك أن تبحث عن ظل بيت فقير مثلنا!! وإلا تظل تأكل وسخك...! قل ما بدا لك، هذا مجرب يا بني، ولأنه مجرب أعرفه.

ـ لم أفهم قصدك يا عم مصطفى...!

ـ توقف بعض الشيء... سأحاول أن أفهمك... في قريتنا شخص اسمه «السيد يلماظ»، ألا تعرفه؟

ـ لا أعرفه يا عم مصطفى!

ـ ماذا تعني ولك بلال؟ لو ذهبت بهذا الرأس إلى اليابان بدلاً من ألمانيا فلن تكون إنساناً غنياً، ألا تعرف السيد يلماظ؟! هذا مستحيل! لقد ذاعت شهرته في أنحاء العالم، هل تعرف لمن هذا الكراج في مدخل القرية؟ وهذا الفندق الكبير الموجود في ساحة التمثال في المحافظة؟

ـ عرفت...

ـ لمن؟

ـ لا أعرف.

ـ ستعرف... ستعرف... هذا الفندق أيضاً للسيد يلماظ... طيب هل عرفت السينما التي تحوي أكبر مرآة في المحافظة؟

ـ عرفت.

ـ لمن تلك السينما؟

ـ لا أعرف!

ـ ستعرف يا بني... هي أيضاً ملك للسيد يلماظ، طيب ولك ابني هل عرفت أكبر فرن في المحافظة؟

ـ عرفت.

ـ لمن ذاك الفرن؟

ـ لا أعرف!

ـ توه عليك... ستعرف أيضاً، هو الآخر ملك للسيد يلماظ... لقد فهمت، أنت لا تعرف شيئاً على الإطلاق، وهل هناك من إنسان لا يعرف السيد يلماظ؟! إنه من يملك المخازن الكبيرة، أن كل مخزن يتسع لقريتنا بكاملها، ويبقى متسع لقرية مثل قريتنا! جدُّ السيد يلماظ هذا كان من

قريتنا أيضاً...

ـ من قريتنا؟!

ـ نعم... نعم... وكان اسمه «جنلي محمد»، كان صديقاً لي ولوالدك، قال لي في أحد الأيام، وقبل الحرب العالمية الأولى:

ـ يا أخي دلي مصطفى، أنا سأذهب إلى أمريكا...

قلت له:

ـ أمريكا؟! أين هي ونحن أين ولك أخي جنلي محمد؟! ماذا ستفعل في تلك المناطق؟

قال:

ـ سأذهب إلى أمريكا وسأكون غنياً.

كما أنت ذاهب الآن إلى ألمانيا وستحاول جمع المال. في تلك الأيام إذا ما ذُكرت أمامنا أمريكا، فتذكر الجاه والغنى والذهب، مجرد أن تطأ أقدامك داخل حدودها معناها صرت غنياً... هكذا كنا نعرف أمريكا، لقد غرسوا في نفوسنا أمريكا بحيث أن ذهبها خام، ذهبها مصقول، فيها جميع أنواع الذهب والجواهر... نقود ذهبية خالصة...! يقولون إذا دخلت إلى أمريكا فإن عينيك لا تنفتحان من شدة لمعان ذهبها! ثم بعد ذلك املأ جيوبك والأكياس التي تحملها، احمل بقدر ما تستطيع حمله! وبما أن الذهب ثقيل جداً، فقليل الناموس هذا يكون نقله صعباً للغاية.

ـ هل الذهب ثقيل يا عم مصطفى؟

ـ لم أنقله في حياتي على الإطلاق، ولكن من شاهدوا الذين يحملونه يقولون أنه ثقيل، المهم... املأ الذهب وارجع، ولا ضرورة إلى البقاء

هناك، ولماذا تظل هناك؟! إذا قلت لماذا، لأن الجميع قد شبعوا من الذهب ويكرهونه... والإنسان عندما يشاهد الذهب هناك يحس بالغثيان ويتقيأ ما في أعماقه... ويقولون: ليت الغرباء يأتون حتى يحملونه ويأخذونه من هنا... ونقوم بفتح طرقاتنا وتوسيعها بعض الشيء... هكذا كانوا يصفون أمريكا آنذاك.

ـ من الذي كان يصف لكم أمريكا يا عم مصطفى؟

ـ أناس من قريتنا والقرى المجاورة ذهبوا إلى أمريكا ولم يعودوا، وعندما لا يرجعون كنا نقول.. إذاً الحياة هناك أفضل من هنا، وهناك كثير من الذهب.

ـ هل هي مثل الجنة يا عم مصطفى؟

ـ نعم... نعم يا بني، مثل الذين لا يعودون من الجنة لأن جدرانها من الذهب والماس، كما لا يتركون الذين يذهبون إلى جهنم... المهم، باءت جميع محاولاتنا بالفشل مع جنلي محمد ليقلع عن سفره لأمريكا، إلا أنه لم يسمع كلامنا، غادرنا ورحل... ولكن جنلي محمد عاد بعد فترة لا أعرف مقدارها، لقد مر وقت طويل ولا أريد أن أكذب، ربما بعد ستة شهور... قلنا له:

ـ ولك جنلي محمد أين الذهب؟!

قال:

ـ والله يا أخي دلي مصطفى لم نستطع أن نجمع الذهب ولكن جمعنا نقوداً ورقية، لقد أصبحت غنياً.

قلت له:

ـ ولك أخي هل صحيح أن جبال وسفوح وتلال أمريكا كلها ذهب؟

قال:

ـ ليس كما يقولون.

قلت:

ـ وكيف أصبحت غنياً إذاً؟

ففسر لي الأمر على الشكل التالي؛ قال أن هناك طريقين ليكون الإنسان غنياً... أول الطرق أن لا تأكل من أوساخ الآخرين، ولكن ستأكل من وسخك! هذا واحد... أما الثاني؛ إذا تضايقت وأردت أن تتغوط ستبحث عن ظل بيت غني وتتغوط هناك! فإذا ما طبقت هذين الشيئين ولاءمت بينهما معناه أنك أصبحت غنياً وبسرعة...!

كان جنلي محمد يحسب أن تلك البلاد مثل بلادنا، فكَّر وقال في نفسه: «عندما سأنزل من الباخرة سأجد أبناء البلد مجتمعين في المقاهي، أصافحهم أولاً وأطلب منهم عملاً ثانياً» وعندما نزل من السفينة... يا ويلاه... جموع غفيرة وازدحام كبير في كل مكان، لا مقهى ولا أبناء بلد مجتمعين، والطرقات مليئة بالسيارات والشاحنات والعربات والناس... أصيب جنلي محمد بدوار من شدة الازدحام فهو لا يعرف أين يسير، ولا يعرف لغة ولا لساناً ولا أثراً، فكّر... وفكّر... لا بد أن أجد المقهى الذي يجتمع فيه أبناء البلد... وسار في طريقه، إن أبناء منطقتنا ليسوا أغبياء أبداً بل هم في غاية من المكر والدهاء يا ابني بلال، وصاحبنا جنلي محمد، حتى لا يضيع في ديار الكفار هذه، فقد جمع بضع قطع من حجر الحوار الأحمر ووضعها في جيبه، سار وهو يؤشر على الجدران وأعمدة الكهرباء والهواتف خطوطاً وإشارات حمراء ليعرف طريقه حين العودة وحتى لا يضل طريقه في هذا البلد... انظر إلى هذا العقل الذي يحمله أبناء قريتنا يا ابني بلال! وكانت الزحمة تشتد والحركة تزداد كلما اقترب من

مركز المدينة في هذه الفترة... انظر إلى هذه الرذالة ولك ابني بلال... فصاحبنا جنلي محمد جاءه الوضوء الأكبر: «التغوط»...! نعم إن العكس يصيب الإنسان هكذا، فأسرع نحو كل الاتجاهات يريد أن يتغوط ولكنه لم يجد مكاناً مناسباً يقضي به حاجته، ولأجل هذا أنا أحب بلادنا كثيراً، لأنه أينما ذهبت تجد مكاناً تقضي حاجتك فيه، تجد إما مكاناً محروقاً، أو عقاراً فارغاً أو خرابة، أو حفرة أو عليقة... وأينما اتجهت تجد المكان المناسب، ولكن بلاد الكفار ليست بهذا الشكل.

وكان المسكين جنلي محمد على وشك أن يعمل تحته، لا يستطيع الوقوف ولا التحرك ولا السير... يعني الرذالة كانت تصاحبه دائماً... ثم بدأ يبحث عن مكان مناسب وإذا به يشاهد حديقة كبيرة مسورة بجدار من كل أطرافها وفي وسطها قصر كبير، وتقول فيللا أو عمارة أو سراي... شيء مثل هذا! والحديقة مليئة بالأعشاب الخضراء الجميلة، والأزهار المتنوعة؛ كانت الحديقة تشبه إلى حد ما حديقة جنة جميلة، دخل إليها وقذف بنفسه تحت شجرة كبيرة وأنزل كل ما في أعماقه من القذارة والضيق وقال: «الشكر لله ألف مرة لأن راحة المسكين مثلنا لا تكون إلا هكذا» وبينما بدأ بسحب وربط عقال بنطاله فقد سمع صوتاً وركز انتباهه نحو مصدر الصوت، وإذا برجل واقف على نافذة تلك العمارة التي تشبه «السراي» ويا ليته ظل يصرخ فقط، ولكنه وجه فوهة بندقيته نحو صاحبنا جنلي محمد وهو لا يفهم منه شيئاً على الإطلاق، وإذا ما فكر بالهرب فإن الرجل كان سيملأ ظهره بالرصاص... عندما بدأ الرجل بالصراخ والعويل والتهديد خرج الناس من السرايات والفيلات والقصور المجاورة، واجتمع المارة من الطريق أمام السراي... كانوا يتساءلون فيما بينهم بأصوات عالية وكلمات لا يفهمها، ولكن أحداً

منهم لم تكن لديه جرأة الاقتراب من جنلي محمد...

كانت السراي التي دخل إليها صاحبنا جنلي محمد تخص أغنى الناس في تلك المنطقة؛ لكل دولة ملك واحد، أما أمريكا فلها حسب ما يقولون أكثر من ألف ملك، ولأجل هذا السبب مشهورة بغناها، وصاحب تلك السراي ملك من ملوك الأمريكان، ومن أكبر وأقوى ملوكهم على الإطلاق، كان الشخص غاضباً غضباً شديداً من جنلي محمد لأنه تغوط في حديقته الجميلة الفيحاء، وقد طلب من جنلي محمد بإشارات من يده ليأكل برازه... أي والله...! ماذا سيحصل الآن؟! إذا لم يأكل الشيء الذي عمله فملك أمريكا سيرميه بالنار... وإذا أكله... وهل يؤكل هذا الشيء ولك أخي؟! إن الروح طيبة وحلوة يا ابني بلال... وعندما كان جنلي محمد يأكل ما عمله كانت الزحمة قد ازدادت كثيراً، وكان الناس يصرخون على الرجل الواقف على النافذة، وكما فهم جنلي محمد من حديثهم وتصرفاتهم أنهم كانوا يقولون له: «إن هذه الفعلة التي تقوم بها لا علاقة لها بالإنسانية أبداً» ولكن هذا الملك الأمريكي، قليل الإيمان، لم يترك جنلي محمد إلا بعد أن نظف المكان جيداً من وسخه، وعندما خرج من الحديقة اجتمع الناس حوله وقالوا له أشياء كثيرة، وجنلي محمد لا يفهم عليهم أبداً، عندها أتوا بشخص أرمني يعرف لغتنا جيداً، فقال له الأرمني:

ـ هذه الفعلة التي عملتها في حديقة هذا الملك هي جريمة تعاقبك عليها البلدية، أما الشيء الذي فعله بحقك فهو مخالف لحقوق الإنسان... إنه ذنب كبير جداً، ولهذا السبب فإن المجتمعين هنا يطلبون منك أن تفتح دعوى ضده في المحكمة، وأنهم سيعينون لك محامياً على حسابهم، وسيفتحون ضده دعوى تأمينات كبيرة، وسيقدمون لك مكاناً للنوم حتى انتهاء المحاكمة، وسيعطونك مبلغاً كبيراً من المال لتعيش!

ركز جنلي محمد نفسه في أحد الفنادق بالمال الذي أخذه من جمعية خيرية، وقامت تلك الجمعية بفتح دعوى بحق الملك الأمريكي لأنه أرغم جنلي محمد على أكل وسخه؛ وهناك مادة في لائحة حقوق الإنسان تقول فيها: «لا يحق لأحد أن يجبر أحداً آخر لأكل برازه».

أما الملك الأمريكي فحاول عدم الدفع مدعياً بأن الرجل بشرته سوداء، أي زنجي، وبما أن الزنجي لا يحسب إنساناً فإنه لن يدفع التأمينات، ولكن الملك لم يستطع أن يخلص نفسه من هذه الورطة لأنه تم إثبات أن جنلي محمد ليس بزنجي، بل لونه أسمر.

«كيف هي أمريكا هذه؟؟ إنها تحكم ملكها على دفع تعويضات»... وأعطوا لصاحبنا جنلي محمد مبلغاً كبيراً من المال لأنه أكل برازه...!

لف صاحبنا مدن أمريكا كلها... وأينما ذهب كان يبحث عن أجمل حديقة أو بناية ويتغوط بالقرب منها أو تحت أشجارها كي يربح مزيداً من المال كما في المرة الأولى، ولم يظهر ملك كالملك الأول حتى يدفع له، فقال في نفسه «يكفيني هذا المال» فوضعه في جيبه وعاد إلى القرية.

هل سمعت يا ابني بلال؟ لا تنس ما حصل لجد السيد يلماظ... عندما تذهب إلى ألمانيا وتتحشك لا تجلس ولا تتغوط أمام منزل إنسان فقير مثلنا، لأن الكافر يجبرك على أكل برازك ويتخلص من دفع التعويضات لأنه لا يملك المال، ولهذا السبب دير بالك؛ ابحث عن ظل منزل غني وتغوط قربه حتى يمضغ الرجل الحقوق الإنسانية ويجبرك على أكل برازك ويدفع تعويضات كبيرة.

فكر بلال ملياً وقال:

ـ هناك أغنياء كثيرون يا عم مصطفى، هل يعني أنهم أكلوا أوساخهم؟!

قال دلي مصطفى:

ـ بالتأكيد هكذا، ثم أني لا أتحدث عن الأغنياء في بلدنا لأنهم يأكلون براز غيرهم براحة...!!

○ ○ ○

١٩

الوطن أمُّ محمد

ما سأرويه هو حقيقة عشتها أكثر مما هي قصة أرويها لكم، لاحظت أن كل الذين أتعرف عليهم يظهر عندهم ثلاث خصال، فإذا لم يكن مجموعهم فأكثرهم، والشيء الأصح أو الأدق أنني أرغمهم على امتلاك هذه الخصال دون أن يكون لي دور أو تأثير أو إرغام على ذلك؛ إحدى هذه الخصال هي اليسارية، وبما أنني يساري ومعروف بيساريتي فألاحظ أن الذين يتعرفون علي لأول مرة يضطرون على تقديم أنفسهم إلي بأنهم يساريون، هذا ما أحسّه و أشعر به، إنني أنزعج كثيراً من هؤلاء الناس، فالإنسان يسارياً كان أم يمينياً أو بدونهما... ثم يسارياً أو يمينياً حسب الظروف والأوقات، فهذا الإنسان يجب أن يظل كما هو عليه، ولا يحق لأحد أن يبيع لي أو للآخرين اليسارية أو اليمينية بأي شكل من الأشكال، ولا جدوى من ذلك أبداً وخاصة في هذه الأعوام الأخيرة التي أفلست فيها اليسارية إلى حد كبير، فهل هناك من معنى كي يقوم أحدهم وخاصة في هذه الظروف بتقديم نفسه لي على أنه يساري ويمدح ذاته بهذه الخصلة... هذه الأمكنة والتي يجري فيها التعارف والاجتماعات تشبه احتفالاً عند الدولة في ذكرى تأسيس إحدى الشركات الضخمة أو في إقامة الحفلات الموسيقية.

لقد سمعت وتقابلت مع أناس كثيرين في مثل هذه الاحتفالات، فقد حدثني أحد المعارف وبيده زجاجة الشمبانيا:

ـ والله يا سيدي أنا يساري إلى حد ما، ولكن ليس مثلك، أنا يساري بنسبة ستين بالمائة.

إن يساريتك يا سيدي تبقى عند يساريتي نقطة في بحر، ولكن هناك خاصية في يساريتي وهي أنني لا أظهرها لأحد في أي زمان ومكان ولا يعرف يساريتي سوى الله وأنا، وكما قالوا: «العبادة سر والذنب سر» حتى أن هناك أناساً كثيرين يعرفونني يمينياً متطرفاً... إن اليسارية عند أحدهم تكون عشرين بالمائة، وترتفع هذه النسبة عند البعض إلى ثمانين بالمائة، إنها كمستوى العملة الصعبة في البورصة، وترتفع هذه النسبة أحياناً إلى مائة بالمائة عندما يكون الروبل بالنسبة للدولار روبلين ونصف... لا تستغرب أبداً إذا قلت أن سيدات المجتمع الأرستقراطي يساريات بنسبة مائة بالمائة...! ولكن عندما انهار الروبل أمام الدولار وأصبح كل مائة أو مائتين روبل يساوي دولاراً واحداً تقلصت هذه النسبة كثيراً...

حتى أن البعض اقتربوا مني في مثل تلك الاجتماعات التي ذكرتها، ووضعوا أيديهم على كتفي بلطف، وهمسوا في أذني:

ـ ليبق الأمر الذي سأقوله لك سراً بيننا... أنا يساري قح، ولكن كما تعلم الوقت غير ملائم لأظهر ذلك.

مع العلم أنني لم أسأل أحداً في يوم من الأيام إذا كان يسارياً أو يمينياً، وما الذي يهمني في هذا المجال؟! وخاصة أن أسأله: كم هي نسبة يساريتك؟ الغباء أن تسأل أحدهم مثل هذا السؤال لأنني أعرف أن تلك النسب تزداد وتتقلص حسب عمر الإنسان ومركزه الاجتماعي، وتقلبات السياسة العالمية وأنظمتها، حسب الزمان والمكان، وأسباب أخرى كثيرة، فمثلاً:

إذا كان شخص ما يسارياً مائة بالمائة وهو في العشرين من عمره تتقلص هذه النسبة عندما يصبح عمره ثلاثين، حيث تهبط النسبة إلى خمسين بالمائة، وفي الأربعين تصبح النسبة ثلاثين بالمائة، وفي الخامسة والأربعين تبقى اليسارية عنده ثلاثة ونصف بالمائة، وعندما يصبح عمره خمسين عاماً يتحول إلى يميني مائة بالمائة...!

وفي الوقت الذي يمتعض فيه الإنسان عندما يأكل كعكة ثم ينقلب إلى حاج يرتدي الثياب الخضراء عندما يكسب المال... بالنسبة للبعض هذا تحول ورجعية، والبعض يقول أن الإنسان يزداد خوفاً كلما تقدم في السن، والبعض يقول كلما تقدم الإنسان في السن كبر عقله وازداد حكمة ورصانة...

آه... ماذا كان سيحصل للبشر إذا ولدوا في السبعين وماتوا في السبعة؟! نعم... إنه هكذا، فكل من أراد التعرف علي للمرة الأولى يحاول أن يدخل علي باليسارية ويعرف نفسه أنه يساري، وربما لعدة أسباب: لأعطيه قيمة أكبر، وربما ليكبر في نظري أكثر...!

أما الصفة الثانية هي إظهار أنفسهم أنهم محبون للخير وللمساعدة؛ فمن المعروف أنني قمت ببناء «وقف» صغير، ولهذا فهم يحاولون ألا يبقوا دوني في حب الخير والمساعدة، وفي أغلب الأحيان أسمع نفس الكلمات تقريباً من أشخاص عندما يتعرفون علي لأول مرة:

ـ أنا الآخر أحب فعل الخير كثيراً.

إنه يريد أن يقول: لست الوحيد من يحب الخير في هذه الدنيا، أنا أيضاً أفعل الخير أكثر منك.

إن الذين يحبون الخير، ومساعدة الآخرين من أمثال هؤلاء، يزعجونني أكثر من أولئك الذين يملكون نسبة مئوية من اليسارية... ليس لدي ما أقوله في هذا المجال، ولا سؤال أوجهه إلى أمثالهم... لا يحق لي مثلاً أن أسألهم كم عدد الأولاد الفقراء الذين يساعدونهم في مجال الدراسة؟ أو ما هو عدد أولاد حراس الأبواب الذين يدفعون لهم المصاريف اليومية والشهرية في المنزل أو المدرسة؟

يتحدثون عن ذلك من تلقاء أنفسهم ومن ثم يقولون أن الكثيرين الذين جرت مساعدتهم لا يأبهون لهم ولا يشكرونهم، ولا يقبلون أيديهم في

الأعياد... ربما ما من أحد من الذين تعرفت عليهم يحب عمل الخير والمساعدة...!

قبل أيام زارني أحد جيران «الوقف» الذي أنشأته، بدأ يتحدث عن الأعمال الخيرية التي قام بها، وأنه يملك مزرعة حيوانات مساحتها مائتين من الدونمات. وبعد أن تحدث مطولاً عن نفسه بدأ يصف والده وحبه لفعل الخير، وتابع يقول:

ـ إن المساعدات التي أقدمها للفقراء والمحتاجين لا تساوي شيئاً من مساعدة أبي.

والواضح من خلال حديثه أنه ينتظر مني سؤالاً: ما الذي قام به والدك في هذا المجال؟ ولكن لم أعط حديثه اعتباراً، فانتظر برهة على أحر من الجمر، وهو يعض إصبع يده اليسرى، ثم قال بعد انتظار:

ـ كما تعرفون، إن المساعدة والمعونة التي يقدمها البعض تبقى سراً، ولا يعلن عنها، فالبوح بها ذنب كبير، ووالدي لا يخبر أحداً، لا في داخل المنزل ولا خارجه، عن المعونات والمساعدات التي يقدمها للفقراء و المحتاجين.

هذه العائلة مكونة من أب طاعن في السن وأربعة أولاد... وعندما أصبح الأب عاجزاً قام بتقسيم ثروته وأمواله على أولاده قبل موته، وكان من نصيب صاحبنا هذا المزرعة التي تحدثنا عنها. ولكنهم كيف كانوا يعلمون بالمساعدات التي يقدمها والدهم، والتي لا يعلنها ولا يقولها لأحد؟! في هذا الوقت أيضاً كان ينتظر مني سؤالاً حول الموضوع وهو يعض إصبع يده اليمنى، وعندما شعر أنني لن أسأله قال:

ـ حتماً ستسألني من أين لديكم المعلومات عن مساعدة والدكم للفقراء، والتي لم يعلنها شخصياً لكم أو لغيركم؟؟

أصلاً لم أحاول سؤاله عن أي شيء...

ـ منذ خمس سنوات ووالدي لا يعمل لأنه قد بلغ من العمر عتيا

ووزع كل ثروته علينا، وبالمقابل ضمنا له راتباً شهرياً مدى الحياة، كما قدَّمنا له شهرياً مبالغ إضافية لا يستهان بها، ومهما رفعنا من المبلغ فيأتي نهاية الشهر ولا نجد معه فلساً واحداً...! لا يشرب العرق، ولا يدخن، ولا يلعب القمار، أين يذهب والدنا بكل هذه الأموال؟! عندها فهمنا أن والدنا كان يقوم بمساعدة الآخرين سراً، ودون أن يخبرنا...

وعندما رسمت ابتسامة عابرة على وجهي تكلفاً، أردف قائلاً:

ـ لم نعرف عن هذه الحادثة فقط، وكما تعرفون أن ابن آدم قد رضع حليباً نيئاً، فهو ناكر للجميل ولا يقدره، لا يفهم بطيبة القلب ولا بالمساعدة... مهما تفانيت في خدمته، وما قدمته له من معروف، فعداؤه لك يظل قائماً... لم يكن والدي محبوباً في بيئتنا! لأنه يقدم المعروف للجميع، وخاصة الفقراء، ووالدي بنظرهم ألد أعدائهم، من هذه العداوة القائمة فهمنا أن والدنا كان يقدم الخير ويمد يد المساعدة للجميع. وبما أن في إعلان الخير ذنب كبير، فإننا لم نشهر الخير الذي يقدمه والدنا لأحد.

كان محدثي من أغرب الأشخاص الذين تعرفت عليهم، يصف نفسه بالمحب للخير والمساعدة؛ فهو محب للخير ولكن لا أحد يعرف مدى هذا الخير الذي يقدمه للآخرين، حتى هو نفسه لا يعرف ذلك!

أما الصفة الثالثة لدى الأشخاص الذين تعرفت عليهم، هي: تقديم أنفسهم على أنهم يحبون المزاح والسخرية والضحك، وبما أنني كاتب ساخر، فهناك الكثيرون يحسبون أنني دائماً فرح الوجه بشوش مضحك للآخرين، ولهذا السبب يسألني الكثيرون: «لماذا أنت عابس، مقطب الحاجبين؟» ومهما قلت لهم أن الضحك في غير موقعه يدل على قلة الأدب. وحتى لو لم يكن هناك سبب للضحك فيجب علي أن أخترع شيئاً أقدمه لنفسي وللآخرين.

وكما أن هناك أشخاصاً يحاولون أن يكونوا ساريين أكثر، ومحبين

للخير أفضل مني، هناك أيضاً أناس يحاولون أن يظهروا أمام الآخرين أنهم أكثر مني سخرية وأكثر مني إضحاكاً لبطانتهم! حتى أنه بمجرد التعارف على هؤلاء الأشخاص والتصافح معهم يبدأون بالمسخرة وحديث اللطائف، وفي النهاية هم الذين يضحكون لما قالوه أو تصرفوا به، حتى أنهم يصدرون القهقهات العالية! أما النكت والنوادر والطرائف التي يقولونها فالجميع يعرفوها وقد سمعوها لأكثر من مائة مرة...! حتماً ستقولون وما هي الغرابة في أن يتحدث ويتكلم؟! وهل هذا الكلام معقول؟! من الواجب على الحضور أن يضحكوا معه، أي مع من يروي القصة ويضحك بنفسه، اللياقة والأصول تتطلبان منا أن نبتسم ابتسامة بسيطة صفراء معه حتى ولو سمعنا بالقصة وكنا مرغمين على ذلك حتى ببعض الضحكات الباردة، أو التظاهر بالضحك برسم ابتسامة على الوجه لا تعبر عن شيء.

دعاني أحد الأصدقاء إلى وليمة أقامها بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لزواجه، وبما أنني أذهب إلى هذا البيت لأول مرة فقد استعصى عليَّ العنوان كثيراً، وعندما وصلت إلى المنزل كان المدعوون قد حضروا منذ وقت طويل، الضيوف يملؤون الصالون الكبير والجميل، والحديقة... وبعد أن عانقت صديقي وزوجته وباركت عيد زواجهما تسللت إلى منضدة نائية في إحدى زوايا الحديقة وجلست عليها، أما الشباب ومتوسطو الأعمار الذين يحاولون أن يكونوا شباباً فقد ظلوا واقفين... سلمت على الجالسين حول المنضدة؛ ثمة شخصان منهم كانا قد شربا حتى الثمالة فعرفا علي نفسيهما وأنهما على معرفة بي، ورفعا كأسيهما على شرفي وأنا بدوري رفعت كأسي وقلت:

ـ على شرفكم.

كانت اليسارية قد هوت بسبب النظام العالمي الجديد والاقتصاد الحر،

والخصخصة، وطريقة الحياة الجديدة، وتقارب المجتمعات، وتحول العالم إلى ما يشبه القرية الصغيرة...

مع كل هذا كان أحد الشخصين يسارياً بنسبة اثنين ونصف بالمائة، والآخر خمسة بالمائة! وبعد حديث اليسارية وصل الدور إلى الحديث عن حب فعل الخير والمساعدة، وبدأ كلٌّ واحد يشرح حبه للخير وصفاته ومميزاته... كان أحدهما مسلماً متديناً ولكنه غير متزمت، يشرب الكحول كل مساء، ويوزع الصدقات بالجملة ليتقبل الله منه، وبعد أن يدفع زكاته وفطرته يقوم على تطهير أربعة أو خمسة أولاد من العائلات الفقيرة... أما الآخر فكان محباً للخير بحيث أن أصدقاءه كانوا يطلقون عليه اسم «بابا الكفار»!

وجاء الدور بعد اليسارية وحب الخير إلى الضحك والسخرية؛ الصفتان الأوليتان يستطيع المرء أن يتحملهما إلى حد ما، أما الصفة الثالثة وهي المسخرة والضحك فلا يستطيع المرء أن يتحملهما أبداً.

كان الأول بديناً، وسمنه ملائم لطوله، وخداه أحمران كالتفاح، أما الثاني فكان طويلاً وبديناً ورأسه أصلع، ولكنه سرَّح بعض الشعيرات الباقية في رأسه محاولاً بها ستر صلعته...

يقول السمين «المدعبل» أنه كان يحب الضحك كثيراً عندما كان يافعاً، والثاني كان يقوم ببعض الحركات الضاحكة على حد قوله، وأنه لشدة ما يضحك أصدقاءه كانوا «المعذرة» يعملون تحتهم من كثرة الضحك! كان يقهقه بقوة وهو يتكلم ليثبت شطارته وجدارته في هذا الإطار.

وحسب ادعاء السمين أنه قام بكتابة عدة قصص ساخرة في شبابه، وأنه أخذ القصص إلى إحدى المجلات الكوميدية فأعجبتهم كثيراً، ولكن والده تدخل في الأمر وطلب منه التوقف عن كتابة قصص ساخرة بعد الآن، وقال له:

ـ بالله عليك يا بني لا تفعل هذا الشيء، ربما تدخل السجن بسببها.

ولهذا السبب تراجع عن الفكرة كلياً خوفاً من السجن والمصائب...

وكنا نضرب أقداحنا ببعضها بين فترة وأخرى:

ـ على شرفكم.

ـ على شرفكم.

بعد ذلك دخل إلى السجن عدة مرات ولكن ليس بسبب الكتابة بل بسبب الجرائم التي اقترفها السادة في مهاجعهم.

أما الأصلع، فقد عزف عن عادة السخرية وإضحاك أصدقائه بعد وفاة والده، لأنه بدأ بالعمل وجمع المال، ولهذا لم يبق عنده الوقت الكافي للضحك، وقد يضطره أصدقاؤه على القيام ببعض الحركات الضاحكة عندما يكون معهم.

ـ هاه... هاه... هاه... على شرفكم يا سيدي، كنت على وشك أن أصبح مثلك كاتباً ساخراً لو لم يمت والدي، لأن المرحوم لم يأذن لي بذلك، على شرفكم... كيه... كيه... كيه... هوه... هوه... هوه... لن أنسى معروف أبي هذا... أسكنه الله فسيح جناته.

كنت أستطيع التخلص من هذين الثرثارين بانتقالي إلى مائدة أخرى، ولكن لم أفعل ذلك لأنه سيظهر هناك آخرون... وسيبحثون عن اليسارية ونسبها، وعن حب الخير وطرقه، وعن السخرية وحدودها... على الأقل فإن هذين الشخصين لم يستمرا في ذلك...

قال السمين:

ـ وبما أنه جاء دوري فأريد أن أقص لك نكتة... هاه... هاه... هاه... هيه... هيه... هيه.

لم يبق دور لأحد، ولهذا السبب كنت أشرب دائماً حتى أسكر ولا

أسمع أو أفهم من حديثهما شيئاً، أما هما فكانا قد سكرا منذ وقت طويل...

- وربما تعرف هذه النكتة؟

سألته:

- أية نكتة؟

قال وهو يرمي بقهقهاته:

- النكتة التي سأرويها.

وكيف أستطيع أن أعرفها دون أن أسمعها؟

قلت:

- لا أعرفها...

كان الاثنان يقهقهان دفعة واحدة، فقال الرجل السمين:

- حقيقة... هل تعرفها؟

- حقيقة لا أعرفها...

- إذا كنت قد سمعتها فسماعها للمرة الثانية يكون هراء... كيه... كيه... كيه...

كان لسانهما يتباطأ رويداً رويداً حتى وقف تماماً... وبدأ أحدهما برواية قصة مشهورة يعرفها الجميع وهي «الوطن أم محمد»... كان يضحك بشكل عجيب، يضحك قبل روايتها، لو لم أسمعها لما فهمت منه شيئاً:

- في أحد الأيام قام الباشا... هاه... هاه... هاه... بتفتيش إحدى الكتائب... كوه... كوه... كوه... وسأل أحد الجنود، وكان اسمه محمد، وقال له: «ما هو الوطن يا بني؟ » هوه... هوه... هوه... قل لوجه الله تعالى، إذا كنت تعرفه لا داعي سأكرره ثانية... هاه... هاه... هاه...

أجابه العسكري محمد: «إن الوطن أمنا يا باشا» قال الباشا: «عفارم عليك يا بني. كوه... كوه... كيه... كيه. ثم سأل العسكريَّ الآخر: «ما هو الوطن؟ » فقال العسكري: «إن الوطن أم محمد يا سيدي» هوووه... هوه... هوه...

في هذه المرة بدأ الأصلع بالرواية:

ـ في أحد الأيام، هاه... هاه... دخل أحد اللاظ إلى قصر «جانكايا» / مقر رئيس الجمهورية التركية/ هيه... هيه... هيه... إن كنت تعرفها فلا تدعني أكررها... فدق باب الجنكايا، فتح رجل الباب وسأله: «ماذا تريد؟» فقال اللاظ: «سأكون رئيساً للجمهورية» أجابه الرجل: «هل أنت مجنون؟» هاه.. هاه... هاه... فقال اللاظ: «وهل هذا شرط كي أكون رئيساً للجمهورية؟!»

ضحك الاثنان وهما يشدان على بطنيهما، ثم يكرران رواية القصة عدة مرات وكلامهما يندمج ببعضه.

ـ كان أحد اللاظ قد جاء للتفتيش... كاه... كاه... كاه... اسمه اللاظ محمد، قرع الباشا باب الجنكايا فسأله الرجل الذي فتح الباب: «ما اسم أمك؟» هاه... هاه... هاه... فقال الباشا: «سأكون رئيساً للجمهورية» فقال له العسكري: «عفارم عليك... ما هو الوطن؟» أمي... هوه... هوه... هوه... قال: «هل أنت مجنون؟» وصرخ الثاني: «هل هو شرط؟»... هاه... هاه... هاه...!

عندما غادرت المنضدة كانا قد أصبحا تحتها وهما يرويان القصة بدمج الشخصيات ببعضها...

فغادرت المنزل بعد أن باركت ثانية للزوجين...

ο ο ο

٢٠

لون وبر الجمل

كان من الواجب علي كتابة هذه القصة وحفظها فقد وجدت نفسي مرغماً على كتابتها، قصة مليئة بالانفعال والعصبية حتى خلتني أسمع دقات قلبه في سماعة الهاتف.

سألني:

ـ ماذا سيحصل الآن، وإلى أين ذاهبون؟

بماذا أستطيع إجابته؟ فهذا السؤال مازال يدور في ذهني منذ سنوات طويلة، ماذا سيحصل لمن؟ إلى الناس الذين ينظرون بعيونهم إلى الفراغ اللانهائي، ولنفسي.

ـ ماذا سيحصل الآن؟ وإلى أين ذاهبون؟

كنا نشاهد أنفسنا ونحن نسير بالجملة نحو هاوية سحيقة، وأنا بينهم، سيل قوي يجرفنا نحو الهاوية والأصوات ترتفع شيئاً فشيئاً:

ـ إن نهايتنا لن تكون خيرة أيها المواطنون!

كانت الأصوات التي تعلو شيئاً فشيئاً تسكت هذا الصوت:

ـ لا تصدقوا هذا الكافر، إن نهايتنا في الجنة، هيا امشوا أيها الشباب... أسرعوا إلى الجنة، ستطيرون بعد قليل وستصلون الجنة!

جرى الاتصال في الأول من تشرين الثاني /نوفمبر/ وكان يردد على الهاتف قائلاً:

ـ الجرائد كلها متشابهة، بعد تسعة أيام سينشرون صورة، ومع الصورة

أطلب نشر كتاباتكم، اكتبوا القصة التي سأمليها عليكم، سآخذ جميع قصصكم بيدي إلى الصحف وأنشرها لكم.

كنت أعرف ماهية القصة التي سيرويها لي، ولكن لو أن كل كلمة من كلماتها كالذهب وقمت بصياغتها كصائغ ماهر، فلن تنشر مثل هذه القصة لا في الصحف ولا في المجلات، ولا في المذياع أو التلفاز، لأنني كنت أعرف ذلك مسبقاً وقلت له هذا الكلام، ولكنه لم يصدقني، كان صوته يرتجف لأنه أخذ على خاطره من كلامي، وأصيب بخيبة أمل كبيرة... غيرت مجرى حديثي معه وقلت:

ـ ربما، من يدري؟ ربما ينشرونها! هيا قص علي الحكاية، سأكتبها.

بعد مضي ساعة أو أقل ركب سيارته وجاء إلى منزلي.

سألته:

ـ كيف حالك؟

أعاد لي سؤالي وهو يقول:

ـ كيف يستطيع المرء أن يكون في مثل هذا الموقف؟

بدأنا شرب الشاي، وبدأ برواية قصته وبخط واحد دون نزول أو صعود، ودون أي تردد، إنها قصة تشرح موقفنا على أكمل وجه، والأصح من هذا إنها حكاية معاصرة.

قلت له للمرة الثانية:

ـ يا عاشقي المحبوب سأكتبها لك وأنا في غاية الفرح والسرور لأنك تطلب مني ذلك، ولكن سترى، لن تنشرها أية جريدة، لا لأني لم أعطها حقها كاملة في الصياغة والترتيب والأسلوب، بل لأن واحداً من الذين سيهتفون من بين الزحام سيقول:

ـ إن نهايتنا الجنة، هيا طيروا إلى الجنة، أسرعوا إلى الجنة... ستطيرون بعد قليل وستصلون إليها!

وإذا لم يكن المنادي واحداً من بين الزحام، سيكون أحد المشترين الذين يراقبون نبض الشعب.

كانت عيناه تلمعان بضياء غريب وانفعال منذ أن بدأنا بكتابة هذا العمل...

لا أعرف سلفاً هل استطعت صياغة القصة كما طلبها مني، أم جاءت صياغتها حسب ما أملت علي خواطري الأدبية؟ وهذه هي الحكاية:

غابة واسعة... واسعة جداً كأنها عالم خاص بحد ذاته، القصة تبدأ من هذه الغابة وتنتهي بها، والناس الذين يعيشون فيها يحسبون أن العالم كله هنا، ولا يوجد عالم غيره، ويظنون أن هذه الغابة لا نهاية لها ولا حدود... وبما أن أشجارها كثيفة وعالية إلى حد كبير فإن مملكة الغابة لا ترى الشمس في النهار، ولا القمر والنجوم في الليل، واعتاد الناس على العيش في الظلام، والأصح في نصف ظلام، ويحسبون أن العالم كله مظلم أو نصف مظلم مثل مملكتهم!!

في هذا العالم الذي سميناه عالم الغابة أناس يعيشون في بناية على وشك السقوط ومؤلفة من أربعين غرفة... إنهم عائلة كبيرة جداً، لا تظنوا أنهم لا يعرفون أن هناك عالماً غير عالمهم، ولكنهم يعيشون ويكذبون على أنفسهم بعدم وجود عالم خارجي عنهم، وقد سلحوا أنفسهم بسلاح عصري حديث تحسباً لكل عدوان على الغابة وبناياتهم من قبل أعداء لا يعرفونهم، ويملكون مناظير خاصة لمراقبة الأعداء عند الاقتراب منهم، وخبراء لتدريبهم على استعمال الأسلحة.

أما تاريخ البناية التي يعيشون فيها فيقول أحد المؤرخين أن عمرها ٦٥٠ عاماً، ولكن بعض المؤرخين الذين يعيشون وسطهم يقدرون عمرها بأكثر

من ألف سنة، وبالنسبة للبعض ألفين من السنين، وحسب معلومات البعض منهم فإنهم شعب له تاريخ سحيق جداً.

وهناك اعتقاد سائد بين ساكني البناية حسب ما توارثوه عن آبائهم، بأنه كان يعيش على أرضهم هذه شعب في غاية الذكاء والحنكة، يتعاملون بالعقل والمنطق، ولكن ما من أحد يتذكر هذا الشعب! أما الآن فإن سكان هذه البناية يحسبون أنفسهم بأنهم أفضل وأعقل وأنشط وأذكى شعب، ويعتقدون بأن الشعوب الأخرى شعوب بلا عقول ولا ذكاء، إنهم تنابل وكسالى!!

بدأ طلاء سقف البناية يتفتت ويسقط على الأرض، كما أصاب الاهتراء قشرتها الخارجية، وبدأ ماء المطر ينزل من بعض الأماكن في السقف، وخراطيم المطر الموضوعة على السقف انسدت نهائياً، وأقفال الأبواب تكسرت... وقصارى القول إن العيش أصبح صعباً في هذه البناية للتأخر في ترميمها، الذي كان سببه القاطنون فيها لأنهم وعبر أجيال متتالية كانوا يتجادلون فيما بينهم دون الوصول إلى اتفاق... اختلفوا على أمور كثيرة منها: هل نُرمِّم البناية أم نهدمها من أساسها ونبني مكانها بناية جديدة؟ وإذا اتفقوا على ترميمها، هل سيجري ترميم كل حجر أم كل قسم، أم البناية كلها دفعة واحدة؟ وكان أحد عناصر الاختلاف هو: هل سيكون بدء الترميم والتصليح من الداخل أولاً أم من الخارج؟ وهل تطلى جدرانها الخارجية باللون الأخضر أم بلون «صفرة الكناري»، أو صفرة أرجل البط؟... هذه الاختلافات لا أحد يعرف تاريخ بدئها، ولكنها وصلت إليهم أباً عن جدٍّ ولا تزال حتى الآن.

هذه الاختلافات والمجادلات أصبحت عادة لا يمكن الإقلاع عنها بين ساكني البناية، وأضحت طبعاً من طباعهم، وكانوا ينجحون في خلق مشادة جديدة وجدال عنيف وجديد من أتفه الأشياء، ويجعلون

منه موضوعاً مثيراً للجدل والمشادات الكلامية، وإذا ما بدأت المشادة فالجميع معني بها، ويتداخلون مع بعضهم دفعة واحدة، ولا ينتج عن هذه المشادات الكلامية إلا بعض الكلمات التي يتعرفون عليها لأول مرة. ومن إنتاج هذا الكلام الجديد لم يبق عندهم الوقت الكافي لإنتاج أشياء أخرى.

انتقلت هذه العادة من الأب لابنه ومن الابن للأحفاد، ومن الأم لابنتها... ودون أدنى شك كانت بعض هذه المشادات والصراعات الكلامية تتحول في بعض الأحيان إلى عداوات تدوم أجيالاً وأجيالاً كان الأب يعادي ابنه، والأم تعادي ابنتها، وابن الأخ يعادي عمه، والبنت تعادي خالها، والأخ يعادي أخاه... ومختصر الكلام أن كل واحد يضمر الشر للآخر وغاضب عليه، والجميع أعداء مع بعضهم، والجميع أيضاً يختلفون ويتشاجرون.

وسط هذا الموقف، وفي أحد الأيام أرسلت هيئة الدفاع عن البناية خبراً إلى جميع الأطراف مفاده:

«بعد مراقبة شديدة من المنظار الذي نملكه اكتشفنا فوجاً من الجنود المسلحين بالأسلحة المعاصرة يقتربون من بنايتنا كغمامة سوداء».

كان هذا الخبر قد فتح باباً جديداً بين سكان البناية مع بعضهم، ومن جهة أخرى مع هيئة الدفاع عن البناية... وفي الوقت نفسه فتح هذا الخبر باباً جديداً على إنتاج الكلمات: هل القادم هو عدو يا ترى؟ أم غير عدو؟ إذا كانوا أعداء ما هو الدليل على ذلك؟ وربما كانوا جنوداً أصدقاء قادمين إلينا من عالم لا نعرفه!

في اليوم التالي صدر عن المدافعين الخبر التالي:

«يزداد القادمون اقتراباً منا كقطيع من الذئاب، لقد دخلوا مجال الرؤية الاعتيادية، ومن خلال الكشف والمراقبة تبين أنهم يملكون أسلحة

ومدافع... إن الخطر كبير جداً...».

نعم، ولكن بدأ الصراع والجدال والعداء بين سكان البناية، قال بعضهم:

ـ بما أن القادمين لا يطلقون النار، فكيف نعرف أنهم أعداء؟ من يدري... ربما كانوا قادمين للمساعدة؟؟

بدأت البنادق والمدافع بإطلاق النار... هل يا ترى هؤلاء القادمون أعداء حقيقيون؟ ولماذا هم قادمون؟ يا ترى، لو دهنوا خارج البناية باللون الفستقي أو باللون الزجاجي؟ وبدأوا التصليح من السقف؟ فهل كانت البناية ستهوي قطعة قطعة من جراء قنابل المدافع التي يطلقها عليهم الرجال القادمون؟ ماذا كان سيفعل سكان البناية؟ هل يهدمون البناية من أساسها ويقيمون بناية أخرى؟ أم يتركونها على ما هي عليه؟

كانت إحدى القذائف المدفعية قد سقطت أمام البناية فاهتزت بعنف وكأن زلزالاً قد ضربها، إذا كان العدو يقترب منهم... آه... آه... ما اللون الذي سيستعملونه في طلاء البناية من الخارج؟

كانت الحكاية تسير على هذا النمط، سألت أوزانبار:

ـ ما الشيء الذي تريد أن تفهمه؟

ـ أليس واضحاً؟

قلت له:

ـ ما الحل بالنسبة إليك؟ هل الحل عندك هو هدم البناية من أساسها وبناء واحدة أخرى؟ وهل يكون دهان الأبواب الخارجية باللون الفستقي أفضل أم بلون صفرة أرجل البط؟!

قال:

ـ أفضل شيء هو دهنه بلون القهوة البنية.

قلت:

ـ وما رأيك بلون وبر الجمل؟ أليس جميلاً؟!

وبدأنا بصف الكلام وإنتاجه، لأننا نحن أيضاً كنا نعيش في تلك البناية القديمة.

صاحبنا أوزانبارا حمل هذه الحكاية وأخذها إلى كل الجرائد في استانبول، ودون إعطاء لاسم الكاتب، ورجاهم أن ينشروا هذه الحكاية في ١٠ تشرين الثاني / يوم وفاة مصطفى كمال أتاتورك/. لو تم نشر هذه الحكاية في كل الجرائد دفعة واحدة، لكان رد فعل الجمهور قوياً، وأيقظ شعور المسؤولين. كانت الصحف تستطيع وضع هذه الحكاية مكان صور الممثلين العارية، ومكان الأخبار الفاضحة، ولو ليوم واحد. أصغى أصحاب الجرائد إلى نهاية كلام أوزانبارا، لكن جريدة واحدة والتي كانت لا تنشر صوراً فاضحة، اقترحت على أوزانبارا أن هذه الحكاية لا تنشر إلا في زاوية الإعلانات، وبسعر الإعلانات، ولكن أصحاب الجرائد لم يقرؤوها أبداً لأنهم لا يملكون الوقت الكافي لقراءتها، ولأجل هذا السبب حزن أوزانبارا كثيراً، قال وهو يعيد الحكاية لي:

ـ لقد كنت على حق تماماً.

○ ○ ○

٢١

شخص محب للخير

كنت سألتقي بها في الساعة التاسعة صباحاً، من هي؟ أليس من الأفضل أن لا أذكر اسمها؟ من تكون تلك التي لم أذكر اسمها؟ شخصية يجب أن ألتقي بها مهما كلف الأمر في الساعة التاسعة في الميناء. وفي الساعة التاسعة والربع سنركب باخرة ونذهب إلى مجموعة الجزر، ولكي أظهر لها ثقافتي غير العادية كنت سأرافقها بزيارة إلى متحف «سعيد فائق» الذي يشبه متحفاً للكتاب، وبعدها إلى » كالبنزاكيا» ثم نتوجه إلى البحر للسباحة. لقد جالت في خاطري فكرة أن نأخذ معنا طعام الغداء نتناوله ونحن نبحر بإحدى السفن إلى الجزيرة الكبيرة، كنا سنحاول ترتيب حياتنا القادمة بعد مرور أربعين عاماً، خلال سيرنا في طريق العشاق وسواعدنا متشابكة، ومن هناك نراقب غروب الشمس في «فيران باغ» ثم نعود إلى الميناء بالعربات التي تجرها الخيول.

هذه اللمحة الصغيرة التي قدمتها لكم جاءت تحصيل حاصل ولو لم تكن لدي نية الزواج من فتاة أو امرأة ما. والآن لم أعد أتذكر عدد محاولاتي بالزواج من النسوة اللواتي رغبت بهن، وجميع المحاولات باءت بالفشل. لم أستطع أن أبني عشاً سعيداً مع واحدة منهن، أما هذه المرة فكنت أنظر لهذا المشروع بجدية، لقد صممت هذه المرة على الزواج لأنني وجدت امرأة تناسبني في كل شيء، الطول، الطباع، النسب، وكنت متمسكاً بها ولا أريدها أن تهرب مني مثل سابقاتها.

لم يغمض لي جفن في تلك الليلة لشدة ما كان قلبي يخفق بالفرح

والانفعال، وبما أنه يجب أن أكون في الميناء عند الساعة التاسعة، وتستغرق السيارة للوصول إليه مدة عشرين دقيقة، بدأت تحضير نفسي منذ الساعة السابعة، وأخذت من الوقت ساعة قضيتها في تحسين منظري الخارجي بالحلاقة والحمام واللباس... وفي الساعة الثامنة غادرت البيت ووصلت إلى موقف التاكسي، انتظرت طويلاً دون أن أجد سيارة جاهزة مع أن السيارات كانت تقف بالدور صباحاً. وقفت أنتظر على أمل أن أجد سيارة عابرة أمتطيها وطال الانتظار ولم تمر سيارة فارغة، أصبحت الساعة الثامنة والربع، انظروا كيف يعاكسني القدر... لم تتراءى من بعيد أية سيارة فارغة، كنت أقول في نفسي: ليتني أوقف سيارة خاصة وأتوسل لصاحبها أن يوصلني إلى الميناء. جاءتني هذه الفكرة الساعة التاسعة إلا عشرين دقيقة، فأوقفت سيارة خاصة لم أر فيها غير السائق، وعندما رفعت يدي نحو الأعلى وإذا بالسيارة تقف فجأة، فرجوت السائق أن يوصلني إلى الميناء لعمل هام وضروري وعاجل، توسلت إليه وقلت: أنتظر هنا منذ وقت طويل، فهل بإمكانك أن توصلني إلى الميناء؟ قال: لا... لا أستطيع. لأن طريقه ليس بهذا الاتجاه وأنه هو الآخر مضطر للوصول إلى عمله بسرعة. ضغط على البنزين وانطلق كالبرق.

في ذلك اليوم ولأول مرة في حياتي كنت من أكثر المنادين بالعدالة الاجتماعية، وفي حياتي كلها لم أشعر بهذه العدالة مطلقاً، كانت السيارات الخاصة تمر من أمامي وبداخلها إما شخص هو السائق أو شخصان، سيارة واحدة لشخص واحد...! هل هذه عدالة اجتماعية؟ لم يكن لديهم شفقة أبداً إنهم بلا شعور، ومحرومون من الإحساس، ألا يمكن لواحد منهم أن يقف ويوصلني بسيارته إلى الميناء؟ أصبحت الساعة الثامنة والنصف، وعلى الإنسان أن لا يثق بوجود هذه الأعداد الهائلة من السيارات، لو سرت على قدمي منذ خروجي من المنزل لوصلت الآن إلى الميناء.

لم أكن وحدي أنتظر سيارة فارغة، ولكن طابوراً كبيراً كان في الانتظار، وبينما كنا في هذه الحالة من الضيق والترقب، وفجأة هطل المطر بغزارة لا مثيل لها، إنه مطر الصيف، هرب الجميع ووقفوا تحت أحد شرفات المنازل وفي زاوية بعيدة إلى حد ما، أما أنا فلم أستطع الذهاب إلى أي مكان حتى أحافظ على موعدي في الوقت المحدد، خلال دقيقتين فقط، تبللت ثيابي كلها، وبدأت المياه بالدخول إلى جسدي النحيل.

أتذكر الآن... كانت الساعة تقارب التاسعة إلا عشر دقائق، وإذا بسيارة خاصة تقف أمامي فجأة، ففتح بابها وأشار لي السائق بيده: تعال...

ـ هيا اقفز.

دخلت السيارة وجلست قرب السائق وقلت في داخلي: من هذا الشخص صاحب الإحسان والخير؟ لم أستطع أن أشبهه بأحد معارفي، لو ساق سيارته بسرعة... لا... لا... بسرعة جداً... ربما أصل إلى الميناء عند الساعة التاسعة. لو تركنا سياقة الرجل بسرعة إلى طرف، كان الرجل متجهاً إلى مقام «فيستقي» وقد فتح المذياع يستمع إلى أغنية ويقود السيارة على أنغام تلك الأغنية الثقيلة.

شكرته لأنه أخذني بسيارته، وأعلمته أنني أنتظر سيارة فارغة منذ ساعة ونصف الساعة، وأنني على عجلة من أمري وأنا على موعد هام جداً في الميناء، قلت ذلك عله يسرع بعض الشيء، كذبت على الرجل عندما قلت له أنني أنتظر منذ ساعة ونصف، بينما زمن انتظاري الحقيقي لم يدم سوى خمس وأربعين دقيقة ليس إلا.

قال الرجل المحب للخير، والذي أخذني بسيارته:

ـ إن هذا الزمن ليس مناسباً لفعل الخير أبداً.

دخلت بحديث مع الرجل عله يقود سيارته بسرعة:

ـ أنت محق يا سيدي، لا أحد يعرف الخير الذي تقدمه له.

ـ آمان... ليطمر الله طبعي هذا لأنني لا أستطيع أن أبقى دون فعل الخير أبداً، عندما شاهدتك تقف تحت المطر وثيابك مبللة، وعليك ملامح الغرباء لم يطاوعني قلبي أن أدعك واقفاً تحت المطر، ولم أستطع أن أتحمل... قلت في نفسي حرام هذا المسكين، فتوقفت وأخذتك بسيارتي.

شكرت الرجل للمرة الثانية.

ـ ولكن إذا نظرت لبعض الناس فهل يمكنك أن تساعد شخصاً كان يقف ليلاً مثل جذع شجرة من كثرة الانتظار... وإذا بالرجل يحمل مسدسه ويطلب منك كل ما تملكه، بعضهم يفعل هذا حتى في وضح النهار وعلى مرأى ومسمع الجميع.

قلت للرجل زارعاً ابتسامة عريضة في وجهي كي ينشرح بعض الشيء:

ـ آمان يا سيدي... هل ترى فيَّ صورة إنسان ينصب على الآخرين؟!

قال:

ـ الإنسان لا يعرف أبداً، لست بطيخاً حتى أعرفك عن طريق الشم! سرقوني عدة مرات في سيارتي وصورهم لم تكن تختلف عن صورتك.

كنت على وشك أن أقول للرجل «أوقف السيارة ولك» كي أنزل منها، ولكن المطر كان قد اشتد غزارة بحيث أن ماسحة الزجاج لم تعد لديها القوة على مسح الزجاج الأمامي من شدة المطر، كما أن الرؤية أمامنا باتت صعبة للغاية.

قلت للرجل (عسى أن أطيب قلبه):

ـ أنت محق جداً يا سيدي، أصابعك الخمسة غير متساوية.

ترك الرجل مقود السيارة ومد يده اليمنى نحوي وقال:

ـ وكيف لي أن أعرف؟ ربما أنت أيضاً من تلك الكلاب المشؤومة.

قلت له وأنا أضغط على أسناني:

ـ صحيح... صحيح جداً... من أين لك أن تعرف؟

ـ قبل أيام أخذت شابة جميلة بسيارتي، وكان الطقس ماطراً كما هو عليه الآن، وبدأنا بالحديث الجميل... من أين أنت؟ وأين تسكنين؟... هل أنت متزوجة؟... شيء من هذا القبيل... وإذا بهذه الفتاة الجميلة تخرج من حقيبتها مسدساً وتضعه في رأسي وتقول: «أخرج كل ما معك من أموال ولكْ» فأخذت كل ما في محفظتي... ساعتي... خاتمي... ولم تترك معي حتى ثمن علبة سجائر.

قلت للرجل، ومازال عندي أمل بالوصول إلى موعد المرأة التي سأتزوجها:

ـ واه عليها... ما أحقرها وما أوطاها!

قال:

ـ هذا ليس بشيء، في الشتاء الماضي كنت قد حملت في سيارتي صبياً يرتجف من البرد، سألته عن المكان الذي سيذهب إليه، قال: «أذهب إلى أي مكان تأخذني إليه» سألته: «أليس لك منزل أو مأوى؟» قال: «خذني إلى أي مكان تريده، فقط أن يكون دافئاً» وعندما دخلت إلى زقاق خال من البشر... وإذا به يقول لي: «هيا أخرج ما معك من أموال».

صرخت ثانية:

ـ واه أيها الواطي ما أحقرك!!

ـ ولكن لم آخذ درساً من كل هذه المصائب، انظر لقد أشفقت عليك وأخذتك بسيارتي...

بدأت ضربات قلبي في التسارع، وكدت أصرخ في وجهه ومن

أعماقي وأقول: «أوقف السيارة ولك، أريد النزول» ولكنني كنت أتذكر المرأة التي تنتظرني وأعود ثانية إلى ربط لساني.

ـ عفواً يا سيدي... هل باستطاعتك أن تقود السيارة بسرعة أكثر؟

قال:

ـ ما هذا الكلام...؟ هل تريد أن توصل القذارة إلى طبق خانة؟

ـ لأنني أريد اللحاق بالسفينة.

ـ تتحرك سفينة كل عشرين دقيقة.

ـ نعم... في كل عشرين دقيقة تبحر سفينة، ولكن ليس في كل عشرين دقيقة أستطيع أن أجد واحدة تقبل الزواج مني.

كان قراراً قطعياً:

ـ أشكرك جزيلاً أريد النزول هنا.

ـ لا... لا... قلت لي أنك ستنزل في الميناء، سأنزلك هناك وكما قالوا: «بما أنك فعلت خيراً فأتممه ولو بشق النفس» عندما يعمل الإنسان خيراً يجب أن يؤديه بأمانة وإخلاص.

قاد سيارته إلى زقاق مهجور، كنا نذهب بعكس الميناء تماماً، ولا أثر لأي سيارات تمر من هنا.

قلت:

ـ إننا نذهب بالخطأ، لقد بقي الميناء خلفنا.

قال:

ـ لا... إننا لا نسير بالخطأ ولكنني سأمر إلى مكان، لي عمل أقضيه، دقيقة أو دقيقتين ليس أكثر.

أوقف سيارته أمام بناية ورن جرس باب البناية الخارجي.

نظرت إلى ساعتي، الساعة التاسعة وسبع دقائق... أي واه...!

المرأة التي تنتظرني ليست شابة وجميلة فقط... بل هي ذكية وتتعامل بالعقل والمنطق، وبالتأكيد ستعلم أن ما من أحد في استانبول يستطيع أن يصل إلى موعده في الوقت المحدد، ربما تنتظرني خمس عشرة دقيقة أو عشرين... ولكن الرجل المحب للخير لم يخرج من المكان الذي دخل إليه، انتظرت عشر دقائق، لا من ذاهب ولا قادم! فقررت الدخول إلى البناية، وعندما وصلت أمام الباب تذكرت عندها أنني لا أعرف إلى أي طابق صعد صاحبنا محب الخير هذا... ولا أعرف اسمه. كبست على زر جرس باب البواب ففتح باب البناية أوتوماتيكياً، فدخلت، إذا ركبت المصعد لا أعرف إلى أي طابق سأصعد، أفضل شيء أن أعود وأمشي في حال سبيلي، ولكن لم أكن أعرف طريق الذهاب إلى الميناء، وفوق ذلك كله كانت غزارة المطر قد ازدادت شدة.

المهم... خرج من البناية وقذف بنفسه وراء المقود وبدأ بالحديث:

ـ كنت سأذهب إلى الحلاق، ولكن تراجعت عن الفكرة في آخر لحظة كي أوصلك إلى الميناء. والآن دعنا نمر على منظف الألبسة فقد وضعت عنده بعض حوائجي، لن أتأخر أكثر من خمس دقائق، وبعدها ننطلق من هناك إلى الميناء فوراً.

قلت:

ـ أفضل شيء أن آخذ سيارة عندما نصل إلى الشارع العام.

قال:

ـ إن فعل الخير لأمثالك أصبح مستحيلاً... أي سائق يا ترى سيأخذك تحت هذا الجو الماطر؟ وهل تظن أن كل الناس يحبون فعل الخير مثلي؟

كان يصفعني بخيره على الدوام، شعرت بأن شيئاً في أعماقي على وشك الانفجار، وأني سأقول له: «لعنة الله عليك وعلى هذا الخير الذي

تعمله» ولكن هذه الكلمات لم تخرج من فمي، وكلي أمل أن المرأة لازالت تنتظرني في الميناء.

كان المطر يهطل بغزارة... والسائقون الذين أنوفهم في العلالي يستحيل عليهم نقلي بسياراتهم وسط هذا الجو الماطر لشيء واحد فقط... أنهم يشاهدنني مبللاً وذليلاً.

دخلنا إلى زقاق سيئ جداً بحيث ارتطم أسفل السيارة في الحفر الكبيرة التي امتلأت بمياه المطر، وكانت رؤوسنا تضرب سقف السيارة كلما سقط الدولاب في الحفرة.

قال:

ـ لنسلك طريقاً مختصراً كي نصل إلى المنظف بسرعة

أوقف سيارته بعد أن طلب مني إذناً كي يتبول، لأنه حسب ادعائه مريض «بالبروستات» انظروا إلى هذا الأمر...! عندما نزل محب الخير من السيارة كان المطر قد توقف، عندما عاد الرجل «البروستاتي» المحب للخير من تبوله كانت الساعة قد أصبحت التاسعة والنصف.

ـ هذا الخير الذي قدمته لك لا يعمله ابن أبيك، تنقل بسيارتك إنساناً لا تعرفه ولم تره في حياتك، هوه، هوه... صحيح ولك أخي، حتى الآن لم أسألك عن الحزب الذي تنتمي إليه، والفريق الرياضي الذي تحبه، إياك ثم إياك أن تقول لي: «لا أنتسب إلى أي حزب، ولا أحب أي فريق» وإياك أن تكذب علي وتقول أنك تحب الفريق الذي أحبه كي تجعلني ممنوناً، لأنني فعلت معك معروفاً. والآن قل لي: مع أي حزب أنت؟ وأي فريق تحبه وتشجعه؟

قلت له:

ـ إنني أحب جميع الأحزاب لأنها أحزاب تركية، وأحب جميع الفرق المحلية حتى لو استعانت بلاعبين أجانب، لأنها فرق تركية، ولكن حبي

وميلي هو للفريق الوطني.

حسبت أن إجابتي هذه المليئة بالحب للوطن تجعلني أضحك عليه ويتغاضى عني بعض الشيء.

قال:

ـ اترك هذه الأفواه ولك... وقل لي إن كنت شجاعاً مع أي حزب أنت؟ وأي فريق تحب؟

وعندما أصبحت مضطراً على ذلك قلت:

ـ الحمد لله... أنا أحب فريق «غلطة سراي» وأنتسب إلى حزب «الحقانية».

صرخ:

ـ انزل ولك من السيارة، لست من حزبي... ولا من فريقي... حتماً أنت يساري، فلماذا ركبت في سيارتي؟ ألم تجد أحداً غيري يقدم لك هذا المعروف؟! انزل بسرعة...

نزلت من السيارة، وكانت الشمس قد ظهرت حزينة من خلف الغيوم الماطرة، ولم أر أحداً على مد النظر لأسأله عن الطريق المؤدي إلى الميناء، دخلت دكان بقال محلي فسألته عن طريق الميناء وكيف سأذهب إليه...

قال:

ـ أتقول إلى الميناء؟

ـ نعم إلى الميناء.

ـ أي ميناء تقصد؟

قلت:

ـ ميناء السفن...

ـ لقد جئت خطأ إلى هنا، الميناء بعيد جداً من هنا، لا تستطيع أن تذهب إليه مشياً على الأقدام، اركب سيارة من هنا والسائق يأخذك إلى هناك خلال نصف ساعة.

فعلت ما قاله البقال... عندما وصلت إلى الميناء كانت الساعة قد أصبحت الحادية عشرة إلا خمس دقائق... بحثت هنا وهناك، وقلبت نظري نحو جميع الاتجاهات، ولكن لا أثر للمرأة التي كانت تنتظرني... يجب أن تكون قد عادت بعد أن انتظرتني طويلاً. وهكذا طارت من يدي تلك المرأة التي أبحث عنها منذ أربعين عاماً، والتي طولها من طولي، ونسبها من نسبي، وطبعها من طبعي... ولن أستطيع بعد الآن أن أبني العش الزوجي الذي كنت أحلم به، وكل ذلك من وجه ذلك الرجل الذي يدعي حب الخير، والذي ربما قدم لي معروفاً كبيراً وأنا لا علم لي به...!

ooo

٢٢

بأمانة الله

اقتربت الانتخابات التشريعية وأحزاب كثيرة ترشحت لدخول البرلمان، ويقال أن الأحزاب يتزايد عددها كثيراً بعد الانتخابات، وحسب ما أعلنت الحكومة بأن الديمقراطية تكون خيرة وتعطي نتائج إيجابية كلما ازداد عدد ممثلي الأحزاب في الدولة... من الأخضر إلى الفستقي...

وكانت وسائل الإعلام المختلفة من صحف، وإذاعات، وأقنية تلفازية تقوم كل يوم باستطلاع الرأي العام حول نتيجة الانتخابات المقبلة، فإذا جاءت نتائج الاستطلاع لصالح أحد الأحزاب اليمينية الشرعية فإن رصيده يزداد ويرتفع يومياً ويقفز للمركز الأول، ولدى اقتراب موعد الانتخابات فإن الأنظار تتجه نحو هذا الحزب ويقولون أنه سيكتسح الموقف وسيشكل الحكومة المقبلة حتماً.

لقد ظهرت عند الناس تحولات عجيبة مثيرة؛ فبعض الأشخاص الذين كانوا أعداء لهذا الحزب قبل أشهر قليلة بدؤوا يظهرون أنفسهم وكأنهم أعضاء في الحزب نفسه! هذا الازدواجية كانت تحطمني، وهذا التحول الخطير وخلال مدة زمنية قصيرة... كان يخز في العيون ويصم الآذان ويتسع بشكل مثير... أصبحت الأكثرية الساحقة وكأنها تعادي العلمانية من قريب أو بعيد، ولكن بعض أصدقائي كانوا يناصرون العلمانية ويجادلون بالحفاظ عليها. كنت أزورهم وأناقشهم في هذا المجال وأشعر ببعض الراحة... فكرت ذات يوم ووضعت خطة لزيارة صديق قديم لي لم ألتق به منذ مدة طويلة... كنا متساويين في العمر، أحيل على التقاعد منذ

مدة طويلة وخاصة أنه لا يبارح منزله في الشتاء أبداً. قبل أن أتوجه إليه اتصلت به هاتفياً وأعلمته بأنني قادم لزيارته، ردت علي زوجته على الهاتف وقالت بأنه موجود في البيت وسيكون سعيداً جداً لقدومك...

كان منزله بعيداً فأخذت سيارة أجرة وذهبت إليه... كان صديقي يسكن منزلاً مؤلفاً من طابقين، يقع في بناية من الطراز القديم وسط حديقة جميلة... قرعت الباب فأذنت لي الفتاة المساعدة لهانم البيت، وبما أنها تعرفني ذكرت اسمي ودعتني إلى الدخول وأخبرت سيدتها بصوت ناعم. وما أن وطئت قدماي داخل المنزل حتى خلعت معطفي وقبعتي ووضعتهما على المشجب، وأحضرت الفتاة الخادمة قبقاباً لألبسه... وفي هذه الأثناء حضرت زوجة صديقي وألقت السلام علي، وسألنا بعضنا عن الحال والأحوال والصحة... إلى ما هنالك... وبينما كنت على وشك الجلوس على الأريكة العريضة رأيت عدة لوحات معلقة على الجدران بشكل جميل ومثير وملفت للنظر، واللوحات مكتوبة بالحروف العربية... أصابتني الدهشة من هذه اللوحات وكتاباتها: «يا صبور»، «الرزق على الله»، «مدد يا رسول الله»... بالإضافة إلى لوحات أخرى كثيرة رسمتها يد فنان كبير ووضعت ضمن إطارات ثمينة، وقبل شهرين من زيارة صديقي لم أر اللوحات عنده، لم أتمالك نفسي فسألت:

ـ هل اشتريتم هذه اللوحات حديثاً يا سيدتي؟

كان من عادة السيدة أن تخرج لاستقبالي دون أن تغطي رأسها، ولكنها الآن غطت رأسها تماماً بغطاء أخضر مزركش جميل بحيث لم تظهر شعرة واحدة من رأسها!

قالت:

ـ لا يا سيدي... هذه اللوحات موجودة في المنزل قبل وجودي فيه؛ إنها من تركة المرحوم والد زوجي ولكنها كانت مخزنة في الصندوق منذ وقت

طويل... قمنا بإزالة الغبار عنها وتنظيفها ثم تعليقها على الجدار، أما باقي اللوحات فيمكنكم مشاهدتها في الطابق الثاني، في غرفة السيد، هل أعجبتكم؟

ـ حقيقة أعجبتني كثيراً... كيف تظل هذه اللوحات الجميلة والتي تنطق بالفن والجمال حبيسة الصناديق؟!

صعدنا إلى الطابق الثاني وكان صديقي يقف أمام الباب لاستقبالي وقد نشر على ظهره عباءة قديمة تدعى «الحيدرية» وهي دون أكمام.

تعجبت كثيراً عندما بدأ باستقبالي بكلمات لم أسمعها منه أبداً:

ـ آه يا سيدي... ما شاء الله... ما شاء الله.

صديقي هذا أعرفه منذ سنوات طويلة... وطيلة حياته لم يكن يستعمل مثل هذه الكلمات ولا يحب أن ينطق بها مثل «إنشاء الله» و«ما شاء الله»!

وأنا داخل هذه الحيرة والعجب وإذا به:

ـ كيف حالكم؟ إنشاء الله أنتم بخير؟

قلت:

ـ أشكرك كثيراً، أنا بخير.

قال:

ـ أوه... أوه... أدام الله الصحة والعافية.

ولم يترك لي مجالاً كي أسأله بالمقابل: «وأنت كيف حالك؟» وإذ به يقول:

ـ كيف حال السيدة والأولاد؟ إنشاء الله بخير جميعاً؟

قلت:

ـ الجميع بخير ويسلمون عليكم ويسألون خاطركم.

قال:

ـ أدام الله الخير... وأكثر الله من الخيرات.

سألته:

ـ وكيف حالكم أنتم؟

قال:

ـ الحمد لله... بعناية الله وحفظه نحن جميعاً بألف خير.

كنت على وشك أن أجلس على مقعد جانبي وإذا به يطلب مني الجلوس على مقعد آخر مريح وواسع وهو يقول:

ـ من أجل حب الله، تفضلوا إلى هنا.

سألتني زوجته:

ـ كيف قهوتكم يا سيدي؟

قلت:

ـ لا تتعبي نفسك من أجلي.

قالت:

ـ أستغفر الله.

دخل صديقي بيننا:

ـ وما هذا التعب يا سيدي؟ لا تبقوا هكذا غرباء من أجل رضا الله، أنتم في منزلكم يا سيدي.

طلبت الزوجة من الخادمة أن تعمل القهوة وركزت نفسها على أحد المقاعد.

قال صديقي:

ـ قبل قليل كنت قد انتهيت من الصلاة، تقبلها الله منا، وبزيارتكم لنا فعلتم خيراً، فإنشاء الله وبإذنه سأسافر غداً.

ومن أجل أن أقول له شيئاً ما سألته:

ـ إلى أين؟

ـ إذا أذن الله لي... سأخرج إلى «بورصة».

في هذه المرة قالت زوجته:

ـ ليفتح الله طريقك.

قال صديقي:

ـ لأن حفيدي الصغير، أبعد الله عنا الأمراض، أصيب بمرض «الخناق» يا سيدي، الخناق في هذا العمر «معاذ الله» خطر جداً وإنشاء الله سيشفى من المرض بسرعة، في العام الماضي مات ابن جارنا من الخناق «حفظنا الله منه» إنه أمر الله... ماذا نستطيع أن نفعل أو نقول؟ ليمنح الله عائلته الصبر، ولحفيدي الشفاء العاجل.

بادرته بالقول:

ـ وكم من الوقت ستبقون في «بورصة»؟

قال:

ـ بعد الآن هو علم الله... إذا أذن الله لي سأبقى أسبوعاً.

جاءت الخادمة وهي تحمل صينية القهوة، وإلى جانب كل فنجان كأسٌ من الماء... وضع صديقي يده اليمنى على رأسه وشرب الماء بعد أن سحب بسملة «بسم الله» وقال للخادمة:

ـ ليعزك الله مثل هذا الماء.

وقالت الفتاة له:

ـ ليعطك الله عمراً مديداً يا سيدي.

وضعت الفتاة فناجين القهوة... قال صديقي والفتاة في الباب:

ـ هذه أيضاً غريبة من غريبات الله... إنها فتاة مسكينة لله، وليس لها

أحد غير الله...

وقال وهو يلتفت إلي:

ـ هل تعرف السيد «هودا فيردي»؟ إنه والد كنتنا «دونور» مات قبل أيام... رحمه الله... وأعطاك الله العمر المديد... وليزد الله من عمرك، إيه وماذا سنفعل؟ إنها دنيا فانية... كل شيء سيكون كما أمر الله.

نظر من النافذة، وعندما شاهد الغيوم السوداء قال:

ـ أرجو من الله أن لا يبعث المطر.

وفجأة انتقل لموضوع آخر وقال:

ـ لي حفيد من ابنتي حفظه الله... يا إلهي... يا إلهي كم هو عاقل وذكي! حفظه الله من العيون الحاسدة.

قالت زوجته:

ـ ما شاء الله... إن صهري وابنتي هما بخير... أعطاهما الله السعادة... ودخله جيد، ليعط الله البركة لمحفظة صهري.

أضاف صديقي:

ـ وليزد الله من حبهما... وليمنح الله السلامة لدينور فإن حالتها المادية لم تكن جيدة قبل ثلاث أو أربع سنوات... بعد ذلك قال جناب الله! امش يا عبدي...

تدخلت في الحديث وسألته عن صديق مشترك نعرفه سوية فيما إذا زاره هذه الأيام؟

أجابت المرأة قبل زوجها:

ـ إنشاء الله يجد غضبه من الله... لن أقول أي شيء... إنشاء الله يتعرض لعذاب الله، وليعمل به الله كيفما شاء!

قال صديقي:

ـ لقد فعل بنا سيئات كثيرة، وكما قالوا: «اخش من الذي لا يخاف الله» إنه لا يخاف من الله... ولا يخجل من عبده...

ندمت على سؤالي الذي كنت سأسأله، ولم ألح بالسؤال عما وصلت إليه الأمور بينهما إلى هذه الدرجة من العداوة والكراهية كي لا أفتح جروحه، فانتقلت إلى حديث عن صديق آخر...

قال:

ـ آ آ أليس عندك خبر؟ قبل شهر... رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، كان عبداً في طريق الله، وليلهم الله عائلته الصبر والسلوان، إن ذلك المسكين تعذب كثيراً من تصرفات ولده.

قالت زوجته:

ـ الله لا يعطي مثل تلك الخلفة حتى لأعدائي! لقد عذب والده كثيراً حتى اضطره لشهادة «أن لا إله إلا الله».

في هذه الفترة قرع جرس الباب الخارجي، فدخلت الخادمة وقالت أن سائلاً يقرع الجرس، قالت زوجة صديقي:

ـ آمان من هؤلاء الغجر الذين يلحون كثيراً في الطلب.

ثم التفتت نحو الخادمة وقالت لها:

ـ قولي لهم «الله يعطيكم»... ولينصرفوا في حال سبيلهم.

قال صديقي:

ـ الآن بقيت زوجته المسكينة وحيدةً.

وبما أنني أضعت نهاية الكلام لم أفهم من الذي بقي وحيداً.

قالت زوجته:

ـ إن الوحدانية خاصة بالله... إنها صعبة جداً.

كان الزوجان يتحدثان، ولم أكن أفهم عن أي من الناس يتحدثون.

ـ لا... ولكن كانت تربية ابنهم غير صالحة منذ الصغر... والمرحوم كان يضربه كثيراً، ولم يقل عند ضربه هذا من خلق الله.

ـ الله بيعرف... المرحوم... لماذا نخبئ ما يعلمه الله عن خلقه؟! لم يكن المرحوم ينطق بكلمة واحدة عن وحدانية الله... كنت أقول له يا عبد الله...

ـ كانت للمرحوم طباع سيئة للغاية وهي أنه كثير الاستجداء، لا يعيد حاجة استعارها لصاحبها، يقول دائماً: أعطني... أعطني... أعطني لأن العطاء من عند الله، أتمنى من الله أن تصدق كلامي، لقد سئمت العطاء.

ـ في الليلة الماضية شاهدت حلماً، جعله الله خيراً... الله لا يرينا... ديناصوراً كبيراً جداً... اللهم صل على محمد... في تلك اللحظة وإذا بصغيرنا يصدر قهقهة عالية! ليأخذ الله عمرك... «إن الله مع الصابرين».

ـ طيب ماذا كان صار فينا لو سمعنا كلامك وأعطيناه البنت؟ ليقطع الله تلك القسمة.

ـ ومن الذي رضي بذلك الشاب يا روحي؟ الله أكبر كبيراً... أنت الذي تعرف يا إلهي...

ما كنت أفهم من حديثهما شيئاً، وعما يتحدثان...

كانت المرأة تقول:

ـ لو يأخذ الله روحي... حتى...

أجاب زوجها:

ـ لا قدر الله.

ـ الشكر لله... تخلصنا منه بأقل ضرر.

ـ وليعف الله عن تقصيره.

ـ شاهدي هو الله.

كانت المرأة تضحك، ولم أعرف سبب ضحكها.

ـ ليعطك الله ما يناسبك يا سيدي.

ـ كفى... كفى من أجل الله.

التفت صديقي نحوي وسألني:

ـ وأنتم ماذا تقولون؟

وبما أنني لا أعرف ما سأقوله قلت:

ـ أدام الله في عمره.

ولا أدري هل ناسبت كلماتي موضوع حديثهم... فأنشدني الرجل مقطعاً من نشيد ديني، ولم أعرف ارتباطه بموضوعنا:

ـ «إن ينابيع الجنة تجري وتقول: الله... الله» هذه المرة صرخت من تلقاء نفسي:

ـ اللهم احفظ عقلي... مدد يا الله... لا يجوز الدخول بين الله وعبده.

وحتى الآن لم أعرف لماذا صرخت هكذا... بعد هذه الجملة التي صرختها قال صديقي وهو يقهقه بقوة:

ـ ليمنحك الله ما تستحقه.

ثم دخل صديقي وزوجته في حديث آخر ومشادة أخرى... أما أنا فقد أضعت طرف الحبل ثانية ولم أفهم حديثهما، لكن بعض المقاطع كانت ترن في أذني أحياناً:

ـ ليخلص الله الجميع!

ـ توكلت على الله... ولكن اربط حمارك جيداً ثم بعدها توكل على الله!

ـ وماذا باستطاعتنا أن نعمل ليفتح لنا الله سواء السبيل!

ـ لقد عشت تلك الحادثة كانت الجماهير تصرخ: من يحب الله

ليضرب هذا الزنديق...!

ـ وماذا أقول يعني؟ ليعط الله عقولاً للبشر!

ومهما حصل بينهما فقد بدأ صديقي يصرخ في وجه زوجته:

ـ هَمْ والله... هم تالله... هم بالله...

تداخلت بالكلام كي أخفف من غضب صديقي بعض الشيء ودون معرفتي بما فعلوه:

ـ يصير ما يقوله الله.

أجاب صديقي:

ـ هيا ليقابلك الله به.

وأنا قلت له:

ـ ليتقبل الله كل مرادك.

دخلت في القناة نفسها... وبدأنا نتحدث بنفس الأسلوب، وإذا بصوت قوي يصدر من الخارج، قالت زوجة صديقي:

ـ يا الله... ليأخذ الله روحكِ... لقد كسرت الفتاة شيئاً ما، يا الله تخلصنا من هذه الفتاة.

ثم التفت إلي:

ـ جعلك الله تصدقني، لم أر في حياتي خادمة طائشة بهذا الشكل.

قال زوجها:

ـ لا تقولي هكذا يا هانم... إن الله لا يحب هذا الكلام، هكذا خلق الله المسكينة! ولا سؤال عن حكمة الله.

بعد ذلك لم أعرف كيف انتقل الحديث إلى الحرب الكورية، كان صديقي قد اشترك في الحرب الكورية برتبة ضابط احتياط، وكان يتحدث عن

الحرب كإنسان غجري، فأصغيت إليه جيداً عندما وصل إلى منتصف حديثه:

ـ كان العدو كثير العدد كخلية النحل، أما قوتنا فكانت قليلة، ولكن الله كان معنا، فأعطى قائدنا أمراً بالهجوم، فما كان من عسكرنا إلا أن قاموا بالهجوم وهم يهتفون: الله... الله... كم أنت عظيم يا إلهي! كانت أسلحة الكفار أكثر من سلاحنا، فهجمت عليهم وأنا أصرخ: يا الله... يا بسم الله... وإذ بي... يا الله... أقع وسط طابور الأعداء... نظرت حولي فلم أجد أحداً من عسكرنا، كان الجميع قد استشهدوا، وفي مواجهتي رشاش يطلق النار علي، ومهما حاولت أن أخدع الطلقات النارية بقفزات يمينية ويسارية...

أصغيت إلى حديث صديقي عن الحرب... كان يقف من وقت لآخر، فسألته:

ـ ثم ماذا؟

ـ بعد ذلك...

ثم توقف قليلاً ثم أكمل:

ـ قررت الهرب، ولكن هذا لا يليق بي أبداً والهزيمة عار، ولهذا قفزت نحو الرشاش وأنا أصرخ من كل قلبي... يا الله... تاك... تاك... تاك... كان جسدي قد أصبح كغربال من كثرة الطلقات التي أصابتني، وسقطت كجثة هامدة على الأرض...

فصرخت عليه:

ـ ماذا تقول؟!

ندم صديقي على ما نطق به لسانه: «كنت قد مت» ولكن الكلمة كانت قد خرجت من الفم، فتوقف قليلاً وفكر ثم قال:

ـ نعم... من لا يقتله الله لا يموت، وقفت في المكان الذي سقطت

فيه، وعندما عاد الأعداء إلى مواقعهم ليلاً... ليتك تصدقني... رجعت أنا أيضاً إلى وحدتي... والشكر لله...!!!

بعد أن شاهدت وسمعت تحول صديقي العلماني في زمن قصير قلت في نفسي:

ـ إني على قناعة بأن ذلك الحزب سيفوز في الانتخابات بإذنه تعالى...!

استأذنت ووقفت، قال صديقي:

ـ إلى أي طرف ستذهب إذا كان فيه النصيب من الله؟

قلت:

ـ إلى المنزل.

رافقني الرجل وزوجته إلى مدخل البناء لوداعي، تناولت معطفي وقبعتي عن المشجب وصافحت صديقي وزوجته، أما هما فقالا لي:

ـ بأمان الله...

أما أنا كنت سأقول لهما «إلى اللقاء» ولكن كيف حصل وقلت لهما:

ـ أستودعكم الله.

عندما أصبحت عند الباب الخارجي، دعوا إلي قائلين:

ـ ليفتح الله طريقك.

أما أنا فقلت لهما تلك الكلمة القديمة المستعملة منذ عهد ملك مصر «آمون»:

ـ آمين...

هل تقول العلمانية...؟! هي الأخرى أصبحت بأمان الله...!

○ ○ ○

٢٣

كيف تكتب القصة الساخرة

السيدة كـج الجزيلة الاحترام:

كانت الحفلة التي أقيمت ليلة أمس جميلة فوق العادة، وأما المفاجأة فهي تعارفي على سيدة جميلة مثقفة تصعب على الكثيرين من الكتاب أمثالي، حيث أني كاتب منطوي على ذاته «اعذريني» لقد كانت سعادتي عظيمة لهذا التعارف، وحاولت جاهداً، أن أشرح لك مدى إعجابي بك، ساعة لقائنا الأول عند المساء... إلى حين افتراقنا عند طلوع الفجر... ولا أستطيع أن أقول شرحت لك، بل أقول: حاولت شرح مدى إعجابي، لأنني لم أستطع إظهار هذه الأحاسيس والمشاعر التي كانت تسيطر عليَّ آنذاك، فقد كنا على مدى ساعات طوال وجهاً لوجه والحيرة تأكلنا، ولهذا السبب بقيت طوال الليل أتمتم ببعض الكلمات الجوفاء، لم تصدر عني أية جملة مفيدة أظهر فيها مدى إعجابي بك، ولا أدري هل استطعت شرح إعجابي الكبير بك؟؟ لا... لا... أرجو أن تسامحيني على شرح حبي الكبير لك بتلك الكلمات التي لا معنى لها ولا طعم ولا رائحة، فهمتِ ما قلته لأن إنساناً ما، والأصح من رجل ما، وكاتب لا يستطيع أن يتمتم بالكلمات ساعات طوال إلا إذا ضربته أشعة الجمال الأنثوي التي تشبه إشراقة الشمس.

بينما كنت أحاول إظهار حبي وعشقي لك ببعض الكلمات التافهة، كنت تقولين لي بأنني موهوب كبير في مجال الكتابة الساخرة، وأنك تحبين السخرية والكوميديا كثيراً، ولكن مع الأسف كما قلت لي لا

تعرفين كيفية كتابة قصة ساخرة، وكنت تطلبين مني أن أعلمك الكتابة الساخرة... آه أيتها السيدة المحترمة جداً والحبيبة جداً، من الذي وجد خيراً في الكتابة الساخرة حتى تجد طريقها إليك أنتِ؟! ويا ليتك تحبينني بدلاً من حبك لهذه السخرية، رجاءً لا تفهميني خطأً، لا أريد أن أقول لك إن هذه السخرية لن تجلب لك السعادة لكن سعادتك هي أنا، أمر واحد أود أن أقول لك، لقد بدأت التلعثم في كلامي...

هل تذكرين عندما خرج ضيوف الحفلة إلى الحديقة، وكنا جالسين على الطاولة تحت شجرة الصنوبر وأيادينا متشابكة، ونظراتنا متقابلة، وأرجلنا متلامسة، وأشعة القمر البدر تنعكس على وجه مياه المسبح الصغير؟ وبينما كنت أحاول إعلان حبي لك، وهيامي بك وأتلعثم بكلام تافه كنت تصرين في سؤالك الملحّ عن كتابة القصة الساخرة... كيف وأين وفي أي زمن تكتب القصة الساخرة أو الضاحكة؟ ونحن بهذا كنا نعيشُ إلى حد ما المثل الشعبي القائل «الغنم والروح، القصب واللحم» ونترجمه إلى دراما، وفي الوقت الذي حاولت فيه تقبيل يديك وأنا أتمتم ببعض الكلمات... كنت حينها على وشك أن أقول لك:

ـ اتركي الكتابات الساخرة والمضحكة، ولنتحدث في شؤوننا الخاصة الآن!

اعذريني، فقد كانت هذه الكلمات اللاأخلاقية على وشك أن تصدر مني غصباً عني.

كنا نشرب دون توقف... نشرب على الدوام... لديَّ السبب لأشرب، كنت مضطراً لذلك لأفصح بلغة سليمة، لغتي الأم، عن حبي وهيامي فأدع الخجل جانباً وتتفتح ذاكرتي ولساني... ولكنك وضعت رأسك برأس السخرية، وكانت أسئلتك دائماً عن الكتابة الساخرة! الشراب فتح لسانك، وتأثيره كان يدفعك إلى السؤال أكثر...

كانت الأوركسترا تعزف «الطونا السماوي /الأزرق/» لشتراوس، والصرخات تعلو من المنصة خلف المسبح، هذه الصرخات قد عكرت هذا المنظر الرومانسي، فالجميع متعانقون على حلبة الرقص... أزواجاً وأزواجاً يتهامسون، يقبلون بعضهم، يتعانقون...

طلبت منك أن نرقص لأن فرصتي لن تعوض لأكون إلى جانبك، وأتخلص من هذا الذي يسمى الكتابة الساخرة...

قلت لك ساعتها:

ـ هل نرقص؟

أجبتني:

ـ طبعاً.

لقد دخلنا وسط جموع الراقصين، ولكن لم نكن في حلبة الرقص بل كنا نصعد على سلم مستند إلى مجموعة من الغيوم... نصعد درجاته ونحن نرقص «الفالس» متجهين نحو السماء... يدانا متشابكتان، وخفقات قلبي لا يحصى عددها، ووسط هذا الجو العاطفي الرائع... نعم، بدأت تتحدثين ثانية عن قصة ساخرة ومضحكة... ماذا أفعل بنفسي؟ لطفاً، اعذريني... إذا كان الحب والغرام موجودين، فما أسباب هذه المهزلة والسخرية؟!

وبينما كنا نركض وسط الغيوم وإذا بنا نسقط فجأة في مياه المسبح! ربما تتذكرين ذلك جيداً... لقد أصبحت غارقاً بالعشق... وأنت وصلت إلى القاع! هل تتذكرين من الذي أخرجنا من خزان الماء؟ ما أتذكره أن الجميع قد صفقوا لنا كثيراً ظناً منهم أننا قذفنا بأنفسنا إلى الماء، فما كان منهم إلا أن رموا بأنفسهم إلى الماء وملؤوا الخزان! أما أنت فكنت تطلبين مني وتسألينني كيف ومتى وأين تكتب القصة الساخرة؟!

آخر ما أتذكره هو سقوطنا في حفرة كبيرة تحت شجرة وارفة بعيداً عن

الأضواء الكهربائية وأنا مازلت أتلعثم بالكلام، وأنت تصرين على معرفة كتابة المسخرة والمهزلة والمضحكة، وإذا بذلك الرجل الذي ظننته زوجك قد جاء إلينا مع مجموعة أخرى من الرجال وهو يناديك باسمك... وبينما كان يحاول إخراجك من الحفرة وإذا به يقع فيها أيضاً...!

والحقيقة أنني كنت في موقف حرج ومخجل جداً، وسبب خجلي هو أنك نسيت تصرفات زوجك «الجنتلمانية» وكنت تصرين بالأسئلة عن الكتابة الساخرة، كنت تريدين إظهار مقدرتك مع أن قدراتك كلها كانت واضحة كالشمس! وفي تلك اللحظة وعدتك بأنني سأكتب لك رسالة أوضح فيها كيف تكتب القصة الساخرة، كيف وأين ومتى يجب أن تكتب؟!

وها أنذا أقدم لك بعض المعارف بهذه الرسالة:

أيتها السيدة الحبيبة:

عند الصباح الباكر... لا... ليس عند الصباح الباكر لأنه عندما تستيقظين من نومك يكون الوقت أكثر بعداً عن الصباح!...

وعندما تستيقظين من نومك ظهراً، ولا تسمعين شخير زوجك من الغرفة الملاصقة لغرفتك تعرفين أن زوجك قد ذهب إلى عمله. ومن أجل كتابة قصة ساخرة يجب أن تنوي على كتابتها قبل كل شيء... وهذه النية موجودة لديك، ولكن... وبما أنك لا تستطيعين تجميع أفكارك جيداً قبل تناول الفطور، ثم تدخين لفافة من التبغ... يجب أن تقومي بهذه الأعمال قبل الكتابة: تنادين الخادمة وتطلبين الفطور، وحتى مجيء الإفطار يجب أن تعملي كما في كل صباح أن تقفي أمام المرآة... وبما أن العادة عندك هي تناول الإفطار فوق السرير فيجب عليك أن تعودي إلى سريرك... ويجب على خادمتك أن تركز صينية الفطور فوق اللحاف؛ طبعاً أحزاز الخبز يجب أن تكون محمرة أو مقمرة... إنه أمر غريب،

نفسك مسدودة عن كل شيء! وبينما أنت تأخذين فنجاناً من القهوة ليكون مساعداً للسيجارة تنادين خادمتك وتقولين لها:

- ارفعي هذه الأشياء.

وعندما تدخنين سيجارة تلو الأخرى يعني هذا أنك جاهزة لكتابة القصة الساخرة، وقبلها تقولين في نفسك: «يجب أن آخذ دوشاً قبل البدء» وتدخلين الحمام، وتغيرين قرارك ثانية... بدلاً من الدوش تدخلين «البانيو» الساخن كي تزيلي عن كاهلك تعب الأمس.

ولكي تكتبي قصة ساخرة جميلة يجب أن تكون ثقتك بنفسك عالية، ومن هذه الناحية أعطيك الحق كل الحق لتبقي مدة أطول في حوض الماء الفاتر... هذا يعني أن مزاجك وذهنك قد تفتحا واستقريت نفسياً، ولأجل مزيد من الثقة ترفعين إحدى ساقيك نحو الأعلى كما في أفلام الحب التي نشاهدها، ثم تنظرين إلى ساقك من خلال المرآة الكبيرة الموضوعة على الجدار القريب، وتضعين عليه رغوة الصابون... إياك أن تتحسسي بكلامي... بعد ذلك وقبل استعمال «معطف الحمام» المنشفة والمياه تنزل من جسمك يجب أن تجمعي نهديك بين يديك وتنظري إلى المرآة... هذه العملية ترفع كثيراً من معنوياتك كي تكتبي قصة ساخرة!

تكون الساعة قد أصبحت الحادية عشرة، ومع أن هذا الوقت مناسب لكتابة القصة الساخرة ولكن موقفك ليس ملائماً... عليك أن تجلسي إلى طاولة التواليت الصباحي كي تزيدي من جمالك العادي جمالاً أكثر بالمكياج الصباحي الذي تستعملينه... افتحي أدوات التبرج وابدئي بالزركشة لأن التبرج يزيد من ثقتك بنفسك كثيراً.

وعندما تنتهين من الزينة تسرحين شعرك حسب ذوقك، وبعدها ترتدين ما يجب لباسه في ذلك اليوم، يدلّ هذا أنك جاهزة كلياً لتكتبي القصة الساخرة، والساعة تكون قد صارت ١٣,٣٠ يعني أنك أحسست

بالجوع، وماذا أكلت من طعام الفطور؟ ويجب أن لا تنسي أن الإنسان لا يستطيع كتابة قصة ساخرة وهو جائع، يجب أن تشبعي بطنك تماماً كي تكتبي قصة ساخرة جميلة... ومن أجل هذه الكتابة يجب أن تضحي وتأكلي طعام الغداء وحيدة، إيه... وماذا ستفعلين يعني؟ إن كتابة قصة ساخرة تساوي هذه التضحية وربما أكثر!! أين ستتناولين طعام الغداء؟ على طاولة الصالون أم بين ورود نيسان في الحديقة؟ أم أمام المسبح الموجود على طرف الحديقة؟ من الأفضل أن يبدأ الإنسان بالكتابة الساخرة بعد أن يمتع نظره بالمناظر الجميلة، وإذا كان الأمر هكذا فيجب أن تضعي المنضدة داخل أصيص الأزهار! هل تقبلين بالحساء؟ ما رأيك باللحم المشوي أو السمك فهو الآخر طيب؟ هل تريدين صلصة مع زيت زيتون صاف؟ فاصولياء خضراء؟ أو رمان أرضي؟ وإذا أردت يوجد الطبيخ المدعوم، كيف؟ أليست الحلوى المصنوعة من العجين ثقيلة على المعدة؟ إذا كان الأمر هكذا، ما رأيك بمشتقات الحليب مثلاً؟ صدر فروج؟ كيف يجب أن تكون قهوتكم يا سيدتي؟، هل تريدينها وسطاً كما في كل مرة؟

هكذا، وعلى ما أعتقد تكونين قد جهزت نفسك للكتابة الساخرة، ولكن هناك شيء يجب أن أذكرك إياه وهو أنه لا يمكنك أن تكتبي شيئاً من القصص الساخرة وبطنك شبعان! فقصة ساخرة جميلة لا يستطيع المرء كتابتها وهو جائع، كما لا يستطيع كتابتها وهو شبعان... هذا واضح يا سيدتي...

الآن يبدأ النعاس بمداعبة عينيك فالنعاس متعلق بجفنيك عند كل فتحة تغيبين من أعماقك وتتثاءبين وكأن عظامك خرجت من مقراتها... إن القصة الساخرة لا تكتب وأنت تشعرين بالنعاس... أفضل شيء أن تنامي الآن... ثم تكتبين بعد النهوض من النوم... تقولين كم الساعة الآن؟ ما زال الوقت مبكراً يا سيدتي، الساعة (١٥,٢٠) مازال أمامك الوقت الكافي لتكتبي قصة ساخرة... نوماً سعيداً يا سيدتي...

ولكن لماذا استيقظت هكذا بسرعة؟ مازالت الساعة (١٧,٤٠) إنه وقت مناسب، تستطيعين البدء بالكتابة... آ آ آ... أتقولين رنَّ جرس الهاتف؟ لترد الخادمة... من هي يا ابنتي؟ هل هي «سفتاب»؟ أعطني الهاتف... آ آ... سفتاب، حبيبتي، يا روحي، كيف حالك يا سكّرتي؟ طبعاً، طبعاً تفضلوا... هل تقولين يلويز وأيتان قادمتان معك؟ آمان... أكون ممنونة كثيراً، فليتفضلوا، أنا بانتظاركم يا روحي... أقبلك.

ها قد جاء ضيوفك على شاي الساعة الخامسة، إنه وقت مناسب للعب ورق الشدة... إن أحسن وقت للكتابة، وخاصة كتابة القصة الساخرة هو الليل يا سيدتي! أفضل شيء الآن أن تلعبي ورق الشدة براحة، وتبدئين كتابة القصة الساخرة بعد ذهاب ضيوفك، عندها يكون فكرك مرتاحاً...!

وأنت تلعبين ورق الشدة تشربين الويسكي وفي الوقت نفسه تدخلين في مجال القال والقيل أيضاً... لم تتعلمي لعب ورق الشدة، اللعب ينتهي على الأكثر في الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً... وعندما تظلين لوحدك تكتبين طيلة الليل وأنت تستمعين إلى نداءات أعماق روحك.

كم الساعة يا أولاد؟ هذا السؤال سألته واحدة من ضيوفك، وأنت تقولين /طبعاً للضرورة التركمانية/:

ـ ولك حبيبتي الساعة لم تصبح بعد الحادية عشرة، لماذا أنتن في عجل؟

أنت قلت ذلك... وهن عندما يقلن كما قلت أنت بنصف فم، إن أزواجهن على وشك الحضور إلى البيت. عندها تقولين لهن:

ـ آ آ آ... اتصلوا مع بيوتكن واطلبن من أزواجكن أن يتفضلوا بزيارتنا، يكون عندها زوجي على وشك الحضور.

عندما قلت تلك الكلمات بنصف فمك لم يأخذن الأمر بجدية، فركبن سياراتهن ورجعن إلى بيوتهن... وأنت تتأملين كتابة قصة ساخرة في أعماق الليلة الساكنة، ولكن ذلك لم يحصل كما توقعت، ضيفاتك اتصلن ببيوتهن، كان أزواج البعض لم يصلوا إلى بيوتهم أما الآخرون فكانوا مستغرقين بالنوم:

ـ انظر إلي يا روحي... نحن الآن آيتان و فيليز نحن عند (ج ـ ك)... أتصل معك من هناك، كنت سأحضر إلى المنزل ولكنها دعتنا إلى الطعام جميعاً... ومع أننا قلنا لها لا يجوز هذا الشيء إلا أنها أصرت كثيراً... ويا له من إصرار! حتى إنني أرغمت على القبول بالبقاء باسمك... هيا اركب سيارتك وتعال يا روحي، نحن جميعاً بانتظارك هنا... ماذا؟ تقول نمت؟ وماذا أيضاً يعني؟ هل ينام الإنسان باكراً كالدجاج؟ وخاصة أنا غير موجودة في المنزل... هيا تعال... ننتظرك.

عند الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً تجلسين مع ضيوفك على مائدة الطعام... أكلتم وشربتم وتسليتم وقضيتم وقتاً جميلاً، كانت الساعة قد صارت الثالثة من صباح اليوم التالي... رحل ضيوفك فقال زوجك:

ـ ليلة سعيدة يا روحي.

وأنت قلت له:

ـ ليلة سعيدة يا حبيبي.

جلست على الطاولة الصغيرة في زاوية غرفة نومك، ولكن... لا... هذا غير ممكن... لأنك سكرانة! لا يستطيع الإنسان أن يكتب قصة ساخرة وهو سكران... وفوق ذلك كله ثقل النعاس على عيونك... لا... لا... لا تستطيعين الكتابة وأنت نعسانة، بالنسبة لعدم الكتابة لا تستطيعين، رجاء اعذريني لأن القصة التي كتبتها لا تشبه أي نوع من أنواع القذارة... أفضل شيء أن تكتبي القصة التي في رأسك والتي

تريدين إظهار قدراتك من خلالها، أن تكتبيها غداً عندما تستيقظين من نومك. تقولين عندك موعد مع إحدى صديقاتك؟ إن صباحات الله لم تنته بعد يا سيدتي... هناك صباح غد... وبعد غد... وبعد بعد غد... صباحات كثيرة...

في هذه الفترة لو تتكرمي علي بموعد آخر أكون سعيداً جداً... وأريدك أن تعرفي هذا... صدقيني إن هدفي هو إظهار موهبتك بالنسبة للكتابة الساحرة...!

مع تحياتي وحبي وأشواقي.

○ ○ ○

٢٤

مكان تركيا في النظام العالمي الجديد

لم يكن هذا الاجتماع مقرراً في أحد الفنادق ذات النجوم الخمس، بل كان مقرراً أن يعقد في صالون كبير تابع لإحدى المنظمات الديمقراطية... هذا ما أوردته النشرة. كما جاء فيها أيضاً أن نظاماً جديداً على وشك الوجود، وسيكون للانطلاقة تأثير كبير على بلادنا، وقد ورد في النشرة أسماء جميع المستثمرين والأعمال التي سيقومون بها.

والمجموعة الاستثمارية كانت تتضمن من الأسماء الذائعة الصيت في مجال التقدمية والديمقراطية وأكثريتهم من طبقة المثقفين اليساريين وخاصة من هيئة التدريس الجامعي وبعض الكتاب والصحفيين، كما أن هناك مجموعة أخرى من المستثمرين تعمل في مجال الفن المسرحي، بالإضافة إلى بعض الرسامين والمهندسين والموسيقيين.

لقد أضفي وجود هذه الأسماء على الاجتماع جدية واهتماماً كبيرين من جميع الأوساط، ولا أريد الآن أن أتفاخر بنفسي لأن اسمي حشر بين هذه الأسماء الكثيرة...

أما موضوع المناقشة فقد كان واضحاً وجلياً وهو: «الدور الجديد للانطلاقات الأيديولوجية في النظام العالمي الجديد من زاوية النظام الاجتماعي، ومكانة تركيا في هذا النظام».

رغم وضوح الموضوع وجلائه فإن أحداً لم يعرف غبائي أكثر مني...! فأنا لا أستطيع البوح بمرضي الاجتماعي والفكري لأحد، وحتى هذا التاريخ ومع وضوح وجدية الموضوع، فلم أستطع فهمه على أكمل وجه

لأنه منذ استلامي النشرة التي أحضرها لي ساعي البريد وحتى الآن، مازلت أفتش عن أي معنى لهذا الموضوع المطروح للمناقشة والذي يتركز على النظام الاجتماعي... في داخل ماذا؟ في داخل ماذا؟! داخل الاجتماعية... داخل النظام الاجتماعي...

وعندما تفكر ملياً بالانطلاقات الأيديولوجية في النظام العالمي الجديد... هذه الجملة الأخيرة ترددت على مسامعي كثيراً في الأشهر الأخيرة، وكنت أقرأها في الصحف والمجلات... ولكن لم أكن أفهم معنى هذه الجملة أبداً، وأصبحت على قدر كبير من المعرفة وسعة الاطلاع لدى ملاحظتي استخدام الأحرف الأولى لهذه الجملة كتابياً في الصحف، وسماعياً... النظام العالمي الجديد /ن - ع - ج/ كما هو الحال في البريد /P.T.T/ أو استخدام الأحرف الأولى من عبارة (مجلس الأمة التركي الموسع) /T.B.M.M/ وهكذا... وأي شخص يتحدث مستخدماً الأحرف الأولى لهذه الجملة، أي النظام العالمي الجديد، كان يعتبر من أعلام المثقفين، أي أن لسانه مثل لسان العصفور... إن الذين يستخدمون هذه الحروف بدلاً من الكلمات يبغون إظهار أنفسهم أكثر عمقاً وثقافة من الشعب العادي... وهذه هي الحقيقة بالنسبة إلي، فمثلاً لو أكتب مقالة لهذا الشعب الجاهل كما تكتب الصحف: «إن الإرسالية التي تمت من /AIHK/ بطلب من /MGK/ و/DPT/...» لو قلت هذا الكلام ماذا يفهم الشعب الجاهل من كلامي الواضح؟ لا شيء... ما الشيء الذي يفهمه حتى يفهم هذا؟! ولكن إذا قلت الكلام بطريقة أخرى فالجميع سيفهمونني وخاصة المثقفين: «إن الإرسالية التي تمت بطلب من هيئة الخطط العامة للدولة، ومن محكمة الأمن العليا... إلى لجنة حقوق الإنسان العالمية...».

أنا شخصياً لا أفهم قصد هذه الكلمات ومعناها، فكيف سأفهم موضوع المناقشة التي سنقدمها؟! كان المرحوم والدي يقول لي: «أن لا

تعرف فهذا ليس عيباً، فالعيب هو التوقف وعدم الدخول إلى المعرفة» ولهذا قلت في نفسي الأفضل أن أسأل أحد العارفين بموضوع المناقشة المطروحة وبذلك أستطيع فهمه.

سيعقد هذا الاجتماع في أحد الأيام الجميلة من شهر نيسان، الساعة العاشرة صباحاً، كما جاء في نهاية النشرة... وهناك فترة استراحة مدتها خمس وأربعون دقيقة لتناول طعام الغداء والذي يبدأ في الساعة (١٣,٣٠) ويستمر الاجتماع لغاية الساعة (١٩,٣٠) وباستطاعة الحضور الدخول في المناقشات، ولهم الحق في طلب الحديث.

والحقيقة كنت أسمع عن النظام العالمي الجديد من مدة ليست بقصيرة، كنت أقرأ عنه في الصحف والمجلات... ولكن المعلومات لم تكن كافية عن الموضوع، فالجملة تتكرر كثيراً... ولكن ما هو النظام العالمي الجديد؟ كانت هناك جملة صغيرة تستعمل قبل وأثناء وبعد الحرب العالمية الثانية في عهد النازية... «النظام الجديد» هذه الموضة باتت في طي النسيان منذ مدة طويلة، وهل أعيدت لنا هذه الفكرة بعد إخراج نموذج جديد تحت اسم النظام العالمي الجديد؟!

وبما أنني لم أكن أعرف معنى النظام العالمي الجديد، فأنا أيضاً لم أعرف موقع تركيا ضمن هذا النظام، ولكن الشيء الذي كنت أعرفه أن لنا موقعاً ما في أي مكان من العالم، ولنا دور وموقع في أي زمان ومكان. إذا تم تغيير مكان تركيا في هذا النظام الجديد للعالم لاستطعت أن استنبط مبدأ أو شعاراً لهذا النظام، ولكن موضوع المناقشة ليس في هذا الاتجاه إنه يتركز حول الدور الجديد الذي تلعبه المنطلقات الأيديولوجية وموقع تركيا منها، إن محاولة فهم هذه الديباجة المعقدة ما هو إلا وضع حجرة في مهب الريح! وبما أنني محسوب من طبقة المثقفين المتميزين في تركيا، فالواجب يقضي أن أحضر نفسي حتى لو لم أكن أفهم الصيغة المطروحة

فأتمثل المعرفة الكلية، وهذا ما كان علي أن أعمله، لقد قلبت صفحات الموسوعات والمعاجم اللغوية كلها كي أفهم النظام الاجتماعي، والمنطلقات الأيديولوجية ودور النظام العالمي الجديد ولكني لم أتوصل إلى نقطة واحدة من المعرفة الحقيقية، لقد عثرت على بعض الكتابات عن هذا الموضوع في بعض المجلات، ولكن فهمي لم يتطابق عند الجميع فكان كل كاتب يرى في هذا النظام الجديد بادرة وشيئاً ما، وكما يقول البعض: إن النظام العالمي الجديد هو خلاص لتركيا... والبعض الآخر: إنه سحق للعالم وتدميره وبالأحرى تدمير وسحق تركيا، ولهذا السبب قررت أن أذهب إلى الاجتماع باكراً لأسأل المطلعين على الأمر وآخذ بعض المعلومات وخاصة من الذين سيتكلمون قبلي.

هذه الموضوعات التي سآخذها كنت سأطرحها على الآخرين عندما يأتي دوري كمتحدث أو خطيب على المنصة. وكما قلت كان موعد الاجتماع عند الساعة العاشرة. فحضرت إلى الصالون الكبير في التاسعة والنصف ولم أجد أحداً هناك ولكن في الساعة العاشرة حضر عدة أشخاص إلى الصالون... لم يكن أحد يهتم بهذا الموضوع الشيق أبداً، ولهذا السبب شعرت بغضب شديد لهذا التأخير وحاولت أن أقول بعض الكلمات في هذا المجال حيث قلت في أحاديثي الجانبية:

ـ لم نتعلم قيمة الوقت وقيمة الاجتماع في الوقت المناسب أبداً.

فقال أحد الذين جاءوا بعدي وهو ينظر إلى ساعته:

ـ الساعة العاشرة وعشر دقائق، مازال الوقت مبكراً.

قلت:

ـ إن موعد الاجتماع هو الساعة العاشرة يا سيدي.

ـ ولكن في أوربا يعطون مهلة تأخير خمس عشرة دقيقة تسمى التأخير

الأكاديمي، وبما أن المشتركين في الاجتماع أكاديميون... وحتى لو لم يكونوا أكاديميين... يجعلون أنفسهم أكاديميين...!

قال شخص آخر:

ـ سترون أن القاعة ستمتلئ بكاملها عند الساعة العاشرة والربع.

والحقيقة أن الحضور بدأ بالتزايد، ولكن الاجتماع لم يلتئم بعد.

قلت:

ـ لقد انتهى وقت التأخير الأكاديمي والاجتماع لم يبدأ بعد...!

قال ذلك الرجل:

ـ أضيفوا ربع ساعة أخرى على حساب «التوركيش» التركية!

والحقيقة فقد غصت القاعة عن آخرها عند الساعة العاشرة والدقيقة الثلاثين.

مرة أخرى قال الرجل:

ـ ادعوا ربكم أنه لم يدع أحد من الوزراء والمسؤولين أو رئيس الوزراء، لأننا كنا سننتظر أكثر من ساعة، وهذا التأخير يسمى عندنا بالتأخير الديمقراطي... غير التأخير الأكاديمي والتأخير التركي...!

بدأت الأصوات ترتفع من داخل القاعة ليبدأ الاجتماع، صعد شخص إلى المنصة وكان قصير القامة، أبيض اللون، مدعبلاً، قبيحاً إلى حد كبير... هذه الشخصية تشبه شخصيتي إلى حد كبير، وربما كنت أنا ذلك الشخص...!

تحدثت الشخصية عن أسباب التأخير... وأضافت سبباً آخر إلى جانب التأخيرات التي ذكرناها: تأخير استانبول المروري... وقالت أننا سننتظر حتى الساعة الحادية عشرة والنصف لنعقد الاجتماع...!

خرج صوت من داخل القاعة:

ـ أية حادية عشرة ونصف يا رجل؟! الساعة الآن الثانية عشرة وأربعين دقيقة.

قال الرجل الواقف على المنصة:

ـ إن التأخير حتى الساعة الحادية عشرة والنصف أمر عادي وطبيعي جداً...

قالها بصيغة مازحة... وعندما شعر أن أحداً لم يضحك على مزاحه هذا بدأ بالضحك وهو يهز كرشه هزاً...

لم تتسع القاعة للقادمين الجدد فتم وضع كراسٍ متحركة بين الصفوف... وعندما اشتد الزحام وضاقت القاعة بالحضور أضيفت الكراسي خارجها.

قال أحد الحضور وقد رفع إحدى يديه:

ـ أريد أن أتحدث... وحسب الأصول المتبعة.

أجاب أحد الجالسين في الصف الأمامي، وربما هو من اللجنة المنظمة:

ـ ما هذا الأصول الذي تقوله ولك أخي؟! الاجتماع لم يبدأ بعد، ولم يلتئم أفراد الديوان بعد.

ـ يومية الاجتماع واضحة وجلية: «الدور الجديد للمنطلقات الأيديولوجية والأنظمة الاجتماعية في النظام العالمي الجديد، وموقع تركيا فيها».

بدأت مناقشة على شكل لغط تردد في أرجاء القاعة الكبيرة... هل يمكن بدء المناقشة حسب الأصول قبل طرح الموضوع للمناقشة أم لا؟! كثر اللغط والهرج وتعالت أصوات مبهمة... عندها اعتلى أحد المسؤولين المنصة ليضع حداً للمشادة الكلامية التي حصلت في القاعة، فاقترب من مكبر الصوت وحاول أن يعرف إذا كان المكبر يعمل أم لا، فسعل سعلة

قوية غير أن مكبر الصوت لم يكن يعمل، فهمنا سعلته من خلال حركة فمه ووجهه وتصرفه دون أن نسمع سعلته.

قيل إن مكبر الصوت لا يعمل... والحقيقة أنه كان يعمل، ولكنه كان يضخم صوت الإنسان بحيث لا تعرف أنه صوت إنسان عادي بل كان يخرج أصواتاً عجيبة وغريبة مضخمة كأصوات البواري وبعض أنواع المزامير والهواء المضغوط في صنابير المياه وأبواب الحديد الصدئة... وأصواتاً أخرى تشبه صهيل الأحصنة ونهيق الحمير وصفير الرياح العاصفة، وأصواتاً أخرى غير موجودة في الطبيعة!

حاولوا الحديث دون مكبر الصوت ولكن القاعة كبيرة، والصوت يختنق داخلها قبل الوصول إلى آذان الحضور... بحثوا عن شخص ليقوم بتصليح مكبر الصوت، وحسب ما يدعي البعض فإن الشخص المسؤول عن مكبر الصوت كان موجوداً ولكنه غادر المكان إلى منزله... ولكن أين منزله؟! وهل يعرف أحد مكانه؟ يجب أن يرسلوا شخصاً إلى منزل الخبير لإحضاره وتصليح صوت مكبر الصوت... وأخيراً عثروا على ذلك الشخص، ولكن الذهاب والعودة سيأخذان أكثر من نصف يوم على أقل تقدير، وربما أكثر في خضم اختناق المرور في شوارع استانبول...! وعندما قطع الأمل من إحضاره ارتفعت الأصوات في القاعة تنادي: سيد رجائي... سيد رجائي... فسألت الذين يجلسون جانب:

ـ من هو السيد رجائي؟

فقالوا:

ـ إن السيد رجائي يصلح قداحات بشكل ممتاز.

فسألتهم عن العلاقة بين القداحة ومكبر الصوت، قالوا إنه لا يصلح قداحات فقط بل يصلح النظارات وأقلام الحبر... لقد اختلطت أفكاري وتشوشت بما فيه الكفاية، فسألت عن العلاقة بين تصليح مكبر الصوت

وتصليح أقلام الحبر والقداحات والنظارات!! أجاب الرجل:

ـ لماذا لا تفهم يا سيدي؟! إن السيد رجائي لا يصلح فقط النظارات وأقلام الحبر والقداحات فقط، بل إنه يقوم بتصليح البرادات والغسالات والمكانس الكهربائية والآلات الكاتبة وأجهزة الكمبيوتر، وآلات وأدوات تكنولوجية أخرى كثيرة... إنه يفهم في كل الأمور، وبما أنه خبير بتصليح جميع هذه الأدوات فبالتالي سيكون عنده خبرة عن مكبرات الصوت وإصلاحها، لأن الرجل كان يعمل طياراً، كنت قد نسيت موضوع المناقشة والاجتماع تماماً، أفكاري متجهة كلها نحو السيد رجائي، وكيف يقوم بتصليح جميع الأدوات التي ذكرها، فسألت الرجل بجانبي:

ـ كيف يقوم السيد رجائي بتصليح جميع هذه الأدوات؟!

ـ إنه عطاء من الله.

وبهذا أقنعوني أن بإمكان السيد رجائي تصليح مكبر الصوت، فأصبحت أردد مثلهم:

ـ سيد رجائي... سيد رجائي.

فجاء صوت السيد رجائي مخنوقاً:

ـ أنا هنا.

كان الرجل المسكين في التواليت وعند خروجه منه أعلموه بالأمر فأكد الرجل أنه لم يقم في حياته بتصليح مكبر الصوت أو ما شابه، ولكن لو كان لدينا «بانسة» ومفتاح انكليزي، ومثقب، وقدوم ومطرقة و و و... فسأحاول إصلاحه.

قال أحد المشتركين في الاجتماع ساخراً:

ـ وهل يلزمك «فنبخ» يا سيد رجائي.

وقال آخر:

ـ لو وجدت هذه العدة والأدوات... فأبي يستطيع إصلاحه.

عندها قال السيد رجائي بنبرة قوية:

ـ إذا كان هكذا فابعث خلف أبيك حتى يقوم بتصليحه، أنا لا أستطيع القيام به... ثم مشى وجلس في زاوية القاعة.

في تلك الأثناء ظهر شخص أفاد بأنه يعرف خبيراً وهو من حي ملاصق لحيه، فأحضره إلى القاعة... بدأ الخبير بتعيير صوت مكبر الصوت خلال دقائق قليلة، وكانت الساعة تقارب الثانية عشرة وعشرين دقيقة.

كان صوت الخبير يخرج من خلال مكبر الصوت... واحد... اثنان... ثلاثة... صوت... صوت ليقوم بتعيير مكبر الصوت.

كان أحد المشتركين يقوم بالبحث والتشاور مع الجالسين حول التكنولوجيا الموجودة عندنا:

ـ لا أدري سبب وحكمة هذا الشيء أبداً.

ـ وما هو هذا الشيء؟

سألوه.

ـ الجنابة... لماذا انقرضت بعد وصولها إلى تركيا؟

ـ أي جُنبٍ؟

ـ هذا المكبر الصوت وأمثاله من أدوات من أدوات التكنولوجيا... هذه الأدوات المجنبة تعمل في بلد تصنيعها على أكمل وجه، وعندما نأتي بها إلى بلدنا وبمجرد عبورها الحدود لا نعرف ماذا يجري لها... هذا الجنُب... قبل دخوله الحدود يعمل بصورة طبيعية، وعندما يدخل بلدنا يصبح أكواماً لا فائدة منه...! ما هذه الحكمة يا ترى؟! هل هي من داخلنا أو من هواء بلدنا أو مائها؟

قال أحد الأساتذة الذين أعرفهم جيداً:

ـ ربما كلامك صحيح، انظر، أنا لم تخطر هذه الفكرة على بالي... وكما أن بعض أنواع النباتات لا تزرع عندنا مثل القهوة، فالتكنولوجيا مثلها!

وقال أحد العلماء... والذي لا أعرف في أي مجال علم يعمل:

ـ انظروا... هذا وارد أيضاً، وكما أن الفيلة لا يناسبها هواء بلادنا ربما التكنولوجيا مثلها؛ لذلك مكبر الصوت لم يعمل...!

في الوقت الذي أعطيت فيه بعض التعليقات كان الخبير قد أصلح مكبر الصوت وأصبحت الأصوات تسمع بوضوح من مكبر الصوت الذي قال عنه أنها «مجنبة»، حتى مكبر الصوت يقوم بتصليح صوت المتحدث وإيصاله إلى المستمعين على أكمل وجه، ومع هذا مازال مكبر الصوت يصدر أصوات صفارات ومزامير وأصوات حيوانات من الطبيعة، ولكن لمدة قصيرة... ويعود الصوت ثانية إلى ما كان عليه من الصفاء... فقال الخبير إن هذه الأصوات ليست من مكبر الصوت بل من المتحدثين أنفسهم! بعض المتحدثين كانوا يتحدثون بانفعال شديد بحيث كانت كلماتهم تخرج من الرئة كالصفير وعندها يصدر مكبر الصوت بدلاً من صوت الإنسان صوت زمور...

قال أحد المستمعين:

ـ هذه الآلة ليست إنساناً حتى تتحمل كل هذا الصراخ والعويل فما هي إلا مكبر صوت ناعم.

وقال أحد المشتركين:

ـ اتركوه يصفر ويزمر... لا ضرر من سماع بعض أصوات المزامير! بالأساس نحن تأخرنا كثيراً... هيا لنبدأ...

وبينما كانت بعض الأصوات تصدر مشابهة لذلك الصوت، وإذا بالخبير الذي يصلح مكبر الصوت يرفع يديه وكأنه يريد أن يقول: «لقد

فعلت كل شيء لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك» ثم ترك المنصة وانصرف.

كانت الساعة قد أصبحت الثالثة عشرة، وحسب النشرة يجب أن تجري انتخابات لتشكيل هيئة للندوة ورئيساً لها، استغرق الانتخاب وقتاً طويلاً بسبب الجدل والخلاف بين جميع الأطراف! هذا الجدل والصراع في انتخاب المجالس وصل حتي إلى داخل الأحزاب العقائدية؛ كان بعضهم يفضل أن يكون أحدُ الأشخاص الذين عملوا مدة طويلة في هذا المجال رئيساً للندوة، ولكن صوته لم يسمع من خلال مكبر الصوت، أما الذين لا يرغبون به فكانوا يقولون:

ـ أيها الزملاء، إن صوته لا يسمع... فكيف سيصبح رئيساً؟!!

وكان الذين يفضلونه يقولون:

ـ إنه لا ضرر من عدم سماع صوت الرئيس أبداً، ولكن الأصول أن يجلس الرئيس على كرسي الرئاسة.

قال أحد المناوئين لرئاسة ذلك الإنسان:

ـ ولكن يا أخي، آمنا وصدقنا أن صوته لا يسمع، ولا حاجة لسماعه، ولكنه لا يسمع الآخرين أيضاً!!

ـ آه... آه... يا ليت الأيام تعود لتروا عندما كان يسمع وعندما كان صوته يعلو... كان رئيساً بمعنى الكلمة...!

ـ ولأجل هذا السبب أنا أريده أن يكون رئيساً للديوان، إن الرجل المسكين قد اعتاد على هذا النوع من العمل، وإذا لم نعينه رئيساً للندوة فسيكون حزيناً...!

في نهاية المطاف تم انتخاب شخص آخر للرئاسة، وانتقلت المناقشة لانتخاب عضوين كاتبين، لم يترشح أحد لهذه الوظيفة. فأرغموا أحدهم

ليصبح عضواً! أما الآخر فكان يعاند كبغل «المعذرة» وهو يصيح:

ـ لا أريد أن أكون عضواً كاتباً في الديوان!

قال:

ـ أيها الزملاء أنا لا أرغب أن أكون كاتباً، لأن وظيفة الكاتب هي تسجيل الأوراق الصادرة والواردة ومحاضر الجلسات، وهو مرغم على ذلك أما أنا فلا أستطيع الجلوس المتواصل أكثر من عشر دقائق! لأنني مصاب بمرض البروستات؛ فأضطر للتبول كل دقيقتين أو خمس دقائق «المعذرة» فكيف تجعلون مني عضواً كاتباً في الندوة؟!!

المهم... وجدنا شخصاً وضعناه كاتباً في الندوة، وتم تشكيل هيئة الندوة كاملة.

رفع أحدهم يده وطلب أن يتحدث حسب الأصول وقال:

ـ إن موضوع المناقشة جاء خطأ لأن موقع تركيا سيكون في جميع الأزمنة والأمكنة والأنظمة، ولا يمكن أن يكون لتركيا موقع آخر في العالم...!

فخرجت أصوات بالموافقة على هذا الرأي، وأصوات أخرى مناوئة... واختلط الحابل بالنابل... الجميع يتحدثون دفعة واحدة، ولا أحد يفهم من الأحاديث شيئاً...!

في هذه اللحظة تماماً التقت نظراتي برئيس الندوة الجديد، كان المسكين قد أسند رأسه كطفل رضيع على كتف أحد أعضاء الهيئة الجديدة وراح في سبات عميق!! وكلما سحب العضو رأسه نحو الخلف كان الرئيس يبحث عن مكان يضع فيه رأسه ليواصل نومه!

ارتفع صوت من القاعة يقول:

ـ أريد أن أتحدث حسب الأصول.

تم إيقاظ الرئيس بحركة خفيفة من أحد الأعضاء، فصعد الرجل إلى المنصة بخطى ثابتة وأخرج ساعته من جيبه وقال:

ـ أيها الأخوة الأعزاء المحترمون، الساعة الآن (١٤,٣٥) قبل ساعة من الآن كان يجب أن نكون على طاولة الطعام، وبالأحرى انتهينا منه، ويجب أن نكون قد انتقلنا إلى الجلسة المسائية، وحتى الآن لم نصل إلى نتيجة...! لذلك من الأفضل تأجيل موضوع المناقشة، حيث أننا لم نتفق على صيغة الموضوع المطروح، لا تنتظروا منا أن نضحي أكثر من هذا، فيجب قبل كل شيء أن نقرر إما الاستمرار في المناقشة ببطون جائعة، أو تأجيلها ومن ثم الذهاب لتناول الطعام...

وبهذه الكلمات بدأت مناقشة أهم المواضيع على الإطلاق، وبما أن الكلمات كانت تصدر من عدة أماكنٍ وأفرادٍ دفعة واحدة... عندئذ طرح أحد أعضاء الندوة الأمر على التصويت: هل ترفع الجلسة من أجل تناول طعام الغداء؟ أم نتابع الجلسة وبعدها نتناوله؟ فطلب الرئيس من الموجودين الموافقة برفع الأيدي:

ـ أيها السادة، من يريد التوجه مباشرة إلى الطعام؟

رفع الجميع أيديهم، فقال الرئيس:

ـ تفضلوا إلى الطعام...

سمع الرئيس أحدهم يقول:

ـ حسب الأصول...

قال الرئيس:

ـ ما هو الأصول؟

ـ إنكم لم تأخذوا الأصوات المضادة...!

فاقترح الرئيس بأخذ أسماء الذين لم يتحدثوا... فطال زمن تسجيل

الأسماء من قبل الكاتب، وعند الساعة الخامسة عشرة تم تسجيل الأسماء كاملة...

كان المستمعون قد رفعوا أيديهم دفعة واحدة ليأخذوا دوراً في المناقشة...! عندها جرت مشادة كلامية بين من هم مع تسجيل الأسماء، ومن هم ضد التسجيل...! كيف يجب أن تكون المناقشة عادلة؟ سيكون الكلام بالدور... من المفروض أن يوضح هذا الأمر مسبقاً.

قال أحدهم:

ـ إن نسبة كبيرة من الحضور هم من مرضى السكري، وأنهم يصابون بعض التوترات السكرية كونهم لا يستطيعون البقاء طويلاً دون طعام، وأنه من الأفضل أن يأخذوا الأفضلية في الحديث...

يطرح كل اقتراح على التصويت... لكن مرضى السكري لم ينجحوا في هذا التصويت، فرد أحد المرضى بعصبية شاتماً، وقال:

ـ أنا بدي اعمل كيت وكيت في مثل هذه الديمقراطية...!

نهض أحد المستمعين وصرخ قائلاً:

ـ إن الساعة أصبحت (١٥,٣٠) وحتى هذا الوقت لم يذكر أحدٌ بعد الموضوع الذي جئنا من أجله وهو: «الدور الجديد للمنطلقات الأيديولوجية للنظام الاجتماعي في النظام العالمي الجديد، وموقع تركيا فيها».

وذكر الرجل أن هذا الموضوع دقيق وحساس... وأنه يمكن تناول الطعام في أي وقت كان... أما هذا الموضوع فلا يمكننا مناقشته في أي مكان، وأنه من اللازم أن نضحي ببعض الوقت كي تتم مناقشته نظراً لأهميته للوطن والبلد... ومن يحب وطنه يجب عليه مناقشة هذا الأمر... وبهذا فُتح باب صراع جديد بين الرئيس وهذا المواطن:

ـ يا سيدي يجب أن تأخذوا أصوات الذين لا يريدون تناول طعام الغداء...

ـ يا سيدي إن الأكثرية يقولون أنه يجب تناول الطعام مباشرة، لقد رفعوا أيديهم في الهواء...

ـ ليكن يا سيدي... الأصول هكذا... وأنت مرغم على تطبيق النظام الداخلي والأصول.

ـ طيب يا سيدي... إذا كان ذلك وارداً في النظام الداخلي فأنا ألتزم بالنظام... من يريد متابعة المناقشة قبل الطعام؟؟ الموافقة برفع الأيدي...

ارتفع صوت:

ـ ولك يا أخي... وهل بقي لنا مجال لنرفع أيدينا من شدة الجوع؟

هرع الجميع إلى باب خروج القاعة واتجهوا نحو قاعة الطعام... وكان في مقدمة الخارجين الشخص الذي كان يطالب بالحديث حسب الأصول...! وعندما جلسنا على موائد الطعام، كانت الساعة قد أصبحت السادسة عشرة! وقبل وضع الطعام، كنا قد هجمنا على الخبز الموجود أمامنا...!

وعند الساعة (١٧) كانت الأكثرية قد رحلت، ولم يبق في القاعة إلا أعداداً قليلة من المتحدثين... حتى المقاعد الأمامية كانت فارغة، كما أن رئيس الجلسة ذهب إلى بيته بسبب مرضه...!!

وبما أن النعاس أصاب الجميع بعد تناول الغداء، فتم اختيار بديل للرئيس في وقت قصير جداً لإدارة المناقشة... كان الجميع يتثاءبون دائماً... ومن كثرة التثاؤب كادت عظام فكّي أن تخرج من مكانها...! الجميع يتثاءبون... الرئيس، والأعضاء... الجميع... نصفهم يفتح فاه والنصف الآخر يغلقه...!! كانت عيون الجميع قد أغمضت، أو على وشك الإغماض، حتى عيناي كانتا مغمضتين دون أن أشعر بذلك! وبين

وقت وآخر كنت أسمع: «المحادثة حسب الأصول».

كان مقرراً للرئيس أن يلقي الخطاب الافتتاحي، وكانت ثمة أصوات تتصارع داخل أذني... «الوقوف دقيقة صمت لشهداء الانقلاب والثورة».

وقفت سيدة عن كرسيها مدعية أنها من أنصار المحافظة على البيئة، وأنه يجب عدم التدخين في القاعة، وتحدثت مطولاً عن أضرار التدخين وعواقبه على المدخنين والشعب...

كنت قد غفوت ثانية، وحلمت أثناء نومي...! والإنسان لا يستطيع أن يعرف زمن حلمه قصيراً كان أم طويلاً... فنهضت واقفاً من التصفيق الحاد، وبما أنني لم أفهم سبب هذا التصفيق الحاد لأنني كنت نائماً، سألت رجلاً بجانبي:

ـ ماذا يجري؟

قال الرجل وهو يمسح عينيه مثلي:

ـ لا أدري.

فبدأنا نحن الاثنان بالتصفيق بقوة أكثر من الآخرين...!

كان الاجتماع قد انتهى وخرجت من القاعة... نظرت إلى ساعتي وإذا هي الثامنة إلا ربعاً مساء...

لا أعرف ما الذي استفاده المشتركون من هذا الاجتماع...! أما أنا فقد توصلت إلى معرفة موقع ومكان تركيا في النظام العالمي الجديد...!!!

○ ○ ○

المحتويات

الدغدغـــــــــــة

لم تمنع خوازيق المعارضة من وقف هدر أموال الدولة.. ولم ترغم هراوات الجندرمة سكان القرية من التوجه إلى ساحة البلدة لاستقبال المسؤولين والتصفيق لهم...

ولم تتمكن بطاقتي الصحفية أيضاً من تخفيف عقوبة السجن لمقالة صغيرة نشرتها في الصحف تتعلق بزعيمين: الأول طلَّق زوجته لعدم إنجابها ولداً ذكراً، والثاني لزواجه ثانية من مطلقته العاقر...

وبينما كنت أحاول إظهار حبي وعشقي لسيدة طلبت مني أن أعلمها كتابة القصص الساخرة، كانت بدورها تسخر من شخصيتي وحبي الوهمي...

لقد ترك والدي وصيّة تقول: إياك يا بني أن تشتري لزوجتك جورباً ناعماً غالي الثمن، لأن تعاستك تبدأ بهذا الجورب.

قصص جميلة ومعبّرة تطالعونها في هذا الكتاب...

الناشـــــر

الغلاف: سندباد

السعر ٢٠٠ ل.س